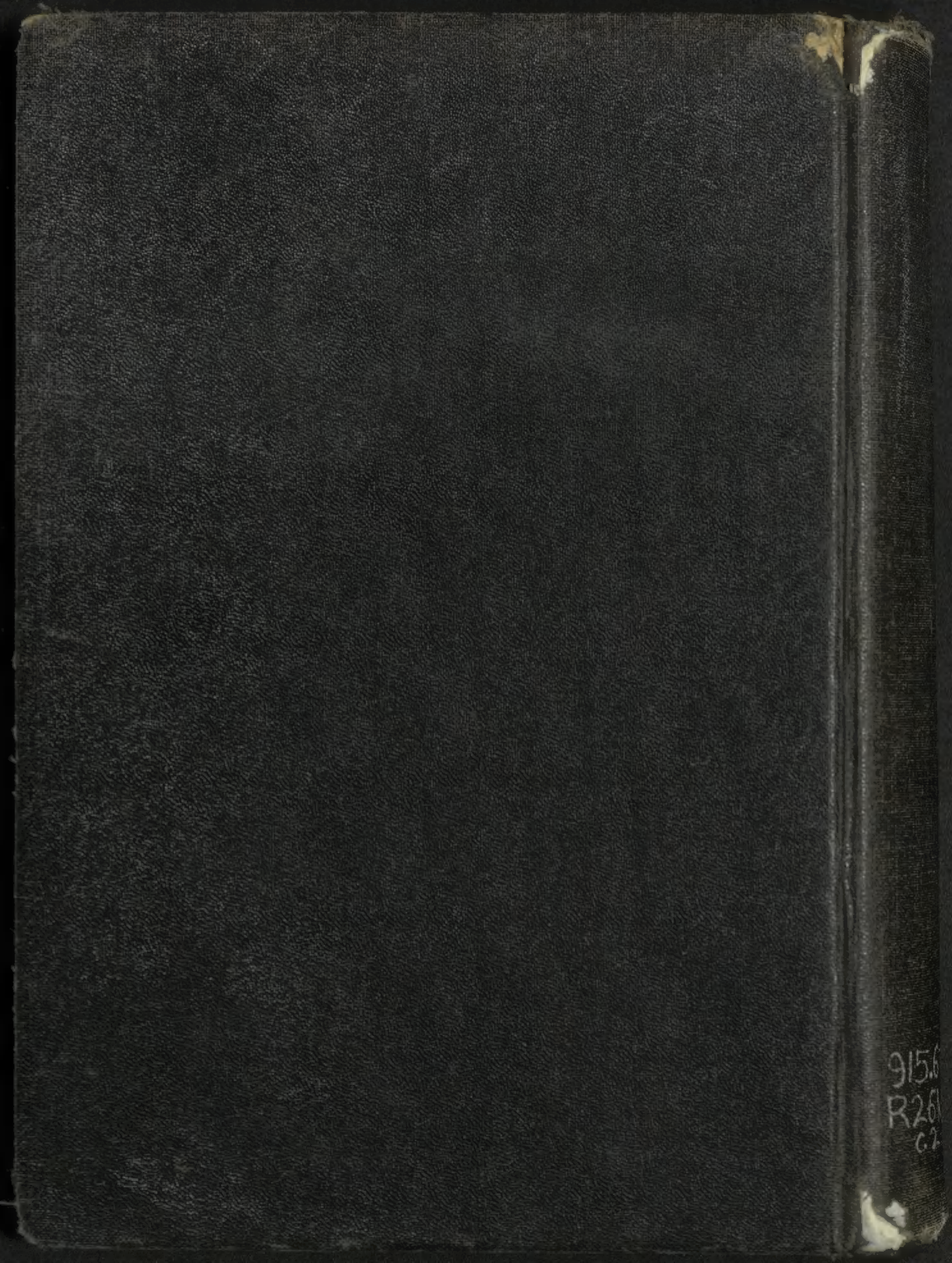
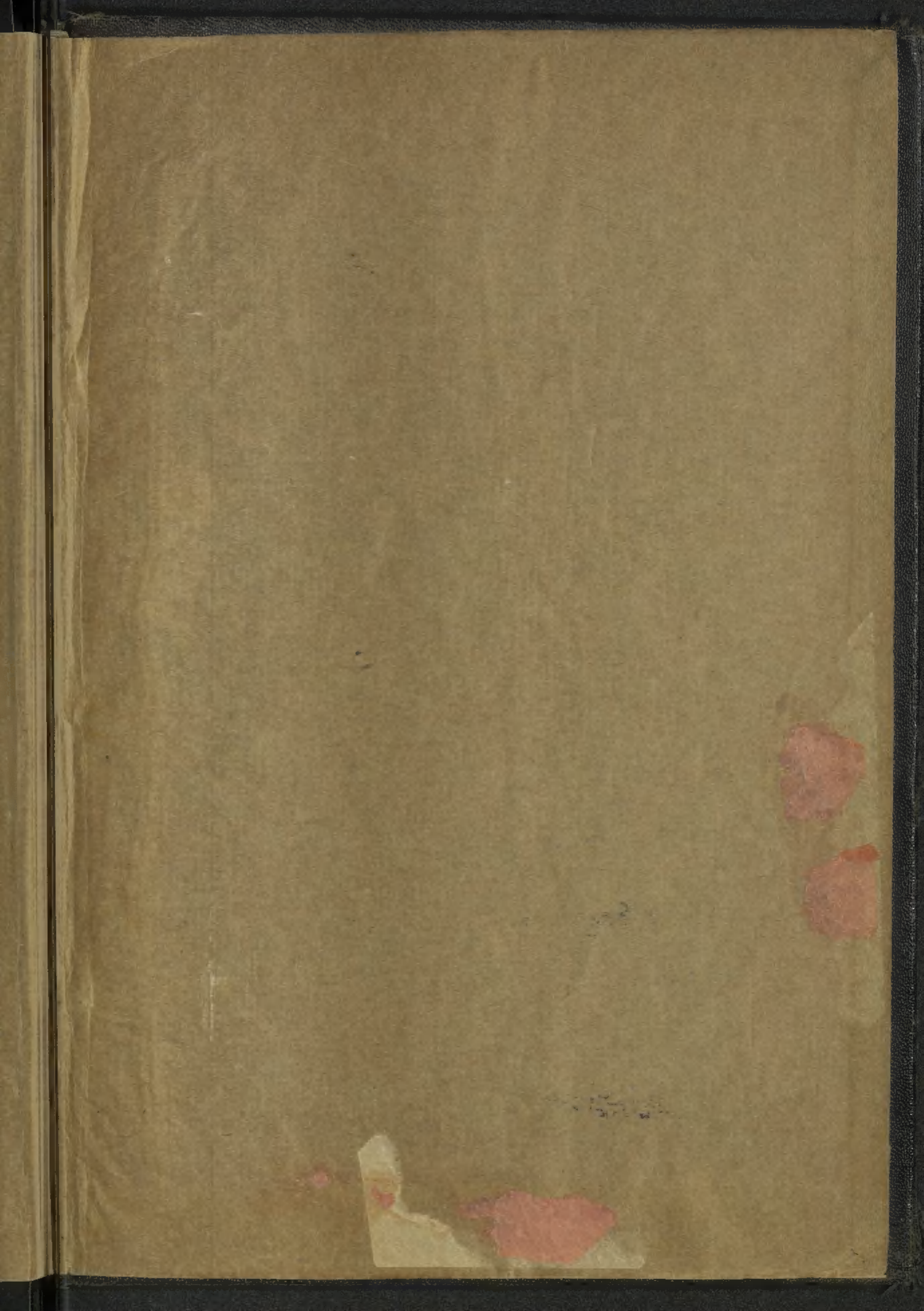
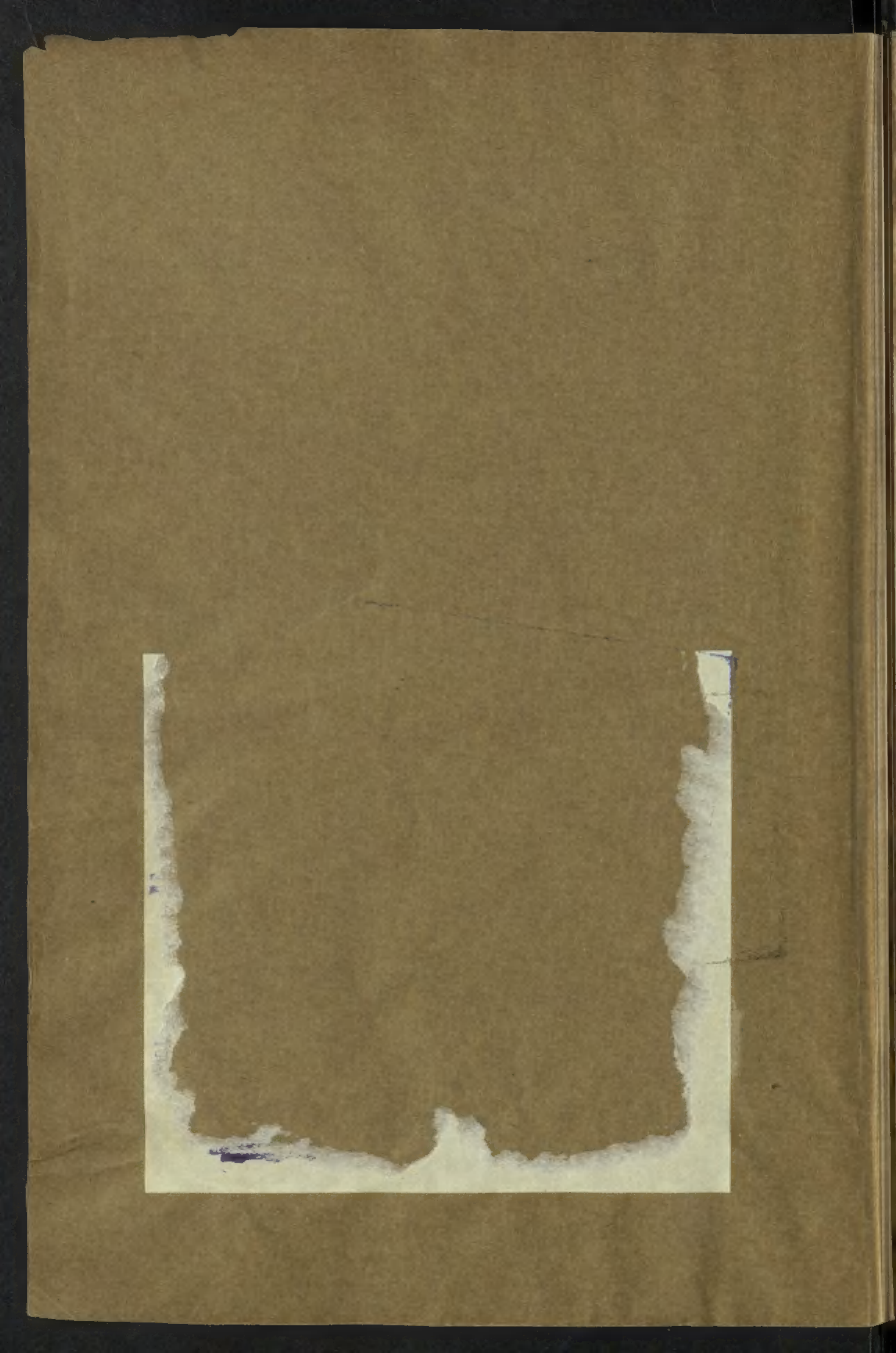
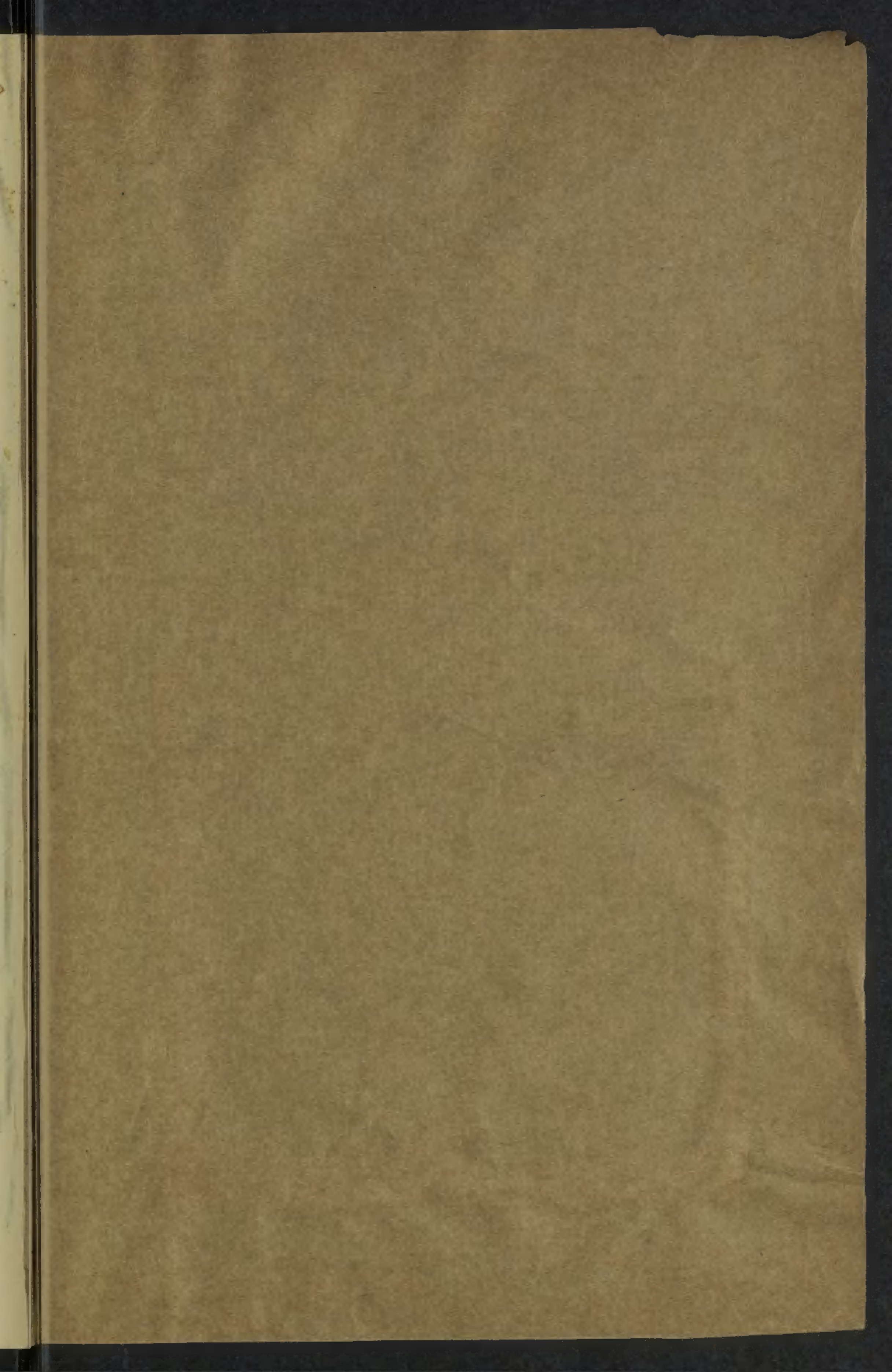
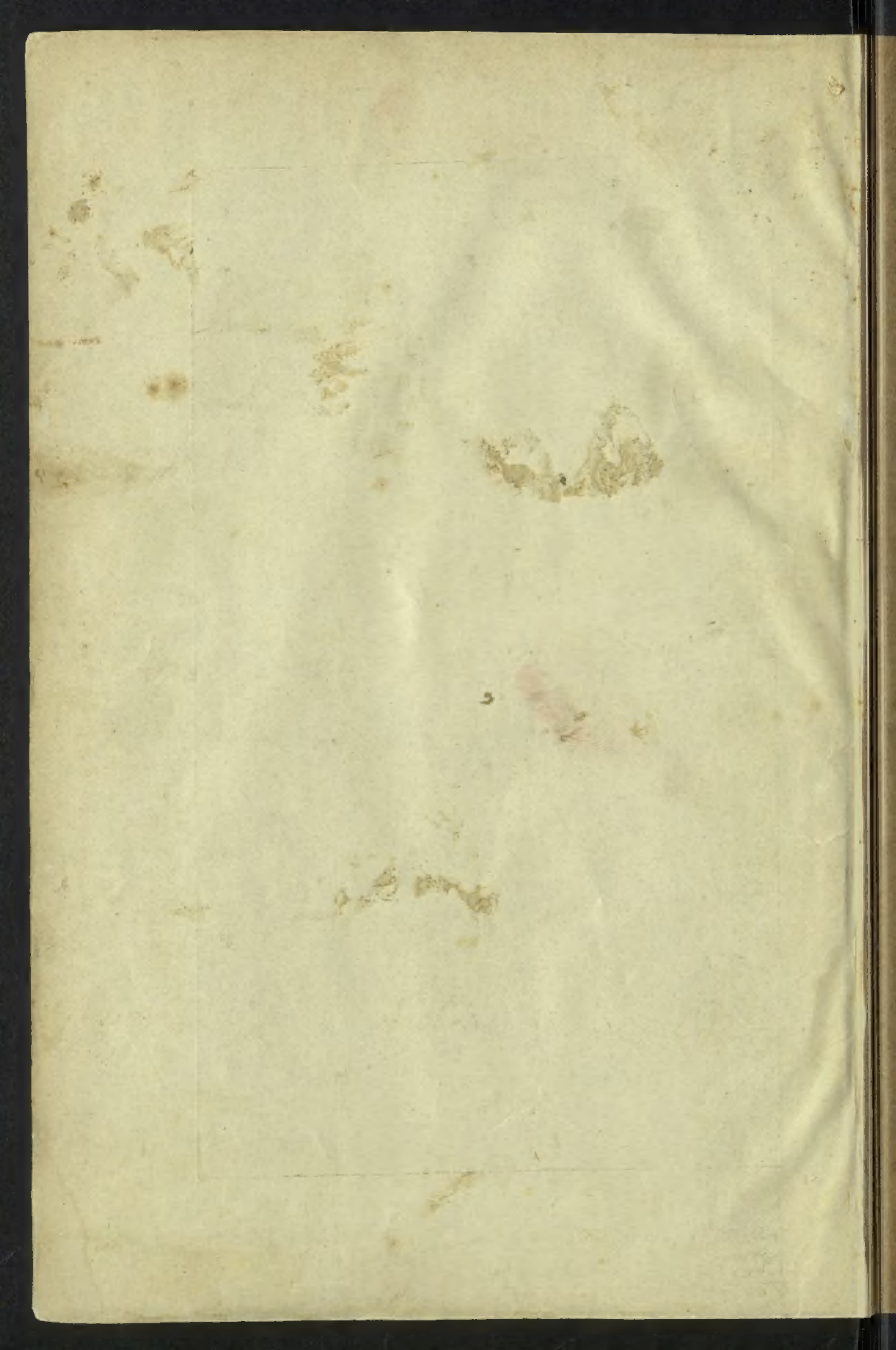

915.6
R26
c.2











(١) فيصل الاول ملك العراق (٢) البر الاول ملك البلجيك يوم كان زائراً بغداد في ربيع سنة ١٩٣٣

(٣) السر فرنسيس همفريز السفير البريطاني يستعرضون حرس البادية

A. Abbosh & Co

قلب العراق

كتاب
سياحة وسياسة وادب وتاريخ
مزين بالخرائط والرسوم

تأليف

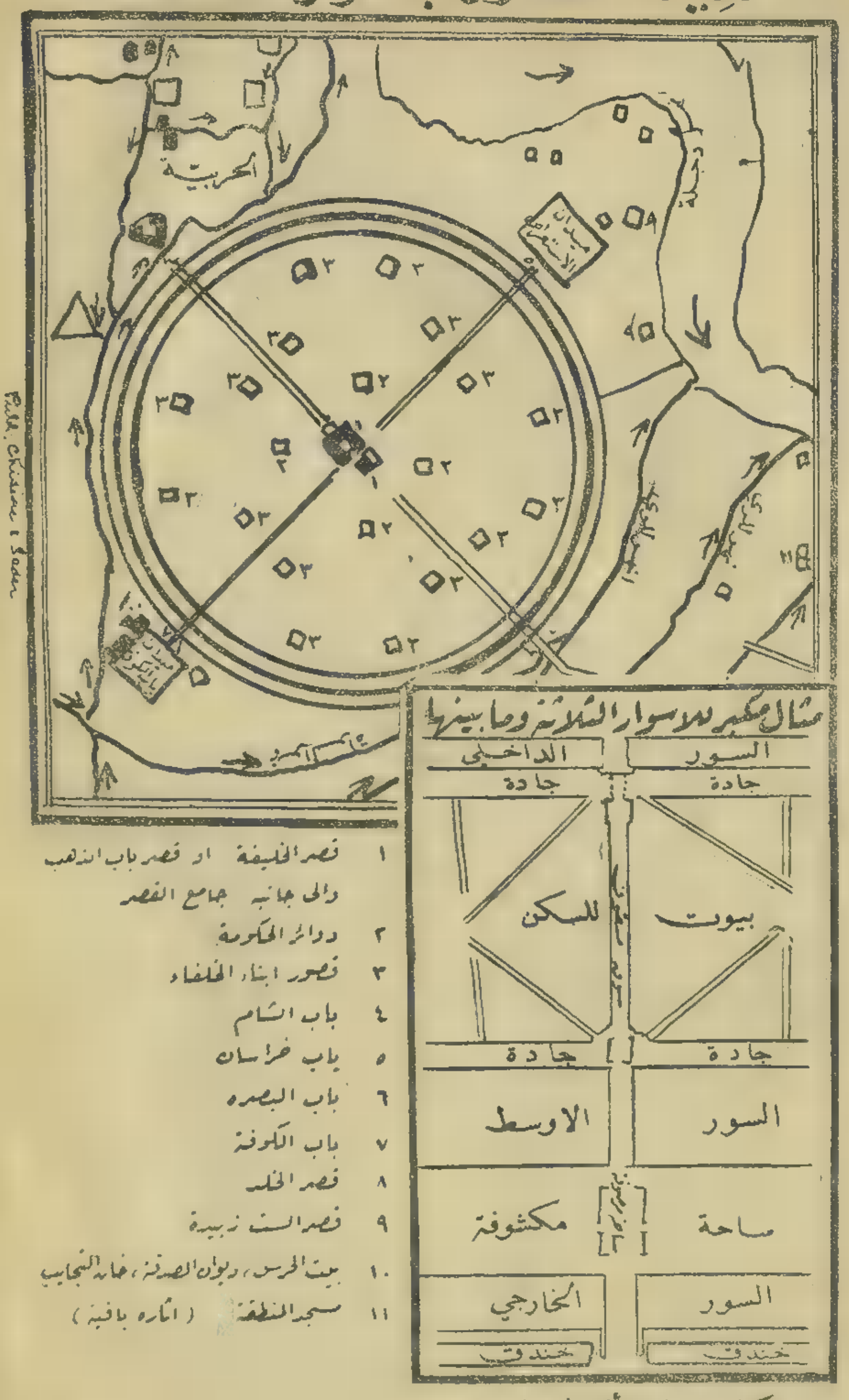
امين الريحاني

مطبعة صادر : بيروت ١٩٣٥

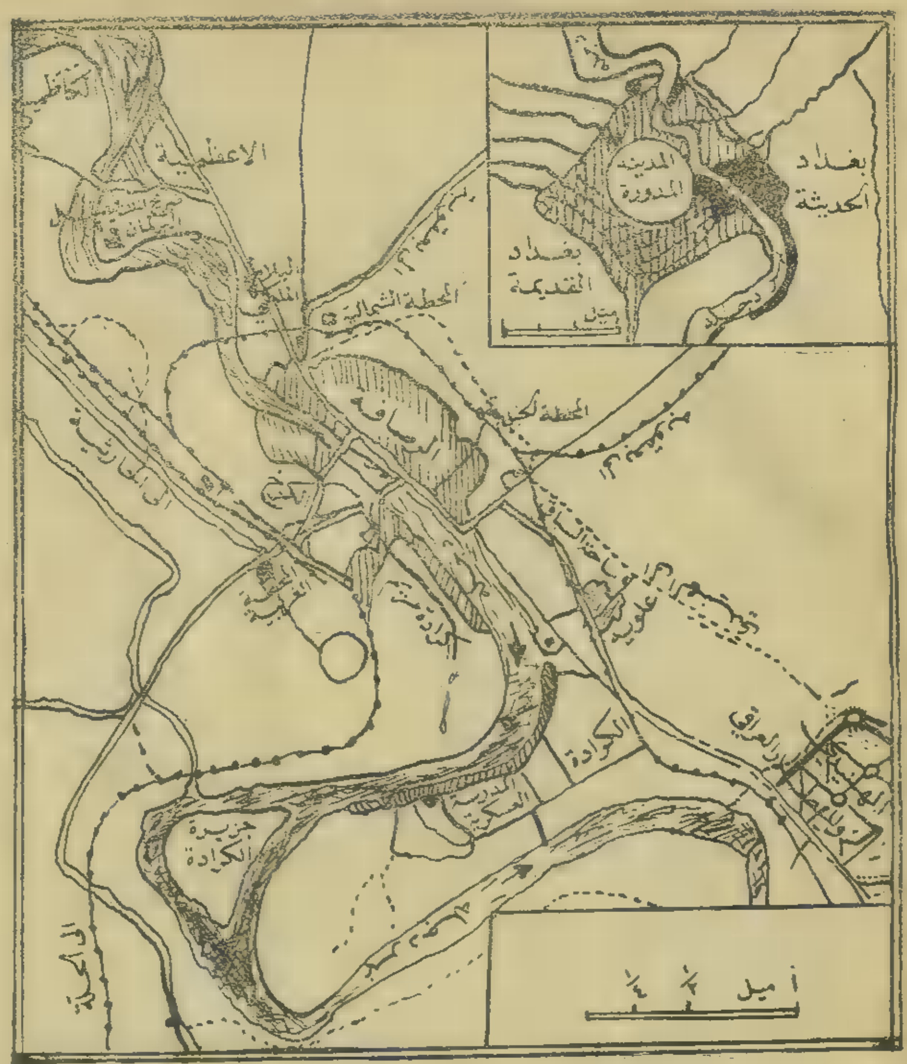
فهرس الخرائط والرسوم

فهرس الكتاب

المدينة المدورة بأسوارها الثلاثة

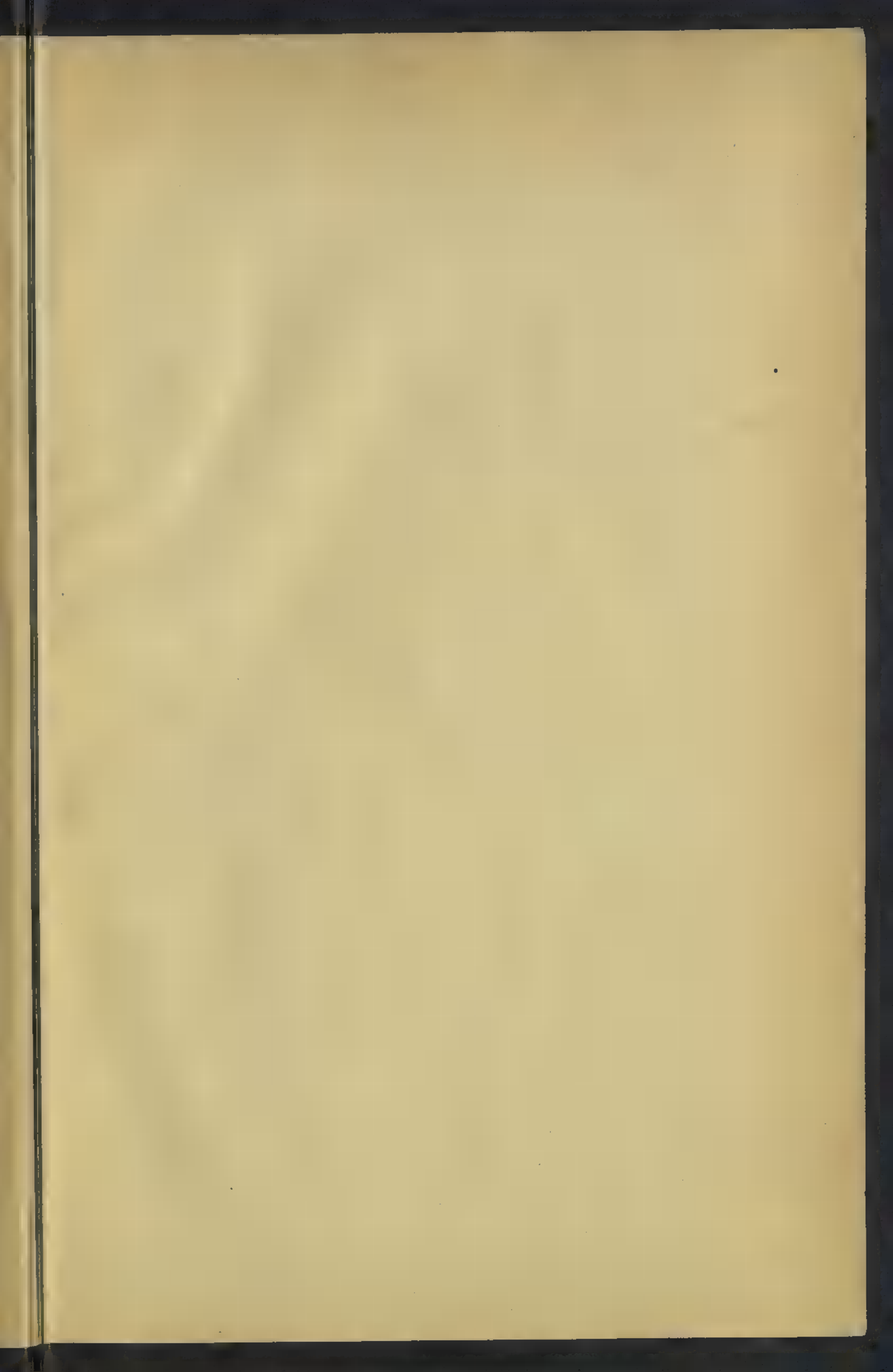


من كتاب « بغداد » تأليف له سترانج



ضواحي بغداد

من « جغرافية العراق » تأليف طه الهاشمي



تمهيد

من خِلال العرب خَلة اولية في التوحيد والتفريق ، او في المنازع الشخصية والقومية ، تبدو في كل مظهر من مظاهر الحياة – هي خَلة اجتماعية سياسية دينية ادبية . وهي كذلك لغوية .

خذ القاموس شاهداً ، وحسبك ان تستنطقه في مادة واحدة هي مادة مزج . فما الصلة المعنوية او اللفظية بين « مزج الشراب » وبين « التحرش » و « اصفرار السنبل بعد الخضرة » ؟ هذا في السطرين الاولين من المادة . ولو فرضنا ان توحيدها ممكن فينبغي ان يُنبذ منها كل ما لا يلتئم ووضعها الاصلي لفظًا ومعنى .

ولكن الامتزاج التام – الامتزاج الذوقي او الادبي او السياسي او الاجتماعي ، الذي تختلط فيه اشتات العناصر بعضها ببعض ، فيتألف منها وحدة حقيقية متناسبة ثابتة ، وحدة خالية مما يتقلقل فيها او يفسد روحها – ان هذا الامتزاج مفقود في الحياة العربية في كل مظاهرها . ويصح ان نقول ، علَى الاجمال ، ان العرب يقفون في المزج عند الجمع ، او في الادغام عند الضم ، ولا يرون فرقًا بين الاثنين .

اعطيك المثال من الوحدة الكبرى الدينية . فما وُفِّق الاسلام في مزج شتى العناصر التي دانت به . لقد ضمها اليه ، نعم . ولكنه ما حاول ان يجعلها جسماً مركبًا واحداً ، تضيع فيه صفات جزئياته ، او بالحري تمتزج بعضها ببعض لتتألف منها الصفة الكبرى للجسم الواحد الاكبر .

– تعالوا ، وظلوا كما انتم . تضامّوا ، وحافظوا علَى جنسياتكم

واماراتكم وشيخاتكم . ادفعوا الجزية ، وتمسكوا باضاليلكم . توحَّدوا ، ولا تتنازلوا عن لهجاتكم ولغاتكم .

بمثل هــذا ، على ما يخيل لي ، كان ينطق السيد والحاكم والامام والاديب . وكل واحد منهم ، من وجهة واحدة في الرقي البشري ، مثال الكرم والسماحة والتساهل - وكل واحد منهم ، من وجهة اخرى مهمة ، قليل الفطنة ، قصير النظر .

لولا ذلك لما كان العرب حتى اليوم مقيمين على كثير من خطأ الاجداد ، وخطل الاقدمين . فهم يتضامون ، ولا يختلطون ، واذا تضامنوا فلا يتوحدون . هم يجتمعون ولا يمتزجون روحاً ومعنى امتزاج الشراب بالماء . أفلا ترى ان لكل قبيلة تقاليدها القديمة ، وعاداتها ، واحكامها ، ولهجتها — وعنجهيتها . وعندما تدخل في الحكم المدني العصري تشترط علَى الحكومة ان تحافظ على تلك التقاليد والاحكام . فتقبل الحكومة الشرط ، اما لانها عاجزة ، واما لانها لا ترى الامر يستحق نفقات حملة عسكرية . وهي تلجأ ، في كلا الحالين ، الى الطريقة القديمة : ادخلوا في الطاعة ، وظلوا كما انتم . ادفعوا الخراج ، واحتفظوا بحقوقكم التقليدية .

كلمة في القاموس جرتني الى هذا الموضوع ، وهو جدير بكتاب . وما كان في نيتي ان اكتب حتى هذا التمهيد لولا رغبتي في الجواب على سؤال قد يسأله القارىء . وقد سألته انا قبله .

ولكني ، قبل ان ظفرت بالجواب ، لقيت من البحث عرق القربة كما يقال - فقد نفضت الغبار عن طائفة من الكتب القديمة . وقتلت طائفة من العث فيها ، ثم قلبت فقلبت في صفحاتها السوداء الصفراء ، ولا تبويب يهدي ،

ولا فهرس يعين ، وانا ادعو لاصحابها ، وطابعيها ، وباعتها بدوام النعم في اعلى الفراديس . ولو فطنت في بادئ الامر الى القاموس لاستغنيت عنها كلها .
وما السؤال ؟ لماذا سميت البلاد ، موضوعُ هذا الكتاب ، بالعراق .

رحم الله كل من حمل حجراً الى بيت هذه اللغة ، وكل من وضع حجراً في اساسه ، وكل من رفع حجراً في تشييده . رحم الله القصابين والنحاتين والبنائين والطيانين والمزينين جميعاً . فقد كانوا كلهم مثال السماحة والتساهل — والحماقة . فحذوا حذو سادة القوم ، واقتدوا برجال السياسة والدين . — ادخلوا بسلام وظلوا كما انتم . تعالوا الينا بكل ما عندكم ولا تخافوا عليه .

لذلك نقرأ في القاموس : « اللغة ما جرى على لسان كل قوم . » و « اللغة هي الكلام المصطلح عليه بين كل قبيلة . » ولقد جاءت كل قبيلة بما عندها . ولقد بنى البناءون ، فركموا الحجارة بعضها فوق بعض ، دون ان يراعوا علم المنطق ، او مبدأ التناسب ، او قاعدة الامتزاج ، وضرورة الالغاء والانتقاء .

وها قد وصلنا ، ايها العرب ، الى مادة عرق فماذا عندكم منها ؟ هاتوه كله بحذافيره ، ولا تخشوا ان يضيع شيء منه . ان من يكلأ الارض والسماء ليكلأهُ ، اي ، ورب الكعبة . فجاءت هذه القبيلة تقول : عِرْق ، والاخرى تقول : عَرْق ، والثالثة تقول : عُرْق . فقال البناءون : اهلاً وسهلاً ومرحباً بعُرق وعَرق وعِرق . واننا فوق ذلك نضمن لكل لفظة اشتقاقاتها وشوازدها — هي المساواة حتى في اللغة — فنقول : عُروق أعراق عِراق الخ . والنتيجة ، ايها القارئ العزيز ، ثلاث صفحات كاملة من قاموسي العادي ، ولا ادري كم صفحة من الفيروزبادي .

اما الذي يهمنا الان من كل المصادر والاشتقاقات فهو عِرْق وجمعه عِراق . الا ان هذه اللفظة وحدها ، في مفردها وجمعها ، تبلبل طالب العلم وتثير اشجانه . فماذا تفعل بتلميذ اللغة وهي حبلى بالمعاني المتناقضة العجيبة ، الاصلية والمولدة والمعجمة ؟ وما حال الكاتب المسكين وامثالها ، وهو الراغب ، من كل قلبه وعقله وروحه ، بكلما فيه تستقيم وتسلم لغة سيبويه والكسائي والمبرّد ، برّد الله مثاويهم جميعاً .

اذا اخطأ الكاتب في تحريك او تسكين جرف من هذه الاحرف الثلاثة — ع ر ق — استهدف لسهام النقد ، بل لجمر التوبيخ والتقريع . فلو قال عَرَقَ بدل عَرِقَ ، او لو كتب اللفظة دون حركاتها ، لترك القارىء في بادية من الحيرة والشك والاضطراب . وقد يشك حتى في حسن نية المؤلف . فهل يُراد منه ، اي من القارىء ، ان « يعرُق العظم » اي « يأكل ما عليه من اللحم » او « يعرِق » اي يذهب ، او « يعرَق » اي « يترشح جلده فهو عرقان » ؟ ان في الامر ما يعرِّق حقاً .

وليس ثمة ما يخفف منه حتى ولو حصرنا غرضنا في عِرْق ، اي اللفظة التي نأمل ان تنير لنا اسم هذه المملكة القديمة الجديدة التي انخرطت اخيراً في سلك عصبة الامم . فمن « الماء القليل » ، احد معانيها ، الى « تواشيج (اشتباك) عراق النخيل » ، تمر بنا هذه اللفظة على « شاطىء النهر » الى « الجبل الغليظ المنقاد » ، ثم تصعد بنا في « الجبل الصغير » ، وتهبط بنا الى « السبخة » فترينا فيها « الظرفاء » ، ثم تنقلنا الى « حبلٍ رقيق من الرمل المستطيل » وهي اثناء ذلك تزيدنا علماً « بجوف الريش » و « بقايا الخمض » و « ما احاط بالظفر » و « الحشا فوق السرّة » و « فناء الدار » و « الخرز

المثنى في اسفل المزادة » و « قُطر الجبل » و « الجسد واللبن والنتاج الكبير »!
وهل تبتغي اكثر من هذا النتاج اللغوي، وهو كله من فضل عِرْق؟
وهل في هذا الخليط من لغات القبائل ما يهدينا الى الضالة المنشودة ؟ اين منه العراق، اي اسم البلاد التي استحقت هذا الكتاب ؟

قال احد الثقات انها سُميت بهذا الاسم « لتواشج عِراق النخل والشجر فيها . » واين الاشجار اليوم في بوادي العراق ؟ وقال آخر من اساطين اللغة : « سُميت بالعراق لانها استكفّت[1] ارض العرب » . وقال ثالث : « انها معربة ايران شهر ومعناه كثير النخل والشجر » . فضاع الاصل في التعريب كما ضاعت الحقيقة في سراديب هذه اللغة . ومن طريف ما جاء به الاساطين هو ان الاسم مأخوذ من عراق المزادة « لجلدة تجعل عَلَى ملتقى طرفي الجلد اذا خُرز في اسفلها لان العراق بين الريف والبر » . هو الاعجاز، في المجاز .

اما المعقول في كل هذا العلم المنقول فهو ان البلاد هي على « عِراق دجلة والفرات اي شواطئهما . » هوذا معنى اللفظة العربية الذي يدنينا من اللفظة المركبة اليونانية التي اطلقها الاغريق على العراق، اى مِسوبوتاميا، وترجمتها الحرفية هي : ما بين النهرين .

---

(١) استكف الناس حوله استكفافاً احاطوا به ينظرون اليه — فهل العراق احاطت بارض العرب ام هل ارض العرب احاطت بالعراق . لست ادري ولا صاحب القاموس يدري . الا انه قال ايضاً : استكف الشيء اخذه بكفه . ويبعد ان يكون الكف المراد حتى في المجاز . فالجزؤ لا يستكف الكل . ولو فرضنا ان العراق كله كف كبير، فان هذا الكف ليضيق دون ارض العرب . وللاستكفاف غير هذين المعنيين نعفيك منها . ونستغفرك عما تقدم .

ولكن الاغريق اطلقوا اللفظة على البلاد الواقعة بين النهرين فقط ، وقد اسماها العرب بالجزيرة ، واطلقوا « العراق » على البلاد كلها « من عبادان الى الموصل طولاً ، ومن القادسية الى حلوان عرضاً . »

وان في الاسم العربي ، على تعدد معانية ، وغموض مبانيه ، مـا يحببه الى المغرمين بالاقتصاد في هذا الزمان . فاذا كان يفتقر الى الرنات والتموجات الحافلة بها اللفظة اليونانية — مسوپوتاميا — فهو ابسط واقصر منها ، وهو اسهل لفظاً وحفظاً ، وهو — قبل كل شيء — عربي ! والسلام على من تحمّل منا هذه اللغويات ، وما نطق ، وهو يقرأها ، باللعنات .

امين
الريحاني

الفريكة — لبنان .

في ٢٢ ايار سنة ١٩٣٤ و ٨ صفر ١٣٥٣

العراق

حدوده	:	شمالا ؛ بلاد تركية . شرقاً ، بلاد ايران . جنوبا ؛ خليج فارس، جنوباً بغرب ، البادية وبلاد نجد . غرباً، بادية الشام .
ألويته	:	١ً الموصل ، ٢ً السليمانية ، ٣ً كركوك ، ٤ً اربيل ، ٥ً ديالى ، ٦ً بغداد ، ٧ً الكوت ، ٨ً الحلة ، ٩ً الدليم ، ١٠ً كربلاء ، ١١ً العمارة ، ١٢ً المنتفق ، ١٣ً الديوانيه ؛ ١٤ً البصره .
عدد سكانه	:	نحو ثلاثة ملايين ومائتين وخمسين الف نفس
مساحته	:	نحو مائتي الف ميل مربع .
شعوبه	:	عرب وفرس واكراد واتراك وارمن وكلدانيون واشوريون

اهم قبائله : المنتفق وبنولام والبومحمد وربيعة وتميم والدليم وعنزه وشمّر والاقرع وعفك وما يتفرع عنها من الافخاذ والبطون ·

مدنه الكبيرة : بغداد والبصرة والموصل وكربلاء والنجف والحلة واربيل ·

مذاهبه : الشيعة : جعفريون وبعض الزيديين والاسماعيليين ·
السنة : حنفيون وشوافع وحنابلة ·
المسيحية : يعاقبة ونساطرة وكلدان وسريان كاثوليك وروم ارثوذكس ولاتين وبروتستانيون · ثم اليهود والصابئة واليزيدية والفرس والهندوس والبهائيون ·

حوار بين
الماضي والمستقبل

— وكان الكهان في معبد عِنليل بِأور ونِبور يألّهون ملوك سُومِر الدولةِ الاولى في وادي الرافدين (٣٥٠٠ قبل المسيح)

— وما الذي صنع اولئك الملوك والكهان لخير السواد من الناس ؟

— وسرجون الاول ملك أكاد اكتسح السومريين ، وفتح بلادهم ، ومدّ ملكه جنوباً الى الخليج ، وشمالاً الى الجبال (٢٧٥٠ ق ٠ م ٠)

— وما الذي قام به سرجون وخلفاؤه لخير السَواد من الناس ؟

— ومن الجبال في الشرق والشمال انحدر بجيشه كدُور ناخُنْتا ملك عيلام ، فغزا بلاد سرجون واكتسحها ، وحمل تماثيل آلهتها الكلدانيين الى أشمونا عاصمة عيلام (٢٢٨٦ ق ٠م ٠)

— وما الذي صنع كدور هذا ، وما الذي شاد خلفاؤه العيلاميون لخير السواد من الناس ؟

مدنية القصور والمعابد
للملوك والكهان ،
والجهل والفقر والعبودية
للسواد من الناس ٠

* * *

— وكان كهان عشتروت بنينوه ، وكهان مردوخ ببابل ، يتعطون السحر والشعوذة ، ويمـلأون بطونهم من ضحايا الهيكل ، بينما ملوك بابل وآشور يحتربون ويتطاحنون من اجل السيادة والمجد ·

— السيادة والمجد للكهان وللملوك ، والسحر والنير للسواد من الناس ·

— وحمورابي اول المشترعين ، وآشور بنيبال اول المحبين للعلم والعلماء —

— وأحتان في البادية ، مصباحان في الليل الدامس ·

— وسنحاريب الفاتح ، ونبوخذ نصر المصلح —

— ناهب فينيقية ، ومذِلّ اسرائيل ·

من جبال الشمال تدفق الثتيون ، ومن جبال الشرق انحـدر اكزارس يقود جنوده الماديين ، ومن السهول في الجنوب سـارع جيش بابل الى نجدة جيش مادي ، وقد حالف النهران المحاصرين — طغى الفرات ، وطغى دجلة طغيان الجيوش الفاتحة — وصاحوا كلهم قائلين : لتسقط نينوه ! سقطت نينوه (٦٢٥ ق · م ·) وبعد ست وثمانين سنـة (٥٣٩ ق · م ·) سقطت بابل ·

— دول تدول ، ومجد بعد مجد يحول ، مجد سومر وعيلام ، ومجـد بابل وآشور · ثم ينتقل صولجان الملك من يـد الساميين في وادي الفرات الى يد الآريين من الملوك ·

— وما الذي صنع الآريون من اجل السواد من الناس ؟ أفي سبيل

المجد تُشيَّد الدول ام في سبيل الانسان ؟ انهم لظلامون، الساميون والآريون جميعاً . انهم النهابون الفاسقون . شيدوا المعابد والقصور ، وسخّروا لها العباد . ألّهوا انفسهم ، وكانوا قساة عتاة ، وكانوا عبيداً للشهوات .

* * *

— ومن مهد الثقافة الغربية جاء تلميذ ارسطو ، الشاب العجيب اسكندر المقدوني . اجتاز البحر الى الشاطىء الاسيوي . قاد الوفه الثلاثين ، وكان ظافراً في كل مكان . هزم الفرس في واقعة الغرانيق وفتح فينيقية ، واستولى على مصر ، وتعقب الملك دارا الى بلاد الرافدين ، فادركه قرب اربيل ، وكانت الواقعة الفاصلة بين الشرق والغرب (٣٣١ ق.م.)

— في اربيل أُبدل نيرٌ من حديد عتيق بنيرٍ من حديد مصقول . راح الفرس وجاء الاغريق .

— كان الاسكندر فاتحاً باسم العلم والنور .

— كان الاسكندر مصاباً بداء الصرع . غزا الشرق باسم الآلهة ، وعاد منه ناقماً عَلَى الارض والسماء .

— ولكنه في بابل كان مجدداً .

— شاء الاسكندر ان « يُأغرق » العالم ، فكانت بابل النهاية لصرعة — لسكرة — مفجعة ، وكانت النهاية لحلم ذهبي .

— قد تحقق قسم من ذلك الحلم ، فبدت بعد الاسكندر دلائل التآخي بين الشرق والغرب .

— بدت ثم ردَتْ . فقد تغلب البرثيون التورانيون على السلوقيين الاغريق (١٢٦ ق.م.) يوم كان ذاك التآخي في ازدهاره الاول ،

فقضوا عليه ·

زُرعتْ بذوره في ارض طيبة في الشرق الادنى ·

— فجاءت رومة بجيوشها تدوسه وتسحقه سحقاً · وما كانت رومة ممن يحلمون الاحلام ·

— ومع ذلك فقد كان للرومان فضل يُذكر في الرقي والعمران ·

— عمّروا المعابد لآلهتهم ، وعبّدوا الطرق لجيوشهم · وكانت الآلهة مثل الجيوش ، تستولي على الشعوب والامم باسم رومه ، ومن اجل رومة ، بل من اجل القياصرة في رومه ·

— مدنية المعابد والطرقات هي خير من مدنية القصور والمعابد ·

القصور للملوك والطرقات للملوك والصعاليك ·

— ولكن السواد من الناس في عهد الرومان كان كالسواد في عهد بابل وآشور — عبيداً للكهان والملوك ، وحطباً للحروب ·

وما افلح الرومان في وادي الرافدين · بعد مائتي سنة من الاغارات والحروب سلمت رومة الى سلوقيه · وما خلا الجو لسلوقية طويلاً · عاد الفرس الى العراق (٢٢٦ بعد المسيح) فاستولوا عليه ، واستمرت فيه الدولة الساسانية اربعمائة سنة ·

— والنزاع بين الشرق والغرب ، ذلك النزاع الذي كاد ينتهي بعد واقعة أربيل ، تجدد بشكل ديني بين المسيحية والوثنية ·

— وما الذي أثمر جدالُ ارباب الدين ، المتنطعين والمتعصبين ، لخير السواد من الناس ، بل لخير الناس جميعاً ؟

* * *

وفي ظلمات الجاهلية ، في سماء الحجاز ، سطع نور النبوة ، نورُ دينٍ جديد . ومشى المؤمنون مكبرين ، وسلاحهم الاسلام وكلمة التوحيد ، فاجتازوا البوادي الى الارض الخضراء يرومون الفتح لله ، والخلاص للناس . فحملوا على الروم في سوريه ، وعلى الفرس في العراق . فكسروا جند هرقل في اليرموك (١٢هـ ٦٣٤م) وبددوا جنود فارس في القادسية (١٤هـ ٦٣٦م) وبعد عشر سنوات من وفاة النبي رُفعت اعلام العرب فوق قصور فارس ، وفوق حصون دولة الروم .

— هي نار النزاع بين الشرق والغرب تزداد اضطراماً . وهي كذلك اول شعلة من نزاع يجدّد بين الساميين والاريين ، بين العرب والعجم .

— ولكن الاسلام دين التوحيد ، ودين العدل والاخاء والمساواة .

— المساواة والاخاء في الحروب بين السنة والشيعه ! والاخاء والمساواة في الحروب بين التاتار والترك والمغول والعرب من السنيين !

— انما الحكام المسلمون ، وخصوصاً العرب منهم ، يفوقون سواهم في العدل والانصاف ، بل في كرم الاخلاق والمبرات . فقد كانوا على الاجمال اكثر حلماً وعدلاً من اكثر ملوك الفرنجة .

— يصح هذا في الخلفاء الراشدين ، وفي بعض الخلفاء الامويين والعباسيين . اما الدولة العباسية في العراق (١٣٢ — ٦٥٦ ■ = ٦٢٦ — ١٢٥٨ م) فما كانت ، على الاجمال ، المثل الاعلى في العروبة ، ولا كانت

المثل الاعلى في الاسلام . اول خلفائهـا « السفاح » وآخرهم العاجز المستعصم بالله .

— وهرون الرشيد ؟

— شخصية باهرة اجتمعت فيها الاضداد . فقد كان هارون ورعاً تقياً ، وخليعاً انانياً . وكان كثير المبرات والشواذات ، عادلاً يوماً ، ويوماً ظالماً . تارة حريصاً على ابهة الملك ، وطوراً يرمي بها الى الصيادين ... ولا اذكر بنكبة البرامكة ...

— والمأمون ، ما تقول بالمأمون ؟

المأمون ، غفر الله ذنبه في اخيه ، هو مثل حمورابي في آشور . المأمون نجم العباسيين الساطع ، ونورهم اللامع على الدوام .

* * *

— وجاء هولاكو بجيشه الجرار صائلاً فاتحاً .

— هولاكو من كبار القواد المسلمين الذين وقف الاسلام على شفاههم ، وما دخل الى قلوبهم . فهو الذي اكتسح بغداد (٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م) — ودمرها ، وعمل السيف باهلها .

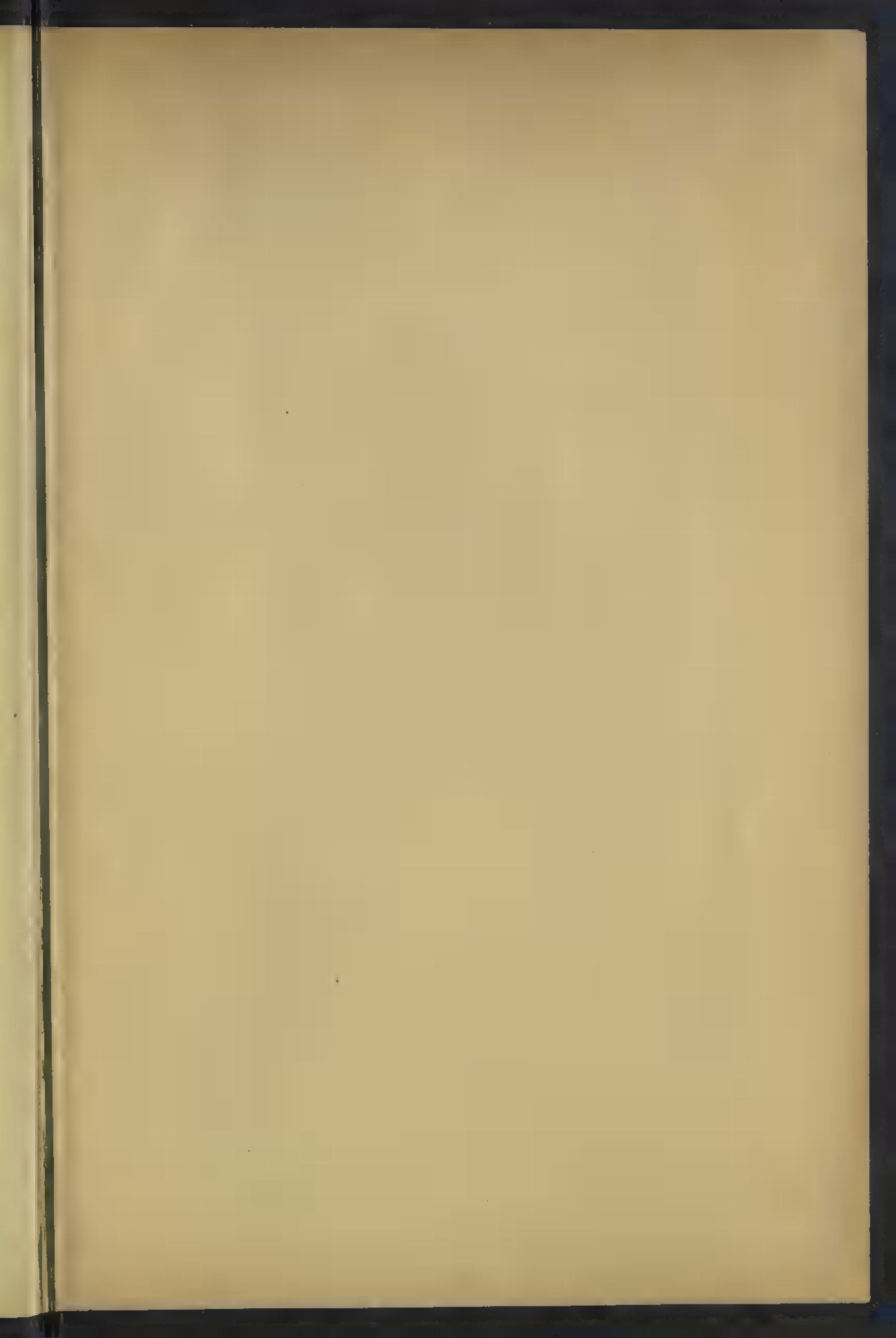
— وحكم التتار في العراق نحو مائتين وخمسين سنة ، فعاد الفرس (٩١٤هـ — ١٥٠٩م) فنزعوا السيادة منهم . ثم جاء الترك ، بعد ربع قرن ، فنزعوا السيادة من يد الفرس واستولوا على البلاد (٩٤٠ هـ — ١٥٣٥ م) وظلوا اسيادها اربعمائة سنة .

— اربعمائة سنة مظلمة ، يبدو الى جانبهـا العهد التاتاري عهداً سعيداً .

ولو استطاع الترك ان يحكموا النهرين ، دجلة والفرات ، لكانا اليوم اجف من رمل البادية ، واقفر من ارض الجماد .

* * *

وفي السنة السابعة عشرة من هذا القرن العشرين جاءت الجيوش من الغرب — رجالٌ زُرق العيون ، متحدرون من الفريد الكبير السكسوني ووليوم الفاتح النورمندي — فحملوا على الترك وانتصروا بمساعدة العرب عليهم . وقد قرأ قائد الجيوش عَلَى اهل البلاد مادةً من عهدٍ مقدس يضمن للناس حقوقهم ، العامة منهم والخاصة على السواء . ولاول مرة في تاريخ العراق ، الاسلامي وغير الاسلامي ، يؤسس في البلاد مجلس نيابي ، ويجلس على العرش ملك دستوري . اجل ، انها المرة الاولى في تواريخ دول هذا القطر كلها — الدول الآرية والسامية والتاتارية والتورانية — التي تُعلن في البلاد ، وتُضمن في دستورها ، حقوق الانسان .

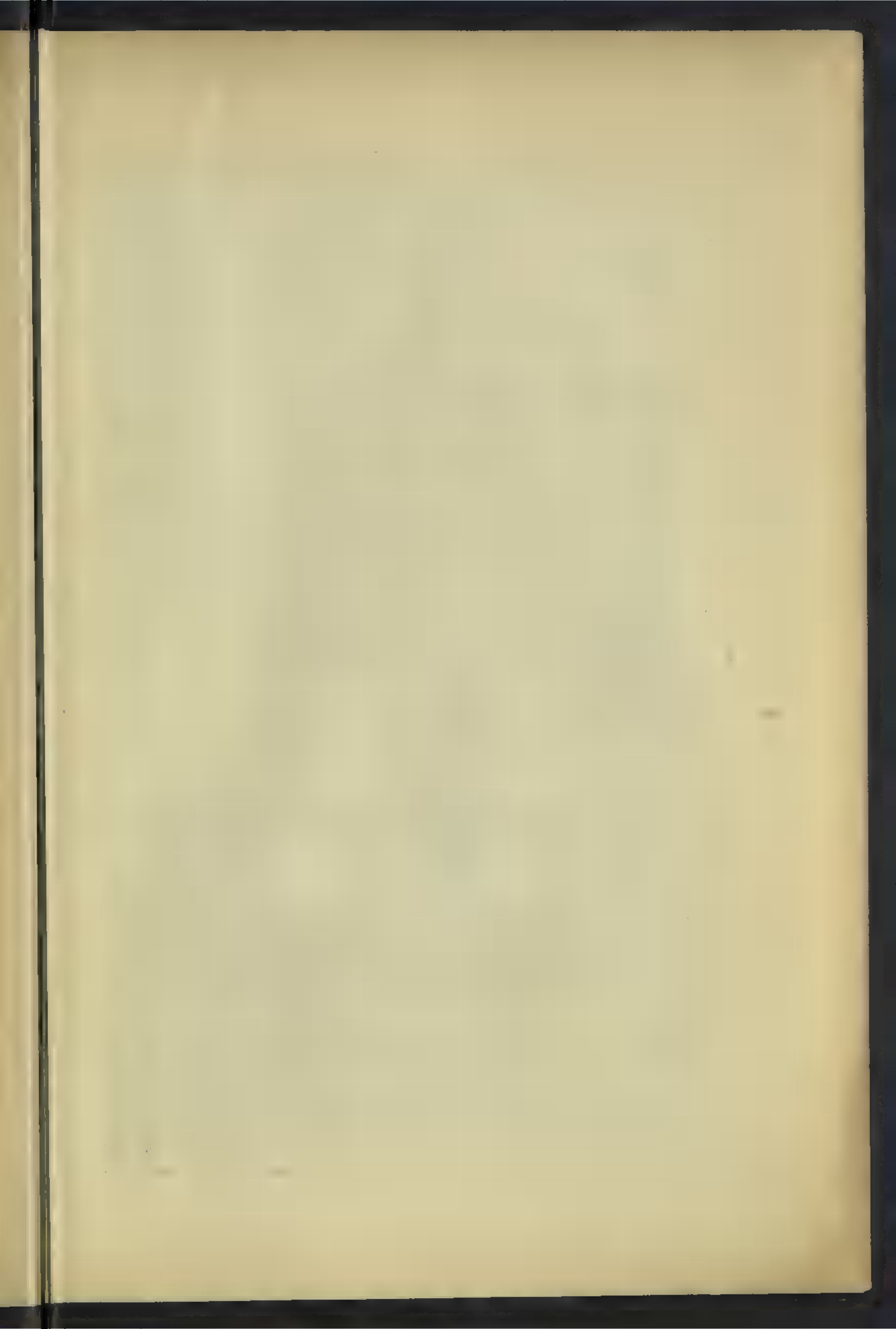


جمال
وادي الرافدين

على شاطئ دجلة

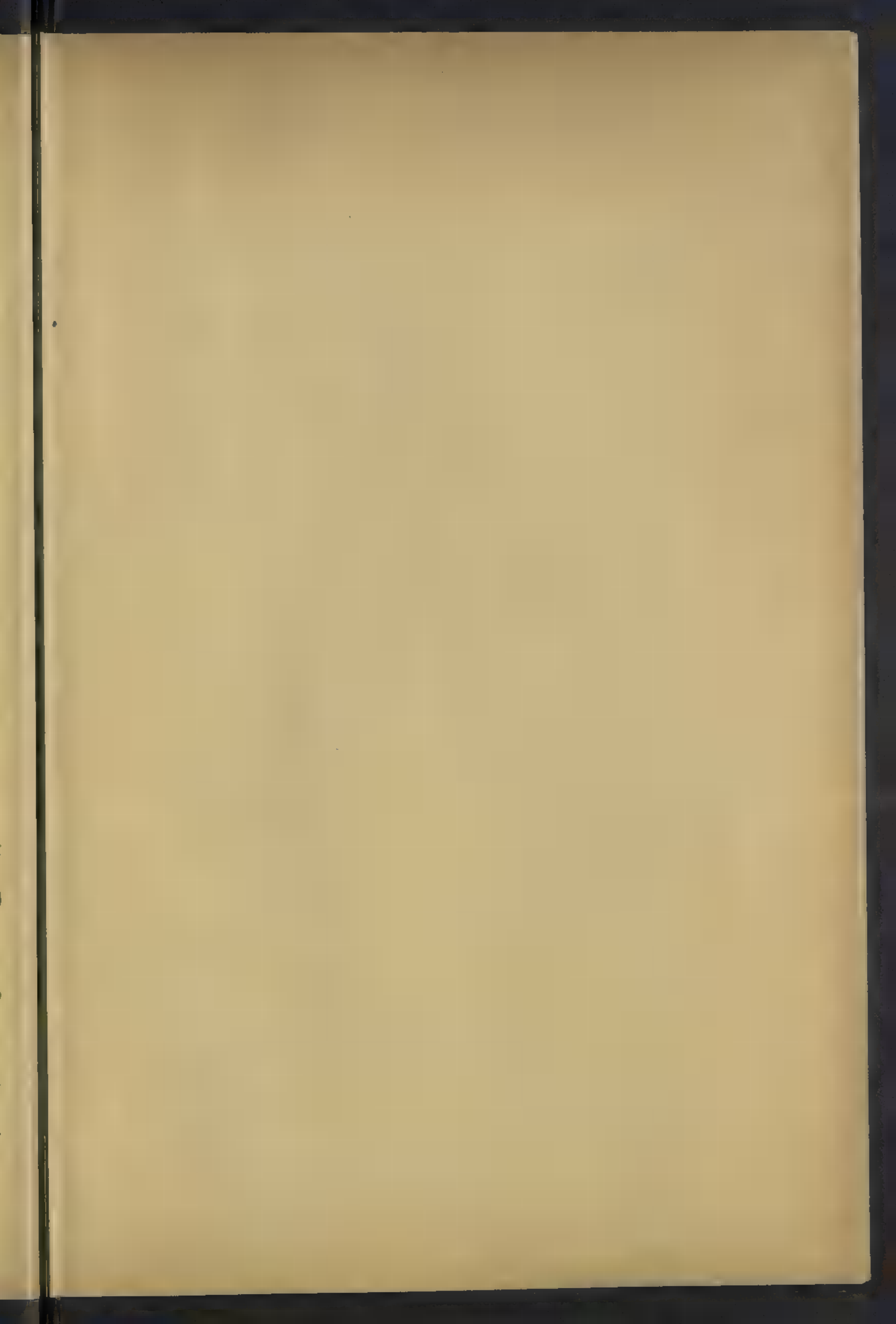


على شاطئ الفرات



القسم الاول

بغداد



الفصل الاول

الحقائق في الارقام والاحلام

المدن العربية التي زرتها — بغدادُ الفِ ليلةٍ وليلة وبغداد اليوم — تباين الحقيقة والخيال — عصر هرون الرشيد ومن نعموا به — كيف يلتقي الخليفة والصياد وبنآخيان — الحقائق والاحلام «الألفليلية» — المدنية والمدينة — نعيم الحياة وحديث عنه — شغف الشرقي بالخيال — الشاعر والمؤرخ والقصاص — الحمامات والمساجد ببغداد العباسيين — القهاوي ببغداد اليوم — «لا يحصيها غير الله» — طريقة الاحصاء — الاوهام في الارقام — الحقائق في الاحلام — اثر من عهد الطوفان — اللؤلؤ والذهب بمجذاف الملاح — شاعر من آشور وبنت من بابل — شمس الصباح في العراق ·

كنت احمل في ذهني ، عندما أقدمت عَلَى رحلتي العربية ، صورة تصورتها ، مما قرأت وسمعت ، لكل مدينة زرتها · وما تغير في الصورة بعد الزيارة شيء مهم · بل شاهدت في الصفة البارزة لكل مدينة ، فوق ما تصورت · فكانت صنعاء اكثر عمراناً وحسناً ، والحديدة اكثر خراباً وقبحاً ، وعدن اكثر تجارةً واقل عروبة ، وجدة اكثر عِتقاً ورثَّة ، وجيزان اشد وحشةً ، والرياض اعجب قداسةً ، وعنيزة بين ضعوصها الذهبية اصفى جمالاً ، والهفوف اكثر غباراً وذباباً مما كنت اتصور او اظن · فما كذّبت هذه المدن ما سمعت ، ولا افسدت ما قرأت ·

اما بغداد فأمرها غير ذلك · قد جئت بغداد من افق كان في قديم الزمان كثير الانوار والالوان · جئتها وفي القلب أثر شديد مما لا يزال من تلك البهجة في كتب التاريخ والشعر · بل جئتها من عالم الاحلام المدبجة حواشيه بالذهب والارجوان · وبكلمة اخرى لقد جئت بغداد من عالم « الف ليلة وليلة » · فهل يُعجب اذن لخيبتي ، وهل يُستغرب غمي ؟

بيد ان تباين الحقيقة والخيال هو في يومنا هذا كما كان في الماضي · ولكن الزمان يلبس الاثنين ثوباً من التقليد والتقديس ، ويرفعهما في عيون الناس الى منزلة الوحي المنزل · يحق لنا اذن ، ونحن في هذا الزمان نعرض للبحث حتى الوحي المنزل ، ان نبحث وننتقد ما يجيئنا به التاريخ قبل ان نقبله مصدقين معجبين ، او نرفضه مستنكرين ·

وليس هذا بالامر السهل · فمن ذا الذي يستطيع ان يجيب مثلاً على هذا السوءال : اين تنتهي الحقيقة في عهد العباسيين الذهبي ، واين يبدأ الخيال ؟ اني اسأل سوءالاً آخر · ولكني اقول قبل ذلك اني اصدق فرضاً كل ما قاله المؤرخون والروائيون في ذلك العصر الذهبي · ثم اسأل : هل كانت اسباب تلك المدنية منتشرة شاملة ؟ هل كانت بغداد كلها ، او هل كان جلها ، على طراز ما كان من بناء وهناء الخلفاء والامراء والاعيان ؟ وبكلمة أخص : هل كانت المرافق مثلاً واحدة في المدينة ، وهل كانت عامة ، على انواعها ، كما هي في هذا الزمان ؟

وما هي الحقيقة في عصر هرون الرشيد ؟ وما هي الحقيقة في بغداد هرون ؟ هل ننكر ما جاء بخصوصها في « الف ليلة وليلة » وفي التواريخ كثيرٌ مما في تلك الحكايات ؟ لا شك ان بغداد كانت كالقاهرة او كدمشق ،

او كانت تفوقهما في عمرانها وبهجتها · ولا شك ان الرشيد كان يفتخر بها ، ويفاجئها من حين الى حين بطرائفه وغرائبه · ولا شك ان الصيادين كانوا ينعسون بل ينامون على شاطئ دجلة ، وهم يرمون بشباكهم للاسماك · اني اصدق كل ذلك لانه الحقيقة بعينها حتى في هذا الزمان · فهناك بغداد تزين البلاد ، وهناك مليك مثل هرون من صميم العرب ، وله مثل ذلك العباسي رغبة بالتنكر فراراً من ابهة الملك ، وحباً باستطلاع اخبار الرعية · وهناك كذلك الشعراء والصيادون ·

اما تلك الصلة الاخوية ، الرشيدية ، « الألفليلية » ، بين الملك والصياد فأنك لا تجدها · قد يكون الملك دمقراطياً ، وقد يكون الصياد فيلسوفاً سقراطياً · ولكنهما يسيران كلٌّ في سبيله ، في خطٍ مستقيم او معوجّ ، ولا يلتقي الخطان حتى يجيء صاحب (اعذبُه اكذبُه) او صاحب الحكايات الشهرزاديات ، فيرى ذات يوم ظل الملك قريباً من ظل الصياد ، فيلفق القصة ، او يؤلف الاسطورة ، التي يتذبذب فيها الخطان — الظلان — ويدنو الواحد من الآخر ، ثم يتلامسان ، ثم يلتفان ويشتبكان ، ويتلونان بالوان قوس قُزح ، ويتكونان اشكالاً فنية ، رومنتيقية ، « الفليلية » تبهر الابصار ، وتسحر الباب الصغار والكبار ·

* * *

لست انكر سحر الآيات ، واعاجيب الحياة ، حتى في هذا الزمان · فالصياد البغدادي موجود كما قلت ، والملك كذلك من حقائق الوجود · ولا يُستغرَب اذا امعن الصياد في الاحلام ، وود ان يكون ملكاً من ملوك الزمان · ولا يُستغرب اذا اشتهى الملك في بعض الاحايين ، ان يكون من

الصيادين . وقد تتحقق رغبة الاثنين ، فيهتف الشعراء قائلين : لا حقيقة ثابتة غير حقيقتنا . الحقيقة الشعرية فوق كل الحقائق .

واني اسأل سوءالاً آخر : كم كان حظ عامة الناس من تلك المدنية العباسية الباهرة ؟ هل كان يتمتع الصياد والملاح والاسكاف والفلاح بشيء من تلك النعمة التي كانت تبسط اجنحتها الذهبية في البلاط وفي قصور البرامكة ، وفي كل مكان قريب من ظلال القصور الملكية والاميرية ؟ هل كان للسواد من الناس بعض ما للخاصة من الثروة والثقافة والسعادة ؟ هل عم بغداد ذلك الترف والتأنق في العيش ، وذلك الزهو والسرور ، وذلك المجد والعز والتهذيب ؟

لا يلزم ان نعود الى التاريخ لنجيب على هذا السوءال . فان لدينا في الحاضر الدليل والبرهان . ان في شرقنا اليوم — في المدن التي لا تزال شرقية ، او لم تمسّ بغير القليل من مدنية الغرب في البناء وفي المرافق العامة والخاصة — ان فيها من ظلمات الاسواق ومقاذرها ، ومن ازدحام الحياة وموبقاتها ، ومن النتانة والعفونة والامراض ، ما لا تجده في مدن اوروپه الا في بعض احيائها التي تدعى slums وهي مهد الاوبئة الادبية والاجتماعية والروحية والجسدية . اما الفرق بين المدينة الغربية والمدينة الشرقية فهو ان مثل هذا الحي في الاولى جزء صغير منها ، وهو في الثانية الجزء الاكبر .

وهذا الجزء الاكبر هو المدينة . امـا الدور والقصور وان كانت في قلبها فليست هي منها . وفي الدور والقصور المرافق والاثاث والاعلاق ، وفي غيرها الفقر والقناعة والاقذار ، والورع والاستسلام بين الاقذار . هناك اقلية تستمتع بخيرات الارض وبطيبات الحياة ، وهنا السواد من الناس وهم قانعون

بالنعيم المنتظر ، وبما تعدهم به الكتب المنزلة . هناك المدنية ، وهنا المدينة .

وبما ان السواد من الناس يعيشون محرومين في الدنيا تراهم شغفين اكثر من سواهم بالقصص والاساطير التي تمثل النعيم المنشود .

حقيقةُ النعيم ، او بعض حقيقته ، للامراء والاغنياء . وحديثٌ عنه — حكايةٌ او اسطورة او قصيدة — للسواد من الناس . ومع ان السينما تغزو اليوم بلاد القصاص ، فيتهافت العرب عليها ليروا ويسمعوا شهرزاد هذا الزمان — الشاشة البيضاء وما وراءَها من سحر النطق والتصوير — فان القصاص لا يزال مالكاً سعيداً . وله عرشه في القهاوي .

وهذا الشغف بالحكايات والايات والمعجزات ، هـذا التعظيم للخيال ، هذا التقديس للمحال ، لا يزال في الشرقي من الخلال البارزة . فهو يقنع بظل الحقيقة ، ويقبل متورعاً مجبوراً ما يُحاك من الظلال كما لو كان حقائق دينية . ثم يعلل النفس بلحم تلك الحقيقة ودمها ، بجسمها المادي . كذلك كان الشرقي ، ولا يزال علَى الاجمال كذلك .

وقد شحذت هـذه الخلة المخيِّلةَ منه ، فاصبحت بعامل الوراثة شقيقة العواطف في السيطرة على نفسه — في عقائده واحكامه ، وفي ارائه واهوائه . ولا عجب اذا خضعت كلها للخيال ، واعتصمت بالمحال . فمن يستمتعون بطيبات الحياة لا يضيعون الوقت في احاديثها . ومن يحرمونها يسترسلون في الاحلام التي تزينها المخيلة وتذهّبها الاهواء . فتتمثل امامهم ، اذ يسمعون القصاص او يجلسون اليوم امام الشاشة البيضاء ، صوراً مستغربة ، وصوراً خلاّبة .

ومن هـذه الصور صورة بغداد في عهد العباسيين الاول . وحسب اللبيب الاشارة الى ما يولده الشغف بالخيال ، والتلذذ بالمحال ، من حب

المبالغة والغلو ، حتى في النظر الى حقائق التاريخ ، وحقائق الحياة اليومية . فالمؤرخ من هذا القبيل شاعر ، والشاعر مؤرخ ، والقصاص مؤرخ وشاعر معاً . بل هم ثلاثة اقانيم لشخص واحد عجيب .

وكلهم مجمعون على ما كان من عظمة بغداد ومدنيتها . فقد كان فيها ، كما يقول المؤرخون ، عشرة الاف حمام ، وثلاثون الف مسجد ! فاذا كان عدد سكان المدينة مليوني نفس ، كما جاء في التواريخ ، يكون لكل مائتي شخص حمام ، ولكل ستة وستين من السكان مسجدٌ واحد . والمائتان يقيمون في ثلاثين بيت ، والستة والستون في عشرة بيوت . فهل يُعقل ان يكون لكل ثلاثين بيت حمام عمومي ، ولكل عشرة بيوت مسجد ؟ [1]

* * *

العربي يرى ولا يعد . وهو في التقدير ، اذا كان ما يراه كثير العدد ، يعوّل على الخيال دون العقل . وهاك المثل . اذا دخل اعرابي الى بغداد اليوم من الجهة الغربية يرى في ناحية الكرخ ، عند الجسر ، الى الجانبين ، عدداً من القهاوي . ثم يرى صفين آخرين في ناحية الرصافة كذلك عند الجسر ، بينه وبين شارع الرشيد . واذا ما مشى في شارع الرشيد الى جامع مرجان يرى بين كل مائة متر واخرى جماعات من الناس يدخنون الاراكيل ويلعبون

(١) عدد الجوامع التاريخية في القاهرة نحو خمسين . اضف اليها ضعف او ضعفي هذا العدد من الجوامع الجديدة والمساجد . وفي مدينة نيويورك من الكنائس والمعابد الكبيرة ، المسيحية والاسرائيلية ، مائة وخمسون عداً . و كلها الكبيرة والصغيرة لا تتجاوز الثلاثمائة

الطاولة والدومينو . فاذا سُئلَ بعد ذلك ماذا رأى في بغداد يقول : القهاوي القهاوي في كل مكان . فيحدث عنه من يسمعه ويقول : ليس في بغداد غير القهاوي . فيحدث الثالث ويصفها بالمئات . فاذا سمعه المؤرخ يحدد المئات ، وقد يتجاوزها الى الالف او الالفين . ولكن الشاعر يفضل عليها لفظة الالوف لانها في الشعر اعذب من مائة ، وابلغ من الف . وعندما يسمع القصاصُ الشاعر ، ويطفق يلفق الحكايات ، فحدث عن قهاوي بغداد ولا حرج .

كذلك تجيئنا الاحصاءات وقد بلغت عشرة الاف من الحمامات ، وثلاثين الف من المساجد ، وعشرات الالوف من القهاوي . وليس في بغداد اليوم ما يتجاوز الاربعمائة قهوة ، اكثرها في الشارع الجديد ، شارع الرشيد . وليس فيها من الجوامع اكثر من خمسين ، اضف اليها ضعف هذا العدد او ضعفيه من المساجد .

ويلي من الارقام . فسينبري لي غداً احد ارباب التاريخ الحديث المحققين المدققين ويوبخني قائلاً : ان في بغداد خمسة وخمسين جامعًا واربعمائة وعشر قهوات . فينبري له محقق مدقق آخر ويقول : القهاوي هي ثلاثمائة وتسعون عداً ، والجوامع تسعة واربعون . وتحتدم بعد ذلك المناقشة ، فيخرج من احد القهاوي جاحظها ليعدها ، ويتبرع احد الائمة او المؤذنين باحصاء الجوامع والمساجد .

وعندئذ يتبين اننا كنا في خطأ معيب ، وان كان الفرق ، صاعداً او نازلاً ، لا يتجاوز العشرة او العشرين . بيد ان ذلك في علم التاريخ ارتقاء يذكر . والفضل فيه لمن وجه السؤال ذات يوم الى احد الصيادين الذي كان يطبخ السمك المسقوف على شاطىء النهر ، تحت القهوة ، بالقرب من جسر مود ،

الى جانب الكرخ . سألته : وهل تعرف كم ببغداد من القهاوي ? فاجاب : بقدر ما في دجلة من السمك . فقلت : وكم تظن عددها في طرف هذا الشارع ? فقال : كله قهاوي ، ولا يحصيها الا الله .

فرحت اعدها — احصيها — فاذا هي ، من تمثال الملك فيصل الى الجسر ، تسع قهوات لا غير .

ويلي من الارقام . فقد يتعطل الفونوغراف في احدى هذه القهاوي ، فيولي « ابناء الدومينو والشيشة » وجوههم شطر قهوة اخرى ، فونوغرافها عامر ، والحانه صياحة — كردية تركية مصرية — فيضطر صاحب القهوة المعطل فونوغرافها ان يقفل بابه ، ويودع اصحابه . او قد يجيء كردي بفونوغراف جديد ، وينصبه تحت النخيل ، ويضع حوله طاولتين وديوانين من الخشب العادي المسوّس ، فيزداد عدد هذه القهاوي او ينقص ، قبل ان يصدر هذا الكتاب ، قهوة واحدة او قهوتين .

* * *

اعوذ بالخيال من الارقام . واعيذك ، ايها القارىء العزيز منها . تعال اذن نعتصم بالخيال الشعري . وعندي منه الان ما لا ينكره العقل ، ولا ينفر منه التاريخ .

هاك دجلة ، وهاك القُفّة فيه . تلك القفة التي ُصنعت بعد الطوفان في مرفأ أور الكلدانيين . وهي اليوم ، كما كانت في زمن العباسيين على الاقل ، ُتصنع من الخوص ، وتطلى بالقار داخلاً وخارجاً . فلو عاد الى هذا الوجود احد نوتيي بغداد القديمة لكان يهلل للقفة ، ويحمد الله انها لا تزال

على شكلها الاول ، وان الف سنة لم تغير شيئاً فيها . وقد يكون النوتي البغدادي الذي يحرك مجذافها اليوم من سلالة صياد الرشيد ، وقد يكون الجد كذلك لسلالةٍ مقبلةٍ من الصيادين تستمر الف سنة اخرى . فيجيء رحالة القرن الواحد والثلاثين ، ويقف فوق دجلة على جسرٍ معلقٍ من حديد ، فيرى القفة ، ويعثر بعد ذلك على نسخةٍ من هذا الكتاب ، فيستشهد مؤلفه على الف سنة في الاقل من عمرها .

وما هذا كل ما في القفه . فبين صاحبها يجذف من حين الى حين ، ليحفظ خط سيرها في مجرى النهر ، يبدو لك كنز آخر من الكنوز التي لا تمسها يد الفناء ، ولا تعبث بها يد التغيير . هناك ، على وجه دجلة ، في صباح يوم شمسه كريمة ، ترى اللؤلؤ في نقط الماء التي تتساقط من المجذاف ، وهو يرتفع فوق الموجة ، وترى حول الموجة ، وهو يغطس فيها ، ذوب اللجين وقد تخلله الذهب الوهاج .

فلو عاد الى هذا الوجود شاعر من شعراء نينوه ، او بنت من بنات بابل ، او كاهن من كهان أور لهلل — لهللوا كلهم — لهذه الشمس الشارقة ، المقيمة على عهدها ، الثابتة في خيرها ، الناثرة على دجلة ، حتى حول مجذاف « القفاف » لؤلؤ الذكريات ، وذهب الآمال — الذكريات والامال التي تنعشنا اليوم وتحيينا ، كما انعشت واحيت اهل أور ، وابناء بابل وآشور .

وفي هذه الارض المنبسطة ارض العراق تجيء الشمس في الشروق والغروب لطيفة النور ، ناعمة الوهج ، لا تحمل الكنانة ، كما يصورها الشعراء ، لتطارد النجوم ، وترمي بسهامها القباب والابراج .

هي شمس الأُم تحضن الارض في الصباح ، وتتغلغل حباً وحنيناً في قلب

العراق وابنائه ·

هي شمس الفنان ، تلس اللازورد في قباب الجوامع ، فيستحيل ياقوتاً اصفر ، وتكسو المآذن البيضاء بحلل من الدمقس المعصفر ·

هي شمس المحسن الاعظم ، تسير فوق السطوح المسوّرة ، ولا تكشف سرها ، وتقف فوق الجفون النائمة ، فتبشرها بعودة الحياة ·

ساعة في الصباح من السحر المبرور ،

ساعة من نعيم الحرارة والنور ·

الفصل الثاني

الزيارة الاولى

أصل بغداد واسمها — ابن الاندلس وابن لبنان ببغداد — المرئيات والتأثيرات في القرن العاشر والقرن العشرين — نكبة بغداد الاولى— الدولة التترية—النكبة الثانية—دولتا الخروفين الابيض والاسود — اسماعيل الصفوي— الاتراك — النكبة الاخيرة — اشتات الشعوب — العقلية البدوية — كيف بنيت بغداد بعد نكبتها الاخيرة— الجادات و «والدربونات»— الشارع الجديد — «بين الرصافة والجسر» — ابن جهم والشاعر الانكليزي طوماس هود — الجسور واهل الغرام — اهل بغداد اليوم — البياعات السافرات — الشحاذون — صوت من الماضي ينشد الاشعار — سوق النحاسين — سوق الصاغة — خان تلكيف — جامع الحيدرخانة — مصنع الأجر الملون — الجمال في القباب وتحتها — مثال من صناعة اخرى قديمة — الدار «الالفليلية» — شوارد الهندسة — نحن في بغداد الرشيد — في مثل هذه الدار . . . ويحك يا حمّال !

في الربع الاخير من القرن السادس للهجرة رحل الاديب الاندلسي ابن جبير رحلته في البلاد العربية ، فوصل بغداد سنة تسع وسبعين وخمسمائة (١١٨٤ م) وكان لما شاهد من المدينة المشهورة من المحزونين . فُجع في ما حمله اليها من الشوق والحب والامل . ولا عجب . فكان قد ولى مجد العباسيين ، وذهبت صولة آل بويه ، واشرف عهد السلاجقة في فساده على

الزوال ، وامست دار السلام[١] مهداً للفتن ، ونهباً للتتر الفاتحين ٠

بغداد دار الانس والسرور — « قد ذهب اكثر رسمها » كما جاء في كتاب ابن جبير ، « ولم يبق منها غير شهير اسمها ٠ وهي بالاضافة لما كانت عليه كالطلل الدارس ، والاثر الطامس ٠ » وما رأى ذلك الرحالة الاندلسي من حسن فيها يستوقف البصر غير « دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة الصقيلة ٠ »

تالله ، كيف تتشابه المرئيات في القرنين الثاني عشر والعشرين ، وكيف تتماثل التأثيرات ، تأثيرات السائح العربي الاندلسي ، والسائح العربي اللبناني ٠ أفما تغير شيء ببغداد منذ ايام ابن جبير ؟

---

١) يقول المؤرخون الثقات ان بغداد بابلية الاصل ٠ فقد اسسها نبوخذ نصر في المكان الذي دارت فيه رحى الحرب بينه وبين اعدائه ، تذكاراً لانتصاره عليهم ، واسماها بعل داد اي مدينة البعل ٠ ومما يثبت ذلك ما اكتشفه العالم الانكليزي السر هنري رولنسون سنة ١٨٤٨ في الجانب الغربي ، الذي يدعى اليوم كما كان يدعى في زمن العباسيين ٠ فقد اكتشف في الكرخ بقية حصن مبني بالآجر المحفور عليه اسم نبوخذ نصر وفتوحاته ٠ وكانت بعل داد لا تزال قائمة ، الا انها مشرفة على الخراب يوم فتح العرب العراق وجعلوا الكوفة عاصمة البلاد ٠ وظلت الكوفة العاصمة الى بداية العهد العباسي ، فعقد النية الخليفة المنصور ، الذي كان يكره تلك المدينة واهلها ، على بناء عاصمة جديدة ، فساح في وادي دجلة شمالاً يبحث عن مكان يسره ، فآثر السهل المجاور لبعل داد ، المقابل لما هو اليوم البلاط الملكي في الجانب الشرقي ، فبنيت فيه المدينة المدورة ٠ وقد دُعيت بالزوراء « لان ابوابها الداخلة جعلت مزوَّرة (مائلة) عن الخارجة » ولكن لمادة زور من المعاني غير المأنوسة ما تلاعب به اعداء المنصور غمزاً ولمزاً عليه ، فحمله ذلك على إسمائها باسم آخر ٠ ولكي يبرهن لهم على مروءته وحلمه ، وانه مسالم على الدوام ، اطلق على العاصمة الجديدة الاسم الذي كان يعرف به وادي دجلة وهو دار السلام

بلى، قد تغير اشياء، بل تغيرت المدينة باجمعها . وذلك في سنة ١٢٥٨م، اي بعد اربع وسبعين سنة من رحلة ابن جبير، يوم جاء هولاغو حفيد جنكيزخان يغزو بغداد، فاكتسحها وبعد ذلك دمَّرها .

وعند ما أُعيد بناؤها كان الناس لا يزالون في ظل النكبة، فما همهم في البناء الاصولُ الهندسية او المحاسن المدنية، ولا كانوا يحفلون بغير اللازم للمأوى والسلامة . بُعثتْ بغداد وما حسنتْ حالها، الا بعد ثمانين سنة اخرى، اي في اول عهد الدولة التترية الثانية، التي اسسها (١٣٣٩ م) حسن الجلائري .

ثم نُكبت بغداد نكبةً اخرى في اواخر القرن الرابع عشر، لما زحف تيمورلنك بجيشة عليها، ففتحها واعمل فيها بعد اكتساحها السيف والنار . فأعيد بعد ذلك للمرة الثالثة بناءُ ما هُدم وتهدم منها .

ومنذ ذاك الحين الى يوم احتل العثمانيون العراق (١٥٣٥ م) دالت في هذه البلاد دولتان من التركمان، دولة الخروف الاسود، ودولة الخروف الابيض[1] . وللاثنتين في التاريخ آثار بربرية دموية . ثم جاء من بلاد فارس (١٥٠٩ م) الصفوي الكبير اسماعيل، فقضى على «الخروف الابيض» الذي كان قد ابتلع «الخروف الاسود»، وجدد لفارس عهداً في العراق قصيرا، استمر سبع وعشرين سنة لا غير، فجاء الترك العثمانيون (١٥٣٥ م) يخرجون الصفويين من العراق وكان لهم ذلك . فما استطاع اولئك الفرس

---

(١) سميت بذلك لانه كان ينقش على علم الاولى خروف اسود وعلى علم الثانية خروف ابيض . وما كان من وداعة الخروف وسكينته في ذلك الملك التركماني غير الاسم والرسم .

المتحضرون المثقفون ان يعيدوا الى بغداد خلال عشرين سنة شيئاً من ذلك العمران وذلك الرونق الذي كان لها في الزمن العباسي الاول · فغدت ، وقد توالت عليها الفتوحات ، وتعددت النكبات ، كما كانت يوم رآها ابن جبير «كالطلل الدارس والاثر الطامس · »

وهل دامت كذلك في عهد العثمانيين ؟ ألم تُهدم مرةً اخرى في خلال الاربعمائة سنة وتشيَّدْ في فترةٍ من الخير والهناء تشيداً حسناً شائقاً كما لو كان سيدها المنصور او الرشيد ؟ يقول العارفون من العراقيين اليوم ان بغداد كانت عَلَى جانب عظيم من العمران ، لِما حسَّن الترك في حالها الهندسي والمدني الخارجي والداخلي · ولكن الوباء — الطاعون — فتك باهلها منذ مائة ونيف من السنين ، لخالفه دجلة في طغيانه ، وكان الاثنان اشد عليها ، وافعل بها ، من غزوات هولاغو وتيمورلنك · فقد كان الوباء يذهب بخمسة عشر الف نفس كل اسبوع ، والذين نجوا منه ذهبوا ضحية دجلة ، الذي طغى على المدينة فغدا القسم الاكبر منها تحت المياه الجارفة ·

* * *

بعد النكبة الرابعة — وهي الاخيرة ان شاء الله — تهافتت الشعوب على الارض التي امست يباباً ، وكادت تكون مشاعاً ، فملكوا ما ملكوه منها ، وشرعوا يبنون كما بنى سكان المدينة الغابرون بعد النكبة الاولى · جاء المهاجرون جماعات من كل حدب وصوب — من بلاد الاكراد ، ومن بلاد الاناضول ، ومن ايران ، ومن البوادي العربية · وما كان بين هذه الشعوب معرفةً ما ، ولا كان بينهم صلة وطنية ، او حسٌّ قومي او مدني · بل كانوا

قبة الحضرة القادرية

صورة تذكارية

هي صورة كلية آل البيت عندما
شرع ببنائها في سنة ١٩٢٢
وقد اصبحت بناية البرلمان العراقي

قبة جامع الحيدرخانة

كلهم غرباء ، بعيدين بعضهم عن بعض ، ومعادين غالباً بعضهم لبعض · الرائد يصدق اهله كما يقال · وقد كان لكل جماعة رواد يصدقونها ، ولا يصدقون غيرها · فتعيش لنفسها متحفظة متحفزه ·

ومع انهم كلهم كانوا مسلمين ، فما جمعت رابطة الدين شملهم ، ولا لطفت شعورهم ، ومـا ازالت غير القليل من التنافر والتنابذ فيما بينهم · هوءلاء المهاجرون المتوطنون بغداد ، بعد كارثتها الاخيرة ، هم اجداد سكانها اليوم · وما كان فيهم من العريقين في النسب العربي غير القليل ، منهم آل سويدي وآل سعدون وآل شاوي وآل جميل وبيت الالوسي ·

اما السواد من الناس ، وقل الاخلاط ، فلا يزالون اليوم ، على الاجمال ، كما كانوا في الماضي بعيدين من بوتقة الادغام والامتزاج · ومـا غيّر التزاوج المختلط بينهم ، وان قَل ، شيئاً جوهرياً في احوالهم القومية ، ونزعاتهم الجنسية · فالايرانيون والاتراك والاكراد ، وان تزاوجوا بعضهم ببعض ، لا يزالون كما كان اجدادهم منذ مائة سنة اكراداً واتراكاً وايرانيين · او انهم علَى الاجمال مثل اليزيديين والاشوريين والصابئين ، يعيشون عقلياً في الاقل بعيدين بعضهم عن بعض ، كل جماعة منفردة في شوءونها · وما هم بسكان بغداد ، بل هم سكان الاحياء التي يقيمون فيها ، كل جماعة وكل طائفة في حيها ·

وقد تتجاور الاحياء وتتلاصق بعضها ببعض ، ولا تتجاور القلوب ، ولا تتلاصق الاحساسات القومية · فالعقلية في كل جماعة لا تزال في الغـالب عقلية بدوية ، مفتوحة لاخوانهم ، ومقفلة دون الاخرين · والعرب في هذا مثل سائر الجماعات ، خصوصاً العشائر التي لا تزال في ما كانت عليه · فهي

تحافظ على عاداتها ، وتقاليدها ، واحكامها الخاصة ، ولا تنسى ، وشرف العرب ، مـا بينها من دم ، ومن عداء قديم . هي ذي المعضلة الكبرى الاجتماعية والوطنية في العراق .

اما بغداد فقد بناها اجداد هذا المزيج من الشعوب، بعد نكبة سنة ١٨٣١، كما بنى من تقدمهم بعد كل نكبة من نكباتها . بنوها كما يبني من لا يأمن حق يومه ، ولا يأمل بطول الاقامة . بنوها كلٌ على ذوقـه ، وحسب اقتداره ، وعملاً بالاحوال القاهرة ، بدون تصميم ، وبدون اتساق ، وبدون نظام مدني يرعونه ، او اوامر مجلسٍ بلدي تطاع . بنوها على عجل كانهم كلهم مسيرون بحاجة يومهم ، او مهددون بكارثة اخرى . ووكلوا امرهم الى رب الصدف والتقادير . فنشأت من الجدران المستقيمة جدران معوجة ، وعلتِ السطوح سطوح ، ودرجت الادراج من النوافذ ، ولاذت الأواوين بغرف النوم ، واشرأبت الشرفات الى الشرفات ، بل امتدت بعضها الى بعض ، فتوسعت البيوت، وتضيقت الجادات، فصارت تدعى بلغة البغداديين « دربونات » . ولهذه الدربونات ، من الشرفات المتعانقة فوقها ، سقوف ظليلة ! انها لهندسة عجيبة اوحت بها الفوضى ، وأيدتها التقادير . وما كان الاتراك ليكترثون بهذه او تلك ، مـا دام ابناء التقادير والفوصى يدفعون الضرائب .

ان في بغداد سوقًا واحداً طويلاً عامراً يمتد من الجنوب الى الشمال ، من باب شرقي الى بوابة الاعظمية ، في خط مستقيم ، انما لا كالرمح ، فيقسم الجانب الشرقي قسمين ، يصح ان ندعوهما لشكلها بالكتلة والسفين . فينبسط القسم الاول شرقًا في سهل رحب ، ويتكون القسم الثاني الى جانب دجلة

في شكل « هرمي » قاعدته العلوازية ، ورأسه دار شركات النفط بباب شرقي . وفي هذه المظاهر الثلاثة من نشوء بغداد تبدو بوضوحٍ قبيحٍ تلك الآفات التي ذكرت : الفوضى في البناء ، والصدف في التخطيط ، والقدر في اهواء السكان .

وفيها كذلك المتناقضات المدهشات المكربات . فهي قديمة وهي جديدة ، وهي متراصة وهي متبعثرة . وهي مدنية وهي بدوية . فالشارع الطويل الذي دعاه الانكليز بالجديد ، ثم غيرت امانة العاصمة اسمه فدعته شارع الرشيد ، هذا الشارع بما فيه من مخازن حديثة ، ودكاكين قديمة ، وقهاوي ودور سينما ، وانوار كهربائية واسلاك برقية ، وعربات وسيارات و « بصات » ومنافذ في جانبيه الى « الدربونات » انه لشبيه بشارع من شوارع احدى القرى الاوروبية . والبلدة او المحلات شرقاً منه ، وان كانت بمجملها لا تتجاوز المائة سنة ، هي جد قديمة بما في ظاهرها — ولا يخلو بعض داخلها — من السيئات المدنية الشرقية ، واهمها ضيق الجادات واعوجاجها ، والتهدم فيها ، والقتام ، والروائح العجيبة ! اما القسم المحاذي للشط ، وفيه الاندية والقهاوي والسراي ، وبعض بيوتٍ للسكن جميلة ، وبعض البساتين التي تزينها اشجار النبك والنخيل ، فما هو بشرقي ولا بغربي . انما هو جدير بحسن الذكر والتقدير . ولكن في الجهة اليمنى من دجلة ، اي الجانب الغربي الذي لا يزال يدعى الكرخ ، وخصوصاً في الناحية التي تمتد من جسر مود الى كرادة مريم ، دوراً على شاطيء النهر جميلةً بوداعتها ، وفسحاتها ، ونخيلها ، وبشرفاتها التي تجري من تحتها المياه .

* * *

ان بين شعراء العرب شاعراً من الطبقة الوسطى ظفر بالشهرة في قصيدة واحدة نظمها ، بل في بيت واحد من تلك القصيدة · وقد تكون الشهرة للبيت لا للشاعر · فقد تغنى ابن جهم بمجازفةٍ له غراميةٍ في الجهة اليسرى من الشط قرب الجسر · ومن لا يذكر مطلع تلك القصيدة التي خلد فيها اسم الجانب الشرقي من بغداد :

« عيون المهى بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري · »

يذكرني ابن جهم بالشاعر الانكليزي طوماس هود الذي وثب الى قلب الشهرة وثبةً عجيبة في قصيدة واحدة او قصيدتين · ويندر بين الانكليز من لا يعرف المقطع الاول في الاقل من قصيدته «جسر الزفرات»[1] الذي كان مجلبة للعيون ، التي هي مجلبة للهوى · وموضوع القصيدة حسناء قضت نحبها هناك عند الجسر ·

كأن الجسور في كل المدن مغناطيس القلوب ، او كأنها شباك للغرام · وقد يكون فضلها او اثمها في المياه الجارية تحتها — في رائحة الانهار القَرقفية او رائحة البحار الزنجبيلية ، فتبعث في النفس نشوة يعقبها سكرة — سكرات ! وقد يكون فضلها او اثمها في دنوها من الاجل المحتوم المقدر ، اي من المكان الذي يصلح للانتحار ··· « وأوله سقمٌ وآخره قتلُ »

ان كثيراً من الانهر عند الجسور باوروبه تشهد بصحة قول الفارض ·

---

(1) « Take her up tenderly,
Lift her with care:
Fashioned so slenderly,
Young, and so fair. »
Bridge of Sighs, —
Thomas Hood

اما دجلة فلست ادري اذا كان قد شهد مرةً هذا النوع من آخرة الحب . ولست ادري اذا كان اهل الغرام في ايام ابن جهم كانوا يأثرون الجسور للمواعد على العرصات والبساتين . انما كانت هناك مواعد ، ولا ريب ، واجتماعات . وما فقدت بغداد هذه المزية الاجتماعية ، الغزلية في الاقل ، حتى في عهدها الاخير يوم أمها ابن جبير . ولا عجب ، وهو الاديب الاندلسي ، اذا اشار الى ما للماء من الفعل بالقلوب في قوله : « والحسن الحريمي بين هوائها (هواء بغداد) ومائها ينشأ . هي من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة . » ولكنه ، على غير عادة الاندلسي ، يتخوف من فتنة الهوى « الا ان يعصم الله منها . »

وفي بيت ابن جهم اذ يقول : « من حيث ادري ولا ادري » شيء من هذا التخوف . بيد ان امره الان لا يجلب همّاً ، او يستوجب اهتماماً . انما هناك سؤال لا بد في هذا الموقف منه . ما الذي اكسب بيت ابن جهم الشهرة وضمن له الخلود ؟ المكان بين الرصافة والجسر ام عيون المهى ؟ وهل كانت حسان بغداد تسفر عند الجسر يا ترى ؟ وهل كانت مجازفة ابن جهم شعرية خيالية ، ام واقعية ؟ هذه المسائل جديرة بالنظر ، وقد تدعو للمستحب من البحث . وقد تثير الجدل .

ولكن هناك حقيقة لا تقبل الجدل والبحث . وهي ان الجهة الشرقية من بغداد لا تزال تدعى باسمها القديم — الرصافة — المخلد في بيت ابن جهم ، كما تدعى الجهة الغربية بالكرخ . ان هاتين الناحيتين قديمتان اسماً ورسماً . اما النواحي الاخرى فهي حديثة في هندستها وفي اسمائها . وسيجيء ذكرها .

* * *

كان سكان بغداد في زمن العباسيين يبلغ الفي الف نفس ، على عدهم ، اي مليونين . وكانت المدينة مقسمة الى سبع عشرة ناحية . انما بغداد اليوم تختلف في تقسيمها ، كما تختلف في ادارتها ، وعدد سكانها لا يتجاوز الثلاثمائة الف نفس .

اما المحلات التي اشار اليها ابن جبير وذكر اسماء بعضها ، فقد كانت كلها في الجانب الشرقي « مع ان الخراب كان مستولياً عليه . » وكان الجانب الغربي اي الكرخ قد تقدمه في الخراب ، فما شاهد ابن جبير فيه غير « الاثر الطامس . »

وقد ذكر شكل المحلات في الرصافة فقال ان كل محلة منها مدينة مستقلة . يُفهم من ذلك انه كان بين المحلة والمحلة ارض خالية من السكان ، او ان بعض المحلات كانت مسوَّرة . وقد امتدت الرصافة يومذاك الى مكان الاعظمية اليوم . وكانت بوابة البصرة مكان باب شرقي او دونه جنوباً . ومع ان هذه المساحة هي نحو سبعة كيلومترات طولاً ، ولا اظن ان الرصافة تجاوزت الكيلومترين عرضاً ، فقد كانت ولا شك مزدحمة بالسكان اذانه كانعددهم ينيف على المليونين .

ان المدينتين ، مدينة اليوم ومدينة امس ، لتتشابهان من هذا القبيل . فاذا استثنينا الشارع الجديد ، شارع الرشيد ، وبعض الاحياء الجديدة التي سيجيء ذكرها ، يجوز ان نقول ان كل الجادات « والدربونات » في الرصافة وفي الكرخ تفتقر الى النور ، والهواء النقي ، والنظافة ، والتفريج . بيوت متراصةٌ متعرّجة ، في جادات ضيقة متعوجة ، ما رأيت مثلها في المدن العربية الاخرى التي زرتها . وهي تتجج من القتام والأنام .

انما اهل بغداد يختلفون في طبائعهم عن اهل الكويت مثلاً او اهل البحرين . والظاهر انهم لم يتغيروا كثيراً منذ ايام ابن جبير ، الذي أخصهم بصفحة من كتابه تسوَدّ منها وجوه ، ولا تضمن للاندلسي الاديب ، لو عاد اليوم حياً الى بغداد ، السلامة والامان . واقل ما يقال في البغدادي العريق ببغداديته ان صوته يهز الارض ، ويلقي الرعب في القلوب — انا بغدادي مو (ما) عجمي . فك عينك زين ! !

والبغدادية العاملة السافرة هي في عنجَرتها مثل البغدادي . رأيتها في « دربَونة » جالسة على الارض ، وامامها بعض الخضر تبيعها . ورأيت احد المارين يتعثر في طرف المنديل المفروش منديلها . وسمعتها تصيح به ، وتصب عليه جام غضبها ، بلغــة ممتازة في علم المسبات . كانها أُخذت من احدى رسائل الخوارزمي الى بديع الزمان الهمذاني . — اين عينك ، يا ملعون الوالدين ؟ حرمك الله الرجلين ! يا ابن الطريق ، يا ابن البطريق ، الله يضيق طريقك ! لا اظن ان بين نساء العرب من هن اذرب لساناً ، وامضى بياناً من البغدادية . ولا اظن ان ببغداد من يفوقها في بلاغتها الذابحة ، الا ان يكون الشحاذ البغدادي .

سمعت احد اولئك الشحاذين يردد آيات من الكتاب ، وهو جالس علَى مزبلة في الجادة ، ثم يسأل قائلاً : اين اهل الصلاح ؟ اين الكرام وُلد الصباح ؟ اين بحر الجود ؟ نقطة منه يا معوّد[1] ، نقطة ولا تزوّد .

وما كان هناك ولا هنالك ، في ذاك الصباح ، احد من المعوّدين ، فقد رأيت شحاذاً آخر ، في جادة اخرى ، جالساً عند الحائط ، وسمعته ، وقد

(١) اي يا من عودت الناس علَى فضلك . واللفظة من اصطلاحات البغداديين

رفع يديه ، و « فكّ » عينيه ، بصيح : اللعنة عليك ، يا بغداد ، وعلى ذكرك ، وعلى اهلك ! الدود يأكل عظامك ، يا بغداد ، وعظام ابنائك ! النار والشط والوبا عليك وعلى بنيكِ ، فلا يبقى منك ومنهم غير الرماد والتراب !

وما استوقف مع ذلك احد المارّين ، ولا استرعى نظر احد السامعين.

انما هناك صنف آخر من المستجدبين ، ولهم في المهنة لغـة غير اللغة التي اسمعتك امثلة منهـا. ومع ان التقوى تتمشى بين اضلعهم ، والورع يتساقط شعراً من افواههم ، فالناس قلما يقفون ، وقلما يسمعون .

ها كم درويشاً من الدراويش يرفع صوتاً هو كصوت ربابةٍ في خابية ، ويشدو الشعر شدواً محزناً ، وفيه التغزل ، وفيه الزهد ، وفيه الحنين . وفيه ان كل شيء يزول ، ولا يبقى غير وجه ربك القيوم .

«خيالك في قلبي ، وذكرك في فمي ، وصوتك في اذني ، وحبك في دمي .»

هو صوت سمعته ذات يوم في محلة الشيخ ، فاستوقفني وانا اكتب في غرفتي ، فوقفت في الشرفة . فاذا بدرويش في قارعة الطريق يحمل عصاً طويلة ، وصحناً من التنك . ورأيت العربات تسـير الى يمينة والى يساره ، دون ان تدنو منه ، كانه شرطي . وكان اذا سمع صوت بوق السيارة يرفع عصاه — هو درويش ضرير — فتميل السيارة عنه ، ويستمر هو في طريقة وشدوه .

« اين فؤادي ? اذابه الوجدُ وابن قلبي ? فما صحا بعـدُ
يا سعد زدني جوىً بذكرهم بالله قل لي — فُديت يا سعدُ .»[1]

وفي قصيدة ليزيد بن معاوية :

« وحدثتني يا سعد عنهم فزدتني شجوناً فزدني من حديثك يا سعدُ »

وها قطعة من النقود ترن في الصحن بيده ، فيقف عند القرار شاكراً ، ثم يرفع صوتة فوق ما كان منه ·

« يا اهل ودي انتم أملي ومن ناداكم يا اهل وِدّي قد كفي
عودوا لما كنتم عليه من الوفا كرماً فاني ذلك الخل الوفي · »

انه ليشجي هذا الصوت ، وانه ليبهج · هو يبهج اهل الحب لانه يردد من اصوات الماضي ذلك الصدى الخالد ، صدى ما صفا من الروحيات والذكريات · وهو يشجي لانه يمثل طيفاً من الاطياف التي يرسلها الماضي شادية في شوارع بغداد المسيرة اليوم باصوات — وقل بسياط — العمل المرهقة ، بتكاليف الحياة المدنية المادية ·

انما هناك ، في قلب المدينة ، الذي لا يمسسه الشارع الجديد بعامل من عوامل المدنية الغربية ، هناك كذلك اصوات من الماضي يظهر انها ابدية · هي الاصوات التي تسمعكها المطارق تطرّق النحاس ، والمنافخ تنفخ في نار الصاغة والحدادين · وهناك في قلب بغداد ، يمشي العمل الهوينا مشية الورع القَنوع ، ولا يماشيه الهم ، ولا يزاحمه التكالب · هناك يجري في عروق العامل والتاجر والصائغ والصانع ذلك الدم الذي يجري في عروق الدرويش · وان كان الشعر لا يجري على السنتهم كما يجري على لسانه ، فان لغة قلوبهم هي كلغة قلبه من قاموس واحد ، هو قاموس القناعة والوداعة ·

وهناك ايضاً تتجسم تلك الظاهرة العربية — الشرقية — التي تناقض كلمة من الكلمات الدينية الذهبية ، وهي ان النظافة من الايمان · ولعمري ان بين الايمان والنظافة ، ان كان في الدرويش او في احد الصاغة ، وهدة سحيقة · وها كم في السوق المثال الحي النابض لما في العامل العربي من الصبر

والمثابرة ، ومن التجويد والجمود ، ومن الذوق والاهمال ، ومن الورع والوداعة والقناعة والقذارة ·

تعال أريك اجمل الاشياء من ذهب وفضة تُصنع امام عينيك ، تصاغ وتصقل في اماكن فرشت بالغبار ، وُطليت بالدخان ، وازدانت بالعنكبوت · ليس الولد صاحب المنفخ من العبيد المناكيد · هو اسود الوجه واليدين ، ولكنه عربي من الفتيان البيض · تراه مقرفصاً امام النار ينفخ بها ، ويمسح عينيه بطرف قميصه الدكناء ، وترى سيده في ثياب الزيات يمسح العرق من جبينه بالمنديل الذي يستعمله لمسح جواهره ، وهو ينقش سواراً ، او يدق قطعة من الذهب على السندان ·

وهذه امرأة في عباءة وحجاب تجلس على حافة الدكة ، الى جانب ركمة من الفحم والرماد ، ثم ترفع طرفاً من حجابها وتلقي السلام وتلوم ، فيعتذر الصائغ اليها ، ويقسم بالله انه ما نساها · ثم يفتح خزانة صغيرة ، ويخرج منها صندوقاً جميلاً من النحاس المطعم ، ثم يخرج من الصندوق منديلاً ادكن كان في قديم الزمان ابيض او احمر ، فيفكه ويأخذ مما فيه قرطين من الذهب المنقوش مرصعين بالماس ، فيرفعها بالباهم والبنصر امام السيدة ، ثم يمسحها بطرف المنديل ويقدمها قائلاً : حلّت البركة · فتتناولها باسمة شاكرة ، وتربطها بطرف منديلها ، ثم تفك الطرف الآخر وتدفع ثمنهما ذهباً وفضة · ثم تنهض وتمشي ، ولا تبالي بما قد يكون لصق بثوبها من وسخ المكان ·

قال رفيقي الاديب البغدادي ، ونحن نمشي في ذلك السوق المسقوف ذي الدكاكين الدكن والجواهر الثمينة ، ان المياه في الشتاء تجري فيه

كالساقية ، فتستمر الاشغال مع ذلك ولا احد يبالي · وقد يكون هناك يومئذ الرجل الذي يحمل دكانه في عبه ، وهو جالس كما رأيته على الارض وظهره الى الحائط ، وامامه منديل مفروش وميزان صغير · قد يكون هذا التاجر بالحلى هناك في اليوم الماطر ، الى جانب الساقية ، وهو ينتظر الرزق من كرم ربه ·

* * *

أنقول ، ايها القارىء ، ان ما شاهدناه في سوق الصاغة او سوق النحاسين لا يُستغرب في مدينة شرقية قديمة كبغداد · تعال اذن · ليس في احياء الفقراء بلندن او نيويورك او بمباي ، على ازدحامها ، وقذارتها ، وظلماتها ، وفساد الهواء ، وفظاعة الحياة فيها ، ما يفوق ما ستشاهده في الخان السائرين اليه ·

هو خان تلكيف وهو من اوقاف بغداد · بناء مربع ، ذو طابقين وصحن كبير مكشوف ، حوله صفوف من الحجرات الصغيرة المظلمة ، الشبيهة بالاكواخ · وفي كل كوخ عائلة لا تقل عن الثلاثة انفس وقد تتجاوز الستة · وفي الصحن مرابط للدواب ، فيلعب الاولاد بين حوافرها وبين الحمالين والمكارين ، ويتلقنون منهم اللغة التي اسمعتك نموذجات منها ، من فم تلك البائعة وذلك الشحاذ ·

كان مستشار الاوقاف يومئذ الرفيق الدليل · فسارعتِ النساء اليه شاكيات متظلمات · وما شكون الازدحام والمقاذر ، وما شكون صياح المكارين وروائح المرابط ، ولا شكون دخان الجيران والاوساخ التي تلقى في الايوان · انما لفتن نظر المستشار الى جدار يتداعى او الى باب لاقفل

له ولا مزلاج، او الى قسطل ماء مسدود او مكسور، او الى سقف تتساقط اخشابه . وجاءت احدى النساء تحمل ثلاث أُجرّات وتقول انها سقطت على اولادها وهم نيام . ثم كشفت رأس احدهم ترينا الجرح فيه .

وكنا ونحن نمشي في الايوان نرى النساء امام اكواخهن يقمن باشغالهن البيتية: يغسلن الثياب، يشببن النار، يخبزن، يطبخن، يرضعن اطفالهن. ومنهن من كن يمشطن صغارهن فيقع القمل في احضانهن، وعلَى الارض حولهن . وهناك في وسط الصحن «مزين» يحلق رأس احد الرجال، وينثر الشعر وما فيه من «المتحركات» بين ارجل الصبيان، وهم يلعبون، ويغنون، ويصيحون، ويفحشون .

ان مدخل الخان كمدخل القلاع عميق مظلم . والى جانبيه بضعة خروق لا يتجاوز الواحد العشرة اقدام عرضاً، ومثلها طولاً، ومثلها علواً . هي كذلك للسكن . وقد استوقفتنا امرأة هناك . جاءت تحمل طفلاً على صدرها وتقول للمستشار، وهي تومىء الى احد تلك المآوي، ان اجرته ثماني روبيات كل شهر، وهي لا تستطيع ان تدفع اكثر من خمس، وترجوه ان يأمر بالتخفيض . فوعدها خيراً .

* * *

قلت خان تلكيف من الاوقاف . والوقف في التعريفات هو حبس العين على ملك الواقف والتصدق بمنفعته . ومن اجدر بالصدقة يا ترى من هوءلاء البوءساء . ولكن للاوقاف ادارة هي على ما يظهر مثل ادارت الشركات المالية . لا روح لها، ولا قلب، ولا عين غير تلك التي ترى الارقام، وتعد الاموال . ومن هذه الاموال ما هو مخصص بالمساجد فلا

يُصرف في غير سبيلها · وفي المساجد من فضل ربك ما لا يجده البائس الفقير في بيته ، او في حيه ، او مدينته · المساجد هي الملجأ اليقين ، والميناء الامين — ملجأ الاتقياء والاغنياء والاشقياء والمتشردين · وهي ميناء كل ذي وزر ثقيل وامل دفين · فالحمد لله ان في بغداد اوقافاً يحبس بعض ريعها ، وان كان من دم الفقراء على هذه الاماكن المقدسة التي هي لجميع المؤمنين·

وكان المؤذن في مأذنة جامع الحيدر خانة يؤذن الظهر · وكانت قباب الجامع في شمس الظهيرة تشع وتتلألأ ، فيبدو الاصفر خلال زرقتها كالذهب علَى طبق من اللازورد · وكانت مياه الشاذروان في صحن الجامع تتناثر كالفضة · وكانت الرحبات الهادئة والظلال الناعمة تبدو من الباب كانها من لدن الرحمن ، وهي تلوح للمارين ان ، ادخلوا آمنين·

دخلنا فاذا نحن في الصحن المبارك ، والهواء فيه نقي كالنور وكل ما فيه منعش كالهواء · مكان رحب نظيف شريف هو للغني والفقير على السواء · وهناك ما هو فوق ذلك في المكرمات · هناك داخل الصحن ، في الجامع تحت القبة اللازوردية ، عين السكينة وروح السلام · هناك البحر الالهي الذي تغرق فيه ، ولو الى حين ، دنيا الهموم والاحزان البشرية ·

ما رأيت في جمال بغداد ، وما اقله بعد نهر دجلة وضفتيه ، مثل ذلك الجمال الفني في قباب جوامعها ، ومثل هـذا الجمال الروحي تحت القباب · وليس الذهب في حاجة الى التذهيب · سامسك اليراع عن الافاضة اذن ، واكشف لك ناحية مجهولة من نواحي الفن في صناعةٍ تكاد تضمحل · انت تسمع ، وقد تكون عالماً ، بما يسمونه خزف الرقة · وقـد لا تحتاج الى من يزيدك علماً بما كان للعرب في الاندلس من المهارة والذوق في صناعة الأجرّ

الملون المصقول ، الذي كان يدعى الزُلاج (زلج — زلق) انما المدهش ان لا يزال في بغداد لهذه الصناعة أثر يُذكر .

تعالَ ندخل المعمل في جامع الحيدرخانه ، وذلك الجمال في القباب والمآذن انما هو منه . ها هنا المدهشات ، وخصوصاً لمن كان منذ ساعة في سوق النحاسين . واول المدهشات النظافة التي لا نتوقعها في من يلعب بالتراب والاصباغ . النظافة ثم الترتيب ثم الاتقان . ورب المكان هو رب هذه الفضائل كلها ، التي ورثها ، كما ورث الصناعة ، من ابيه ، الذي ورثها من جده . انما لا يذكر الى كم جيل من آلهِ تعود . وما يدريك . قد يكون الاستاذ من سلالة احد ارباب هذه الصناعة في الرقة او في الاندلس .

هو شيخ في العقد السادس ، ومعه ابنه يتعلم ويساعده ليحسن استخدام الارث الثمين . وانه علَى سنه يعمل مجداً فيشرف على كل فرع من فروع هذه الصناعة التي تبدأ بخلط التراب والرمل ، وتنتهي بالاشتواء . وهو نفسه يصنع الاصباغ ، وجلها من الازرق اللازوردي والاصفر العصفري ، وليس فيها شيء مجلوب . ليس فيها اصباغ كيماوية غير التي يصنعها من التنك والزجاج ، اذا صح ان يدعى هذا المزيج مزيجاً كيماوياً .

أذِنَ لنا بالدخول الى غرفة الاصباغ ، وفيها ركام من صناديق التنك ، والقناني المكسرة ، والرصاص . وفيها آلة هي كالجاروش من حجر ، واخرى من حديد . فبعد ان تُجرَش المواد وتطحَن ، تُذاب بالماء ، وتوضع في مواعين فوق النار لتغلي . ثم تنقَل الى الشمس لتجف ، فتفُتت بعد ذلك وتمزج بالزيت فتغدو صِباغاً .

ومن مدهشات هذا المصنع ان رجلاً واحداً يعمل فيه الاعمال الاساسية

كلها . فهو الطيان ، وهو الصباغ . وهو الرسام الفنان . ولا بأس برسومه التي تشتمل على اشكال هندسية ، وامثلة من الزهور والنبات . وهاك السلّم في عمله . فبعد ان تُصنع الأُجر وتشوى ، يصبغها ، ويرسم عليها الرسوم . ثم يعيدها الى النار ، فيعمل اللهب بالالوان عمل الشمس بالغيوم المذهبة والمفضضة . فيذيب اللون الواحد فتبدو في حواشيه الوان منه فرعية ناعمة ناعسة . وبكلمة اخرى تمشبح الالوان فترق ، فتظن ، وانت تعجب بها ، انها دهنت بريشة فنانٍ ماهر .

اما شكل الرسوم في بناء القباب والمآذن بهذا الأُجر فهو غالباً مركب من الاخضر او الازرق على صفحة من الاصفر الذهبي . او ان الخطوط والاهلّة من هذا الاصفر تتخلل احد اللونين الاولين .

بقي ان اقول ان هذه الآثار الفنية في قباب الجوامع ومآذنها هي ، على ما يظهر ، ثابتة طويلة الاجل . فلا الشمس ولا العوامل الطبيعية الاخرى تضر بالوانها . ولا عجب . فقد دخلت النار مرتين . واذا ما صال الزمان على تلك القباب في المستقبل فهدّمها ، فأن الاثريين ليجدون الاجرّ في الردم وتحت التراب ، كما يجدونه اليوم في حفائر سلوقية وأُور ، فيغسلونه ، فتبدو الالوان فيه وقد اكسبها الزمان مسحةً عجيبة . كذلك فعل الزمان في البلاط الذى كان يزين قصر الزهراء بقرطبه، ذلك البلاط الجميل ، الفريد بتشبح الوانه المعروضة امثلة منه في المتحف البريطاني بلندن ، وفي قصر اللوفر بباريس .

* * *

ومن الصناعات التي اشتهر بها العرب في الماضي ، ولا يزال منها امثلة في بغداد ، صناعة الحفر في الخشب ، وهي عربية بحتــة ، وصناعة الزجاج المركب في إطارات مذهبة ، وقد اخذوها عن الفرس · وان ببغداد اليوم بيتاً قديماً ، يقال انه سلم من النكبة الاخيرة ، اي انه يتجاوز المائة سنة ، فيه من الصناعتين أثر حسن سليم · وفيه ايضاً ما يعيد الى الذهن ، في هندسته كما في زينتــه ، صور وذكريات لتلك الدور التي خلّدت في كتاب الف ليلة وليلة ·

على ان مدخل البيت او صحنه الصغير يزيل مــا في النفس من بهجة الشوق والخيال · فقد صُدمنا لما دخلنا بتجارةٍ من التجارات الحديثة ، يتمثل دورٌ منهــا في حلقةٍ من النساء جالساتٍ على الارض حول ركام من جوز العفص · وهذا الجوز يجيء من الغابات في جبال الموصل ، فتنقيه النسوة العاملات ، ويهيئه للشحن الى لندن وبرلين ، لتصنع منه هناك الاصباغ · التجارة في الباب ·

ولكنا صعدنا الى الطابق الثاني مسرعين، فاذا نحن في غير بغداد اليوم · اجل قد انتقلنا انتقالاً عجيباً الى دار من دور بغداد القديمة ، التي نجت من يد النكبات كلها ·

وما هذه الردهة التي يعلو جدرانها الخشب المحفور المدهون اشكالاً نباتية وهندسية ، المزين سقفها بالاطارات الذهبية المرصعة بالمرايا ، القائم في نوافذها الزجاج الملون تقيه الشعريات الدقيقة الصنع — ما هذه بردهة تركية او سلجوقية او بويهية ·

وما هذا الايوان وقــد تكاثفت فيه ، وتداعت لقدمها ، الصناعات

كانت القوافل تجتاز هذه البادية
وهي كلها كما ترى الى اليمين بعشرين
يوماً، فصارت السيارات تجتازها بيوم
واحد والطيارات باربع ساعات.



العراق

في قفره

واعصاره

وصفاء نهره

الثلاث — صناعة الخشب ، وصناعة الزجاج ، وصناعة النقش ، الرسم والتلوين — ما هذا بايوان احد الولاة العثمانيين · ولا هو بايوان كبير من آل بو َيه ·

عفواً ايها القارئ العزيز · ما نقلني الى زمن العباسيين اثر قديم في بغداد مثل هذا الاثر الجميل البهيج · وما هو كذلك بنقشه وزخرفه فقط، بل بشوارد هندسته ، التي يظهر انها بنت الصدف والحاجات · كأن الحجرات والايوانات قد نمت في هذه الدار ، كما تنمو غصون الاشجار ، او صخرات المرجان في البحار ·

هي حقاً دار الخبايا والخفايا ، دار الاسرار والاحلام ، وعجائب الليالي والايام · كنت وانا انتقل من حجرة الى حجرة ، ومن رواق الى رواق ، ومن ممرّ مظلم يطل على فراغ اظلم ، احس اني في شبك من السحر والاستغواء ·

ها انذا في بغداد هرون الرشيد ، في بيت من تلك البيوت المسحورة ، المقيدة بمشيئة الغرام العليا ، المخلد ذكرها في ذلك الكتاب الاوحد ، كتابنا العربي الخالد ، الذي قال فيه احد المتنطعين المتحذلقين من الادباء الاقدمين انه كتاب قصص بليدة · وهو اليوم من آداب العالم الخالدة ، يقرأه الانكليزي والالماني والفرنسي والياباني كما يقرأه — او كما ينبغي ان يقرأه — العربي ، مكبراً فيه العبقرية المبتدعة الساحرة ·

ان الغريب ليضيع في تلك الدار · ولا يستطيع ، وهو يتغلغل فيها ، ان ينبذ من ذهنه ذكر الكتاب الشهير ، واما كن القصص البغدادية فيه · ولا عجب · في مثل هذه الدار جن اخو الحلاق وهو يطارد عارياً تلك الولاّعة الحسناء ، التي قادته من باب الى باب وهي تعدو امامه ، حتى امسى

وهو في تلك الحال في السوق . والى مثل هذه الدار دخل الحمال بحمله ، فاذا هو بين ثلاث حوريات ضجرات ، يشتهين من يلاعبنه ويلاعبهن . ومن الباب الخفي ، في مثل هذه الدار ، كان يجيء الجني ليحمل المبنَّج والمبنَّجة الى الظلمات الابدية ، او الى احد فراديس الشوق والهيام …

وخرجنا بعد التطواف من الايوان ، ونزلنا الدرج الى صحن الدار ، فاذا نحن في بغداد اليوم ، حيث النسوة العاملات ينقّين جوز العفص لمعامل الاصباغ بلندن وبرلين .

الفصل الثالث

الزيارة الثانية

قسطنطين بني وراسم سردست — الامر بالتوقيف — السفرة الثانية — من بيروت الى ابي الشامات — ثلاث من دوائر الحكومة في الشول — « اكل النار اهون من الاسفار » — حسنات الطريق بعد عشر سنوات — كل الاخطار تزول الاّ خطرين — الاعصار وطمع التجار — الانصاب — الرطبة اليوم وبالامس — هول الشول ومعالم المدنية — الامراء — السيد سائق السيارة — ليلة من ليالي شباط وسائق لا يسوق — قسطنطين يغضب — الليل والبيداء وريح شباط — نرعى النجوم — الفجر — السيد والاعرابي — قسطنطين والسيد — الرمادي — فلوجه — « نعيم الزفت » — العمال يكملون النعيم — يهودي في الجمرك — يهودي على الجسر — يهوديات — شارع الملك فيصل — تمثالا الملك والسعدون — الاسفاف وفي الفن — مستقبل التمثالين في دجلة — العلمان الابديان على جسر مود

نزل بغداد — قصر دجلة — النخلة والمدخنة — يوسف واعوانه التلكيفيين — ال « بار » الامريكاني — مطبخ لا بطيخ — الخدم في الثوب الرسمي — ما في الشارع الجديد من جديد — خيل العربات والمزلقات — راسم الدليل المدقق — الاحياء الجديدة — الاسماء الجديدة للاسواق — كلية آل البيت والبرلمان — الطريق الحديثة الجميلة — شرطي بغداد المحبوب — حسن الادارة والتنظيم — سجن بغداد المدهش — الصنائع فيه والصناعات .

قلما يرحب الكاتب بالنعمة التي تجيئه في ما يقطع عليه عمله، وقلما يدرك قيمتها . وان ادركها ، فهو لا يتوقف عن التأليف ، اذا كان شراع الفكر

منصوباً للريح ، وكانت الريح موالية · اما الان فالامر بالتوقيف هو شبه عسكري ، فلا تحول دونه ريح او شراع ·

من ظالع كتابي «ملوك العرب» يذكر ولا شك الشيخ قسطنطين يني ، رفيقي العزيز الكريم في رحلتي اليمانية · فقد كان يومئذ الملازم يني ، وكانت له في الحجاز مساع وآمال عربية ، ما ادرك قدرها الملك حسين ، رحمه الله ، لينتفع وينفع العرب بها · فأقلع الرفيق من الحجاز محوقلاً ، وبعد الاسفار ، في الهادئ والمضطرب من البحار ، رسى في بيروت ، واعتنق مذهباً من المذاهب الاجتماعية القديمة ، التي لا تزال محترمة ، فأضحى زوجاً ، واضحى أباً لابنتين يحمل صورتهما وصورة امهما في جيبه على الدوام · وهو ينظر الى صديقه في الجبل ، الى اخيه الامين ، نظرة الحزين ، لانه لا يزال من المحرومين ، الزوج والبنين · ولكنه محب لابنائه الادبية ، معجب بها ، وبنشاطه في التوليد ، ويروح ناشراً ، على عادته في النشر والتبشير ، خبر المولود الجديد قبل ان يتكون في بطن الاوراق ·

وها كم الان قصة الشراع المطوي · بينما كنت اكتب الفصل السابق ، اجتمع الملازم يني بالملازم راسم بك سردست احد رفقائه في الحجاز · والملازم سردست بدأ حياته العسكرية في المدفعية التركية · وكان من المستبسلين في الثورة العربية[1] ومن اخلص المخلصين للسدة الهاشمية ، فدخل الشام مع العرب الفاتحين ، وهلل مع المهللين ، وكان من المحزونين ، وراح

---

(١) هو احد اربعة من ضباط العرب الذين منحتهم الحكومة البريطانية رتبة D. S. D. لاستبسالهم في محاربة الاتراك في الحجاز وشرق الاردن· اما الآخرون فهم نوري السعيد وجعفر العسكري ومولود مخلص

بعد ذلك يداوي جروحه في تجارة السيارات ببغداد ·

وكان الملازم سردست قادماً من العراق يوم اجتمع به الملازم يني ، فأخبره بما يشغل قلم الامين · فرفع يديه الى السماء مستعيذاً بالله ، وقال : يجب ان نزوره حالاً وننذره ·

وفي اليوم التالي شرف الفريكة الملازمان الكريمان · فرحبت ، على المفاجأة ، بهما · كنت لا ازال اذكر الملازم سردست ، وقد اجتمعت به في جده يوم كان ياوراً للامير زيد ، واذكر ما هو اهم من ذلك · كان عرش الحسين في تلك الايام قائماً على صخرٍ رملي ، في بحرةٍ من التزلف والمداجاة ، وما كان بين الاصوات التي كنت اسمعها هناك غير بضعة اصوات للصدق والحرية ، منها صوت سردست عندما كان يُستَدرج للحديث ، وصوت يني المسموع العالي عَلَى الدوام[1] · وما تغير الاثنان · لا التجارة اطلقت لسان الاول ، ولا الزواج عقل لسان الثاني · ولكن الملازم سردست ، وهو صاحب الرأي في المشروع الحاضر ، باشر الحديث فقال :

« يجب عليك ، يا استاذ ، ان تزور بغداد مرة ثانية قبل ان تكتب كتابك · فاذا عوّلت على مذكراتك ومعلوماتك منذ عشر سنين تخطأ والله ، ويجيء الكتاب ناقصاً · فقد تجددت اشياء ، وتغيرت وتطورت اشياء كثيرة ، لا يجوز ان تكون جاهلها · يجب عليك ان تقف في عملك اذن ، وتسافر غداً معي · سنعود في الطيارة — خمس ساعات في الجو ، لا غير · »

فقال الملازم يني بشيء من الحماس : « وساسافر معك ، وحياة سميرة · ماذا ؟ اتسافر وحدك · مستحيل · فمن يا ترى يساعدك في عملك ، ومن

---

(١) وصوت الامير زيد حياه الله ، وصوت الشيخ قاسم زنيل تغمده الله برحمته ·

يعتني بشؤونك ، ومن يسهر على راحتك ، ومن يوقظك في الصباح ؟ ومن ذا الذي يحافظ على صحتك وسلامتك — وكيسك ؟ لا ، وحياة سميرة ، لا تسافر وحدك . رجلي ورجلك سواء . نعم ، اني مستعد للسفر غداً . »

اقتنعت وما تحمست . فللاسفار في هذه الايام ، ان كان في البلاد العربية او الاوروبية ، قوانين واداب لا بد من رعيها والعمل بها . فكيف اهبط على بغداد فجأةً من الجو ؟ وكيف اسافر الى العراق دون ان اكتب الى جلالة الملك مستأذناً ؟

كتبت الى الملك فيصل ، رحمه الله ، فجاءني منه ذلك الجواب الجميل[1] وهو ينذرني فيه انه سيأسرني في بلادة الذي دعاها تلطفاً بلادي .

وكنت بعد بضعة ايام أعد حقائبي للسفر ، وكان الشيخ قسطنطين يسعى لاتمام الواجبات الرسمية التي تتعلق بالجوازات وغيرها من المزعجات . وقد فضلت ان اظل قريباً من الارض هذه المرة ، فلا يفوتني شيء مما جد او تغير حتى في طريق الصحراء .

* * *

رحلنا عن بيروت في اصيل يوم مشرقٍ مدفىء من ايام شباط سنة ١٩٣٢ ، ورحنا نطوي طريق الجبل طيّاً ، فمررنا بعد نصف ساعة بمدن الاصطياف التي كانت وقتئذٍ مستكنةً متقشفة ، مثل المحزون في «مدفه» والتي ستغدو بعد شهرين ، قطب اللذات والطرب ، مستجنةً للناس ، مستعينة عليهم بالوسواس الخناس .

(١) راجع كتابي «فيصل الاول» صفحة ٨

هدرت السيارة بجوار تلك المدن الهادىء ، وفي اسواقها الساكنة المهجورة ، فارتفعنا عند ظهر البيدر خمسة الاف قدم فوق البحر ، حيث كان الثلج والشمس يتعاونان في تعديل طبيعة الهواء ٠

وكان ذلك اليوم من ايام شباط ثابتاً في كرمه واشراقه ، فما تقلب حتى في تقلب المناظر ودرجات العلو ٠ بل ازداد جمالاً عندما أطللنا على سهل البقاع — ٢٥٠٠ قدم دوننا — وقد فُرش بالطنافس الخضراء والصفراء والبنية اللون ٠ وهناك بين صفوف معوجة من الضفصاف، تتقطع ثم تتصل، يظهر ويختفي الخط الفضي الرقيق ، نهرُ الليطاني ، فيبدو حيناً كالسهم ، وحيناً كالأَهِلَّة ، في طريقه الى البحر ٠ وفي آخر السهل الجبل الشرقي وقد قل فيه الثلج والاخضرار ، فهو جاهم مانع ، الا في منعطفات اوديتهِ حيث طريق الاسفلت تنساب بين البطاح ٠

وبعد ساعة من سهل البقاع لقينا الجمال الحي الطروب في المياه الجارية والبساتين ٠ انما الاشجار كانت لا تزال في اغفاءة الشتاء ، وكان نهر بَردى لا يزال مكفهر الجبين مما تثقله به السيول ٠

ذلك مدخل دمشق الغربي ٠ وفي صباح اليوم التالي ، بعد ان بتنا في المدينة ، كنا نسير في ظل الجمال الذي يزدان به مدخلها الشرقي ٠ اما الجمال نفسه انما هو الغوطة السندسية ، وقد كان على وجهها نقاب دقيق من انفاس الشتاء الجامدة ٠ فمررنا بين بساتين من المشمش والجوز دكناء ، وحقول للكرمة والقنب غبراء سمراء ، وبعد ان اجتزنا النيف والعشرين ميلاً منها ، دخلنا فجأةً في الارض اليباب ، فانكشف لنا فراغ البادية ، بل تشبَّح امامنا هول الشول ٠

وهناك من هذا الهول وذلك الفراغ خمسمائة ميل ويزيد ، لا ينقطع حبلها الا في وادي حوران ، الذي يشق بادية الشام من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي — من الفرات الى الجوف — وفيه الحيا ، اي الماء والكلاء ، لمن ينشدونه من العرب ·

بعد ان نخرج من الغوطة ، ونجتاز مسافةً لا تتجاوز العشرة الاميال ، نصل الى مخفرٍ حديث البناء يدعى ابا الشامات ، حيث تستوقفك الحكومة السورية الانتدابية لتنفذ فيك اوامر ثلاثٍ من دوائرها ، هي دوائر الجمرك والشرطة والاستخبارات · فهل تحمل شيئاً في حقائبك ُفرض عليه رسم جمركي ؟ وهل تحمل جواز سفرٍ مقبولاً لدى الحكومة التي تحمل بعض اثقالها ، او لدى القنصل الذي تنتمي اليه ، ولا ينتمي هو اليك ؟ وهل انت ممن تأذن لهم دائرتا الشرطة والتحري ودائرة الامن العام بالخروج من البلاد او بالدخول اليها ؟ هذه المسائل ُتصدَم بها عند بئر الماء ، على حاشية البادية ، حيث ابتُني مخفر ابي الشامات · تعساً لحكومات هذا الزمان التي جعلت اكل النار اهون من الاسفار ·

منذ عشر سنوات دخلنا دمشق سالمين ، بعد ان اجتزنا البادية آمنين ، وما كان على الباب شرطي او دركي او عبيدُ مستشارين · فالمخفر في ابي الشامات اذن هو شيء جديد غير سعيد ·

وهناك جديد آخر لاحظناه ، الا انه من حسنات الطريق · منذ عشر سنوات كانت السيارات تخرج من دمشق او من بغداد لتجتاز البادية في اي يوم كان من الاسبوع ، علَى شريطة ان تكون مصحوبةً بدليل · فما كان قد أُنشيء خفر البادية ، وكان المسافرون ُعرضة للعصابات او للشاذين

الناهبين من البدو ·

اما الان فلا تخرج السيارات الا في يومين معينين كل اسبوع ، فتسير كلها قوافل ، يُضمَن فيها التعاون اذا تعطلت احداها ، وتضمن سلامة الركاب واموالهم لما في الطريق في ذلك اليوم من شرطة البادية ·

ما بقي اذن من الاخطار غير اثنين ، الواحد من الطبيعة ، والثاني من الانسان · اما الاول فهو جنون البادية ، ذلك الجنون الذي يخشاه حتى ابناؤها · هو هول الشول بعينه · هو جنون الرياح العاصفة هو « إعصار فيه نار » وفيه ما هو اشد بلاءً ، فيه رمل وتراب · إعصار يحمل من الاثنين ركاماً ، فيضيّق على المسافرين الرحبات ، ويسد مواطن النظر كلها · إعصار يعمي الابصار · وما هذا كل شره · فهو اذا لقي قافلة في طريقه ، وكان سائق احدى السيارات ضعيف العصب او النظر او القلب ، وغير ماهر في مهنته ، فتهتز يداه القابضتان على الدولاب ، فتدور السيارة يجنبها المهب ، بدل ان تظل سائرةً واياه في خط مستقيم ، مدبرةً او مقبلة — اذا كان الامر كذلك ينفخ الاعصار في جوف تلك السيارة ، وتحت انفها ، فيرفع بها عن الارض ، ويقذفها قذفةً فيها الدمار ، وفيها الموت ·

اخبرني من شاهد مرة احدى السيارات في مثل هذه المحنة · فكان الاعصار يعصف فيها عندما جنّبت ، فرفعها فوق الارض ، وقذف بها بضعة امتار من الطريق ، فحطمها وقضى على كل من فيها ·

اما الخطر الثاني فهو من طمع الانسان المتاجر بالاسفار ، ومن جهل المسافرين او أهاليهم ، او من رغبتهم في توفير دريهمات من المال · فانك لتعجب وتحزن اذا رأيت سيارة من سيارات الشركات الوطنية ، الحاملة ستة

من الركاب ، الراكمة حقائبهم وصناديقهم ورِزَمهم ، ليس الى الوراء وحول الخزان فقط ، بـل الى الجنبين ، على طول الدرجتين حتى مستوى سقفها ، فتنسد كل الابواب ، الا واحداً لا غير . فكيف يخرج الركاب اذا ما فاجأهم الخطر ؟ اذا انقلبت السيارة ، او اشتعلت بها النـار من عود ثقاب مشتعل يُرمى اهمالاً بين الحقائب ، فكيف يخرج منها الركاب والسائق ، كيف يخرجون مسرعين لينجوا كلهم بانفسهم ؟

كانت في موكب ذاك اليوم خمس سيارات مشحونة ، مزدحمة ، مسدودة الابواب كما وصفت ، وسيارتان كبيرتان تحمل الواحدة عشرين راكباً ، كراسيها معدودة ، فلا سبيل للازدحام فيها ، وسطحها مُعَد لامتعة الركاب . ثم ثلاث سيارات شحن ، منها واحدة تحمل البريد . والموكب يسير غالباً في وقت واحد .

هذا النظام في السير هو من حسنات السفر بين سوريه والعراق . فهو يذهب بهول البـادية ، الا في عواصفها ، ويزيل وحشة الطريق واخطارها . ولم يبق من حاجة الى دليل . لقد اضحت الطريق معروفة من آثار الدواليب فيها ، وكثيراً ما تسير السيارتان والثلاث سيارات في صف واحد ، مقابلة بعضها للبعض ، ويطلق للسبق البنزين .

وهناك غير هذا الجديد المفيد . هناك الانصاب الى جانب الطريق ، وما هي ببعيدة بعضها عن بعض ، تنبىء بالمسافات ، كيلومتراً في الناحية السورية ، وميلاً في الناحية العراقية ، وتزيد بالاطمئنان . انما هي الدليل الاكبر اليوم . او هي وأثر الدواليب تهدي السواق فلا يتيهون ، ولا يضلون السبيل .

* * *

لقد مُدنت البادية · واهم ما تغير وأُنشىء فيها انما هو في الرطبة · هناك ، شرقي وادي حوران ، في قلب الشول ، في منتصف الطريق بين دمشق وبغداد ، هناك آبار الماء ، التي لم يكن يعرفها منذ عشر سنوات غير البدو ، بل الادلاء من البدو ·

تلك الآبار يكنها العراء ، ويحيط بها الهول العاري ، فلا شجرة ولا صخرة ولا شعيب ينبيء بها ، او يدل عليها · تلك الآبار هي ارث البدو ، ايّ كانوا ، ومن اي قفر جاءوا ، يسوقون اغنامهم وقوافلهم اليها · وكل من وردها كان يحمل دلوه وحبله · والا فلا سبيل الى الماء ، ولا حيلة ·

فلو جاءها عرب واردين ، ولا حبل معهم ولا دلو ، وكان على الماء من معهم الاثنين ، وكانوا معادين مانعين ، فلا بد من قتالهم وغلبتهم ، ليصيروا من ابناء الرحمة والمعروف · وكم من معركة شُبت نارها حول هذه الابار بين ابناء البادية المتغازين الذين وهم « قوم » بعضهم لبعض ؟ كذلك كانت الرطبة ، رحمة من الله مدفونة في الشول ، تحف بها الاخطار ، ويحميها الموت

وما هي اليوم ؟ اذا كان الثناء على الانكليز في هذا الشرق يستوجب الشجاعة فاني مجمع الان ما عندي منها وبادىء باسم الله · يقول صديقي الوطني العربي ان الانكليز شيدوا هذا البناء — هو مخفر وحصن ونزل ومركز لاسلكي — لحماية طيارات الانكليز ، لراحة الانكليز ، لمصلحة الانكليز لاغير · فيا اخي العربي الوطني ، انك لتغيظ ، وانك لتستنفد صبر الصابرين · فان كانت العاطفة الوطنية شريفة ، فذلك الشرف يزول اذا كانت العاطفة عمياء · وان كان العداء للمستعمرين حقاً و عدلاً ، فانهما يفسدان ، اذا لم يكن لذلك العداء فكر وحكمة ووجدان · واذا كانت المقاومة للحكم الاجنبي

واجبة — وهي كذلك — فانها تفقد القوة والروعة والتأثير اذا ظهرت في مظهر التحامل والسخف والحماقة ·

ان الرطبة اليوم مرفق عراقي في ادارة وزارة الاشغال والمواصلات العراقية · وهو كنزل يستوجب التحسين · فالاثاث رثٌّ على جدته ، والمرافق وسخة ، والطعام معظمه مما يجيء بالعلب من وراء البحار ، والخدمة عراقية ، والاسعار انكليزية · قد يكون ذلك كله من سوء الادارة — الحكومة تؤجر النزل — وقد يكون من نقص في الميزانية · فالركاب الوطنيون قلما يبيتون او يأكلون في النزل ، والاوروبيون قليلون · على ان النظافة مع ذلك ممكنة ، وهي لا تستوجب غير ارادة المدير وحزمه ، فيقوم الخدم باعمالهم ويحسنونها ·

اما من الوجهة الفنية فان المكان يشهد على علم من تولوا البناء ، وعلى عزمهم ونشاطهم · ان في الشرق الشمالي من هذه البادية بناءً من الحجر ضخماً متهدماً ، بُني في عهد الدولة البرثية ، في الحروب بين البرثيين والرومان · ذلك البناء الذي كان يوماً حصوناً وقصوراً ، يدعى الحضَر ، وهو افخر واعظم حتى في خرائبه من الرطبة · ولكننا لا نحتاج اليوم الى اسباب الدفاع القديمة — اسوار ضمن اسوار تحيط بها الخنادق ، وبروج فوق بروج تحميها الحصون · لا شيء من هذا في الرطبة ·

ولكن فيها كل اسباب الدفاع الحديثة · فاذا جاء العدو من الجو ، يصعب عليه هدم هذا الحصن المنخفض الوديع ، لان سطحه المزدوج المصفح يرد القنابل خائبة خاسرة · واذا جاء العدو من البادية فالجدران الخارجية الكثيفة ، الخالية من النوافذ ، لا يخرقها رصاص البنادق ، وقلما يصلها رصاص

المدافع · هوذا علم اليوم وهوذا عمله · فهل يصغران يا ترى بالمقارنة بينهما وبين العمل والعلم في الماضي ؟ من الجهة الفنية، نعم · اما من الجهة العملية فلا · تلك هي الحقيقة · فمثلما جلب الرومان الى قلب البادية الحجارة الضخمة، والعمد الكبيرة ، كذلك الانكليز جلبوا قطع الفولاذ ، وجسور الحديد ، وادوات العلم والدفاع · فمن وراء السور على السطح تنطق المدافع الرشاشة ، ومن غرفة اللاسلكي يبرق نداء الاستغاثة الى بغداد والقاهرة او الى لندن ·

تلك هي الرطبة · قد كانت امس بئراً مختبئاً في بطن الارض ، يتقاتل ويتذابح حوله العرب ، وهي اليوم السقاية الكريمة — ولا دلو ولا حبل — والملجأ الامين ، للبدو وللطيارين ، وللسواق والمسافرين ، من الانكليز كانوا او من العرب ، او من النوبيين · تلك هي الرطبة · قد كانت امس الهول المجسم ، الهول العاري الاعمى الاصم ، فلا يرى غير الدلو ، ولا يلين لغير الحبال ، وهي اليوم ذات عين تبصر ، وصوت ينطق ، وعقل يفكر ، وقلب يعطف ويحن · فهي تسمع صوت الاعصار يزمجر وراء الافاق المشرقة ، وهي ترسل اصواتها المحذرة الى ما دون الافاق · هي تهدي الطيارين فلا يضلون ، وتحذرهم من العواصف فتقيهم اخطارها · وهي للمسافرين نعيم ساعةٍ في الاقل ، وللواردين المستقين عونٌ على الدوام ·

وان في الرطبة ما يسلي ويطرب حتى اخي العربي الوطني · عندما دخلنا ردهة الاستراحة ، الساعة العاشرة من الليل ، كان الوقت بلندن وقت الشاي اي الساعة الخامسة بعد الظهر ، وهي ساعة الاذاعة اللاسلكية · وكانت في الردهة آلة الراديو مفتوحة ترحب بنا بقطعة من « عائدة » لفردي ، كانت تُعزف في تلك الفينة بلندن ، يعزفها جوق كبير على معازفه

الخمسين[١] . ورأينا بعض المسافرين يطالعون الجرائد ، وبعضهم يشربون الوسكي او الشاي ، وهم يستمعون لندن تغني ! لندن في الرطبة ، وكانت الرطبة بالامس ثُقبةً في ظهر الشول .

* * *

شئت ان نبيت في الرطبة ، وشاء الرفيقان ان نصل الى بغداد صباحاً ، فقلت : ضعيفان يغلبان قوياً ، فكيف بقويين . في الساعة الحادية عشرة اذن نهضنا للانسراء .

واين السيد يحيى ؟ نعم ، ان سائق السيارة وصاحبها لسيد من السادة ، سيد كبير من بغداد ، عريض المنكبين ، عريض الصوت والدعوى ، يعنجر ويزنجر ، ويلف حول لبادة رأسه خمسة اذرع من الكشمير الهندي . ما كان في تلك الساعة على مرأى او مسمع منا ، فراح الشيخ قسطنطين ينشده ويناديه . ولقسطنطين صوت يعلو صوت السيد ويجعله بالمقارنة انثوياً . سمعته وهو واقف في بوابة الحصن يرسل ذاك الصوت في الليل — يسخّر الليل — ليحمله الى السائق السيد حيث كان ، ويبرزه للوجود . يا سيد يحيى! يا سيد يحيى !

وكان لا يزال نور السراج يبص في القهوة خارج الحصن ، وكان احد الحراس عند البوابة ، فقال لقسطنطين : « خفف عنك ، وامش الى حيث النور ، فتسمع السيد يغطّ قبل ان تصل الى القهوة . »

---

(١) واليوم يسمع المسافرون الاغاني والخطب العربيـة من مركز الاذاعة العربي بالقاهرة .

بعد بضع دقائق رأينا السيد يجر نفسه وراء قسطنطين ، وهو يلف اذرع الكشمير على رأسة وحول اذنيه . ثم لبس معطفه المبطن بصوف الغنم . ولا عجب . ان برد البادية في الليل لاشد من برد الجبال ، والرطبة لا تفرق كثيراً عن دمشق في علوها — ٢١٠٠ قدم — عن سطح البحر .

لذلك اقتدينا بالسيد ، فلبسنا لليلة شباط وريحها اثقل ما عندنا ، ونحن نردد متورعين الكلمة التي كان يرددها قبل ان يضع يديــه عَلَى الدولاب . توكلنا على الله !

ولكننا ، بعد نصف ساعة من السير ، احسسنا بان يد السيد تهتز ، والسيارة تتذبذب في العراء المجهول . فصاح الشيخ قسطنطين به ان قف .

— « قف يا سيد ، وفتش عن الطريق . »

ثم نزل هو بنفسه يتحقق ظنه ، فعدنا نحو خمسمائة متر الى الوراء ننشد أثر القوافل السيارة .

قبل ان خرجنا من دمشق اطنب قسطنطين بمدح السيد السواق . هو احسن السواقين في الشام وفي العراق ، وهو رجل صادق شريف — من سلالة النبي — هو سيد ! وكأني بالرفيق قد نسي ما كان من حظنا واولئك السادة في اليمن . وهم ، على زعمهم ، خلاصة الخلاصة — زبدة السلالة النبوية . وقد كان رفيقي في نجد سيداً كذلك ، وما كنت في رفقته من اسعد الناس . فقد كان خمراً في اول امره ، وخلاً في آخره .

في تلك الساعة ، وفي قلب البادية وشدة الليل والبرد ، وددت لو ان سائق سيارتنا من غير السادة . فقد عادت تهتز اليد القابضة على الدولاب ، وبتنا للمرة الثانية خارج الطريق . نبهنا الى ذلك قسطنطين على عادته . فهو في

الاسفار ، ساعة الخطر ، اكثر من عرفت تيقظاً وحزماً . ولكنه — خذ الحقيقة بكاملها — اكثرهم تشاؤماً . صاح بالسيد وفي صوته رنة الامر والتوبيخ ، فتوقف فوراً . ثم قال يخاطبه :

— « هل انت نائم ؟ »

— « لا والله . »

— « هل انت نعسان ؟ »

— « لا والله . »

— « والله انت كذاب . والله ستنام — كانا نام . »

اظن ان السيد سلك ذلك المسلك ليصل الى هذه النتيجة . نمنا ، كل في مكانه من السيارة ، نحو ساعتين ، نوماً متقطعاً . وكان الواحد منا ، كلما صحا ، يلعن ريح شباط ، وبرد ليله ، ذلك البرد الذي يخرق المعاطف كلها ويتغلغل في الامعاء ، فيقلصها ويزيد في تعقدها .

لزمتني الرعدة بعد ان استأنفنا السير ، واحسست بوجع معوي شديد . وعندما الشيخ قسطنظين رجا السائق ان يقف ، كما كنت قد فعلت ، ضحكت ، على المي ، وسمعته وهو عائد الى السيارة يقول : هذه مذلّة ، واية مذلة ، ان يكشف المرء قفاه لهذا الريح القبيح . . . وبي صداع ايضاً . . . بودي لو بتنا في الزطبة . »

كان الفجر ساعتئذٍ يتثاءب ويتمطى ، ففاجأته الشمس ، وهي مثلة كليلة او عليلة . رفعت رأسها من بطن الارض — من حافة السهل المنبسط امامنا — بدون مقدمات ، وهي اشبه بالقمر المغيوم ، فما شعرنا بحرارة وجودها الا بعد ساعة من تشريفها . وكان السيد اول من استنشط فينا ، فحاول ان

الماضي الدائم

بائعة اللبن

الكاتب العام

اللوكندة الماشية

يعوض عما كان من إبطاء ، فزاد بالسرعة حيثما استطاع . على ان الجانب العراقي من هذه البادية هو وعر ، والطريق كثيرة الاخاديد .

وبينما كنا سائرين بسرعة تنيف على الثمانين كيلومتراً في الساعة ، رأينا اعرابياً يلوح من بعيد بردن قميصه . ورآه السيد وما اكترث به ، فتململ قسطنطين غيظاً . قسطنطين ، الآمر بالمعروف ، الناهي عن المنكر ، على الدوام ، وان كان مكروباً متألماً ، قسطنطين ، الحاضر الفكر ، البعيد التصور ، لله دره . فقد ذكر في تلك الفينة ان قسماً من القافلة تقدمنا ، وظن ان احدى السيارات أُصيبت بأذى ، فأمر السيد ان يقف . قد يكون هذا البدوي قادماً من قِبَل القوم مستنجداً . وقد يكون هو نفسه في حاجة الى اسعاف .

— « وقّف يا سيد . أما سمعت ؟ اقول لك وقف ! »

وكان الاعرابي لا يزال يعدو ويلوح بردنه ، فبتنا ننتظر وصوله . ولبثنا ننتظر ، بعد ان وصل ، رجوع النفس اليه . ثم قال انه — عطشان ، يكاد يموت من العطش .

فجبهه السيد يحيى بهذه الكلمات : « يا قواد ، يا ابن القوادين ! »

فكشف الاعرابي عن صفٍ من الاسنان كاللؤلؤ المنظوم .

— « وماذا يصير في الدنيا ، يا نطفة السعادين ، لو فطست ؟ »

فابتسم الاعرابي ثانية دون ان يفوه بكلمة .

— « وتضحك يا قواد . تضحك يا ابله البله ، يا نتانة البدو . لعنة الله عليك وعلى جدودك . خذ اشرب . »

فابتسم الاعرابي ابتسامته الكبرى ، ابتسامةَ العيد ، وقبض عَلَى القربة

بكلتا يديه ، فشرب واشتفَّ وحمْدَل ، ثم مال بوجهه الينا وقال : بامان الله .

اما قسطنطين فكان يصرف باسنانه ، فقال للسيد بعد ان استأنفنا السير :

« اما كان اجدر بك ان تسبه ولا تسقيه ، او تسقيه ولا تسبه . أوَلا تخشى ان تعطش انت ذات يوم في البادية فلا تجد لا من يسقيك ولا من يسبك ؟ » .

فأجاب السيد : « ما شاء الله كان . وما يشاء يكون . الله سبحانه وتعالى ، اعطى القواد الماء ، وانا ، سبحاني ، اعطيته ما يستحق . »

فأُفحِم قسطنطين وغُلِب . ان « سيده » لصاحب ذكاء ودعابة . وما كرِه اناسٌ البدو كَرَهَ السادة . وما كرههم احدُ السادة كَرَهَ هذا السيد . فقد استمر يقول : « نتانة البدو — نتانة البدو » ثم يبصق ويقول : « بعر الجمال خير من البدو . بعر الجمال يصلح للنار ، والبدو لا يصلحون لشيء . »

نعوذ بالله من تعسُّف هؤلاء السادة . فهم يشرفون هذه الدنيا وفي رقابهم اسطورة من الاساطير : انهم من السلالة النبوية . وبما إن الاساطير لا تُسعف ولا تفيد الا نادراً ، فيضطر السيد ان يعمل مثل الاوادم ليعيش ، فيلعن لذلك الدنيا ، ويلعن الناس اجمعين .

كظم الشيخ قسطنطين ما اصابه من وقاحة « سيد السيارة » ثم اعاد الكرة عليه ، و كان الحديث هذه المرة في السياسة ، فسأله قائلاً : « ومن هوَ في نظرك الوطني الاكبر في العراق ؟ »

فاجاب بصوته الجهوري الغلاب : « الوطني الاكبر ؟ اِمنا (انا) . والبرهان اني الوطني الاكبر ? لست مثل احد من الوطنيين . لا المال ابغيه ، ولا الوظيفة اطلبها — لا اريد شيئاً من الحكومة . اِمنا احب وطني

مجاناً لوجه الله .»

سكتنا جميعاً . وجاء نسيم الصباح مع نور الشمس ينعش ما زعزع ريح السيد من يقيننا ، ويداوي ما اصابنا من رياح الليل . فعاد الينا شيء من حسن الظن بالكون — وبالسادة .

* * *

من الرطبة نبدأ بالهبوط هبوطاً محسوساً ، وعندما نصل الى الرمادي ينبىء ميزان العلو بان هذه البلدة العراقية ، عَلَى حاشية البادية الشمالية ، هي الف قدم فوق سطح البحر . وفي الرمادي شيء مما نلقيه في ابي الشامات ، الا انه اخف ، ولا يد اجنبية فيه . فالمأمورون في دائرتي الجمرك وجوازات السفر كلهم عراقيون ، وقد الفيناهم على جانب من اللطف يندر في المأمور اللبناني .

استأنفنا السير ساعة الظهر ، ونحن لا نزال آخذين بالنزول . فعبرنا الجسر في الفلّوجه ، ودخلتِ السيارة بعد ذلك نعيم الزفت . ذلك النعيم الذي لا يدوم طويلاً في طرق العراق . انما هو قِطع ، او حِتت ، بلغة اهل مصر ، من الزفت ، تصلها بعضها ببعض الطريق القديمة الحافلة بالغبار والاخاديد . ومتى يتم نعيم الزفت ؟ سألت السيد يحيى هذا السؤال ، فكان جوابه ان « الوطنيين » في الحكومة مثل المستشارين ، وان المستشارين من سلالة البدو . وقد شنف اذاننا ببعض الفاظه المنتخبة التي رمى بها ذلك الاعرابي .

على انا شاهدنا في الطريق بعض العمال وادوات العمل . ثم اخذت تقل لعنات الوصل ، ويطول نعيم الزفت ، في دنونا من بغداد ، ومن مستوى

البحر · فان المدينة لا تعلو عن سطحه اكثر من ثلاثمائة قدم ·

عبرنا جسر الحديد الصغير الذي بناه الترك في اواخر القرن الماضي ، وعيدت بغداد يوم افتتاحه وبعده عيداً طويلاً مهلهلاً · وبعَيد ذلك وقفنا امام البناية التي كانت ولا تزال الجمرك ·

امر المدير ، وهو شاب اشقر اعمش ، بان تنقَل حقائبنا كلها الى غرفة الفحص · ثم دخل الى مكتبه يتبعه الشيخ قسطنطين حامل الجوازات والسيد يحيى · وبين كان يفحصها ويسأل سوءالاته المعتادة ، سمعت اولاً صوت قسطنطين، ثم صوت السيد يعلوه ويمحوه، وسمعته يصيح : « اتق الله يا رجل · نحن ثلاثة وما معنا غير ثلاث زجاجات · » الامر امر خمر ·

ولكن المدير أصر على ما يظهر ، وما أسرَّ السيد العنجري · الثلاث لواحد من الثلاثة ركاب — هذا ما يفترضه حضرة المدير ، وافتراضه هو وفق القانون ، ولمصلحة الجمارك العراقية — فعلينا اذن ان ندفع رسم الجمرك عَلَى زجاجتين من العرق · مدير مدقق — مدير عبراني اسرائيلي · وسمعت السيد يقول وهو خارج من مكتبه : « يهودي ابو شمعه ! لولا كرامتكم والله ، لمرَّغت انفه بالتراب · »

وعلى جسر « مود » استوقفنا آخر من اولي الوجوه البيض ، والعيون العمشاء · وكنا قد شاهدنا بين المارّين والمارّات ثلاثاً من الحسان ، يلبسن العباءة دون الحجاب ، فقال السيد ، بعد ان دفع رسم المرور ، ولعن الوكيل : « وهذا يهودي ابو شمعه · ينصبونهم لنا في كل مكان ليلتقطوا الفلوس · ولكن لهم « خوَّيات » والحمد لله · ارأيت الثلاث اللواتي مررن سافرات ؟ هن اخوات ابي الشمعه هذا · ولولا احداهن لما كان هو على

الجسر في هذه الوظيفة يلتقط الفلوس . »

وكنا ، والحمد لله ، قد ادركنا النهاية من رحلتنا . بل وصلنا الى حيث تبـدأ الرحلة ، فنباشر البحث عما جد وأُنشيء في بغداد خلال السنين العشر الاخيرة .

* * *

قد اشرت الى ما كان من تجديد وتغيير في طريق الصحراء . واول ما نشاهده في العراق هو جسر الفلوجة الذي كان من خشب ، فاصبح من حديد . ثم الطريق من الرمادي الى بغداد ، التي باشرت وزارة الاشغال تزفيتها ، وستتم العمل ، وهي الطويلة العمر ، باذن الله ، فيغدو مدخل العاصمة من الغرب ناعماً للمسافرين ، ومستحقاً اعجابهم .

ان القسم الاخير منه لهو الان كذلك . فمن الجمرك الى جسر « مود » جادة كانت تراباً في الصيف ، ووحلاً في الشتاء ، وهي اليوم شارع واسع مزفت مشجر ، أُطلق عليه اسم الملك فيصل ، الا ان في ساحته عند الجسر جنينة مدورة تشكو العطش والاهمال ، وتشتاق الزهور !

وفي هذه الساحة ، في وسط الجنينة ، تمثال الملك فيصل في القيافـة العربية ، على جوادٍ شبه غربي ، صنعه المثال الطليـاني المشهور بياترو كانونيكا . وقد صنع ايضاً تمثال عبد المحسن السعدون القائم في باب شرقي . اقف عند هذين التمثالين لاقول الكلمة الواجب قولها ، لا تأسُّفاً على الخمسة آلاف دينار ثمنها ، ولا تنقصاً من شهرة صانعها ، بل تنبيهاً للحكومة العراقية التي تحتاج حقاً الى مستشارٍ في الفنون الجميلة ، فلا نقدم مرةً اخرى على

مثل هذه الفعلة في تكريم رجالها الخالدين ·

ان في هذين التمثالين البرهان الساطع الموجع عَلَى افتتاننا بما هو للغربيين من الآثار الفنية ، وعلى يقيننا او ظننا او وهمنا انها كلها ممتازة ، وعلى جهلنا بما يكون من اسفاف الفنان الغربي اذا انتُدب لعمل وطني فني في بلادنا · اني على يقين ان حاضر هذين التمثالين لخير من مستقبلهما · فانهما قائمان اليوم فوق مرمر سدّتيهما بسلام وأمان · اما غداً ، عندما تنشأ الفنون الجميلة في البلاد ، وينبغ في الامة الفنانون ، ويصبح الاديب البغدادي في تذوقه جمال الفن كما هو في تذوقه الشعر والادب ، فلا امان على التمثالين ولا سلام ·

غداً تحمل صحافة بغداد عليهما لانهما من سقط المتاع — لا فن فيهما ولا حقيقة — لا الوجه وجه فيصل ولا الجواد جواداً فيصلياً — ولا الوجه وجه عبد المحسن ولا الوقفة وقفةً من وقفاته الوطنية الرائعة — غداً — اقول — يحم القدر ، فيثور ثائر الشعب البغدادي على هذين التمثالين ، فينزعهما من مكانيهما ، ويرمي بهما في دجلة ، غير آسف على الخمسة الاف دينار التي قبضها ذلك الفنان الطلياني · ثم تنتدب الحكومة العراقية ، التي تكون قد استنارت بنور الفنون، مثّالاً عراقياً او سورياً او مصرياً ليصنع للرجلين الخالدين ما يليق بهما من التمثيل بالصفُر او بالرخام · عندئذ يتم التكريم لهما ، وخصوصاً للملك فيصل في ذكرَيه — شارعهِ وتمثاله ·

هيا بنا ، قد انفتح الجسر · وهو لا يزال ذلك الجسر الخشبي الذي يُفتح مرتين في النهار لعبور المراكب والبواخر · ولا يزال القسم الذي يفتح منه كما كان · اما القسم الاكبر فقد فُرش ممرُّ السيارات منه بالزفت ، تخفت

الاصوات تحت الدواليب . والعَلَمان ، تبارك العَلمان الابيض والاحمر ، فهما مقيمان على عهد مخترعهما العبقري ، فلا يزالان قيد أيدٍ بشرية ترفعهما وتخفضهما لادارة السير وضبطه بين الكرخ والرصافة ، وهما على ما يظهر من الآثار الفنية الخالدة . تبارك العلمان .

* * *

اما ونحن الان في بغداد للمرة الثانية فاننا نتوكل بعد الله على الملازم سردست ليهدينا الى ما أُصلح وأُنشئ وجدد خلال السنين العشر الاخيرة . ان اولها النزُل ذات الاسماء الانكليزية المضللة — نزل وندزور ، نزل كارلتون ، نزل كرزون ، نزل مادجستك — واحسنها ، واصدقها في شطرٍ من اسمه ، هو هذا النزل الذي نحن فيه . فقد كان اسمه نزل مود ، فتغير بعد ذلك مراراً ، وصار يدعى تَيغريس بالاس . اي قصر دجلة .

انه صادق في الشطر الاخير من اسمه ، فهو على دجلة . اما الشطر الاول فهو مثل اسماء النزل الاخرى كذب وتضليل . ليس في بغداد اليوم قصور الا اذا قلنا قول القاموس ان القصر كل بيت من حجر ، او انه سُمي كذلك لاقتصاره على بقعة من الارض بخلاف بيوت الشعر ، فلا ينتقل مثلها . اذاً كل بيوت بغداد قصور . اما اذا كان القصر قصراً لقصور الناس عن الارتقاء اليه — لا نزال رهن القاموس — فليس في بغداد قصر واحد ، لان اعلى بيوتها لا تتجاوز الثلاث طبقات ، ولا يقصر دون ارتقائها الا العُرْج وذوو الفتوق .

لنصرف النظر عن الاسم اذن ، ونسرحه في هذه البيوت القائمة حول

صحن كبير التي ينشد فيها المسافرون ، وجلهم من الاوروبيين ، الراحة والهناء — والاوروبيَّ من مأكولٍ ومشروب . وانهم ليجدون كل ذلك . ويجدون فوق ذلك ما هو حقّاً جديد ، اي الغرف المجهزة بالحمامات الخاصة .

لأول مرة نزلت في هـذا « القصر » كان الصحن صحنه بستاناً ، فيه اشجار النخيل والرمان ، وازاهر الفل والمرجان ، وظلال بينها وشاذروان . ولما زرته ثانياً كان قد اضمحل البستان ، واختفى ترابه تحت فراش من البلاط الابيض ، وما بقي من اشجاره غير نخلة واحدة ، اقامت في قلبه وحيدة ، وكان الى جنبها قسطلٍ من حديد ، يرفع رأسه الى ما فوق صدرها ، ويحمل اليها ، على ما اظن ، روائح ما تحت ارض الصحن من مقاذر او مجارير . رثيت حقّاً لحال تلك النخلة ، التي فُرض ذلك الرفيق عليها ، فظللته كرماً ، فأفسد جوها لؤماً . واظنني لفت نظر المدير يومئذ الى هذه الفجيعة في الاقتران فقلت : « اقطع النخلة او أجِرْها من هـذا الفظيع قرينها . »

وانه ليسرني ان اقول الان ان مدير التيغرس بالاس عمل برأيي ، ولكنه تحرى فيه المساواة فقضى على القسطل والنخلة معاً . وقـد امسى الصحن ساحة بيضاء ، عارية ، جامدة ، عقيمة ، يتسابق فيها ابن المدير ورفقائه علَى الدراجات ، وتدخلها فتحط فيها السيارات . إنا لله .

على انه قبيح بنا ذم « قصر دجلة » ما زال يوسف الكلداني التلكيفي مديره ، وما زال المعاونون والخدم من اخوانه الكلدانيين التلكيفيين . فان ابناء تلكيف متصفون معروفون حيث كانوا بالنشاط والاقدام ، واللطف والتهذيب ، والصدق والاستقامة . تلك هي الحقيقة . وليس في « قصر

دجلة» ما قد يكون شائناً لسمعته ولفضائله غير ذلك ال« بار » الاميركاني، الحافل بالكؤوس والقناني ، المغري بابنة الدالية ، وابنة الشعير الغالية ، وبكراسيه العالية - ذلك ال« بار » الذي يديره ابن عم يوسف ، الحذق اللبق ، البسام على الدوام ، فيمزج العقيق والذهب والمرجان — الوسكي والرُمّ والجن والجان — ولا يبالي بما يكون من شأنها في رؤوس الشبان ، المسلمين والكلدان ، الذين يتهافتون على « نعيمه » ، تهافت الذباب على ادبه . فيا يوسف ، ويا ابن عم يوسف ، ارفقوا في الاقل بالشبان العراقيين ، وفرّغوا زجاجاتكم في بطون الانكليز .

ولا تتشبهوا في مطبخكم بهؤلاء الانكليز ، الذين يحسنون كل شيء في الحياة ، الا الاكل وفن المطبخ ، فيسلقون الخضر ويحسبونها مطبوخة ، ويشوون اللحوم ، ويقدمون معها الابازير والسوائل المقبّلة ليكمل طبخها الضيوف كل على مائدته . والعجل والثور والخنزير ، يا يوسف ، انك فيها عدو العرب . تجيء بالثور في التنك ، وتجلب الخنزير بالصناديق ، وتطبخ منها — وتقدمها باردة — لابناء لندن — ولا بأس — وتفسد بها — ولا رحمة في قلبك ، ولا رحمة عليك — تفسد بها معد العرب واذواقهم — ودينهم ! وماذا يفعل خس بغداد بخنزير يور كشير ؟ ومـا لذّة الحبارى ، يا ابن تلكيف ، وهي تستحيل في مطبخك قطعةً من ال« روس بيف ؟ »

اما الخدم فانهم جديرون بالثناء لما يحسنونه من الخدمة ، ولما فطروا عليه من اللطف والمعروف . ولكننا نتقزز من الساكو البيضاء في النهار ، ومن الثوب الاسود الرسمي في الليل ، ونحن ببغداد ، يا يوسف ، لا بلندن ، والثوب الرسمي للخدم ، ان كان ينقصه الاجسام المعتادة له ، اللائق بها ،

وان كان ينقصه النظافة والكي بالمكواة الحامية كل يوم ، فهو شيء فظيع ، ولا نظن ان الانكليز انفسهم يستأنسون به ، ويرضون عن لابسه . فلو استغني عنه في نُزُل بغداد ، وأُلبس الخادم ثوباً وطنياً ، او ثوباً بربرياً ، اي مصرياً — قفطاناً ابيض ومنطقة حمراء — لكان ذلك ملائماً للمكان ، والطف في نظر الضيوف واجمل . ما سوى هذا فان نزل يوسف لخير النزل ببغداد .

اما الشارع الجديد ، شارع الرشيد ، فقد زال منه الغبار ، دُفن تحت صفحة من الزفت ، وهذا من حسناته الحديثة . لقد شط القلم في « حسناته » وليس هناك ما يجيز الجمع . ذلك ان البنايات الجديدة ، واكثرها في جهة باب شرقي بُنيت على الطريقة القديمة ، التي لا تعرف النظمَ المدنية ، فهي تحترم الرصيف مرةً ، وتثلم عرضه (بضم العين وبكسرها) مرات . ان هذا الشارع لا يزال كالمنشار في نتوءه وفتوقه، وفي عماره وخروقه . اما القهاوي فيه ، فقد ازداد عدد تلك التي لا يتقزز المرء منها .

وقد ازدادت كذلك الضوضاء في شارع الرشيد . فقد وصلت السينما الناطقة الى بغداد ، وشرعت الفونوغرافات والمكبرات ترسل في الشارع النموذجات من مكربات الالحان والصيحات . تعالوا اسمعوا ، يا اهل بغداد ، صياح الاميركان في ساحات كرة القدم واللكم . تعالوا اسمعوا المدنية الغربية تعج وتثج . ليت شعري باصوات البغداديين ما تكون عندما تغزو بغداد كرة القدم والملاكمة ، ويجن اهل بغداد جنون اولئك «البرابرة» عبر البحار ، باللكم ولعب الاقدام ! هي المدنية الغربية ، ولا مهرب منها .

وهذه البصّات[1] منها ، وهي تزيد بازدحام شارع الرشيد وبضوضائه وروائحه. اما السيارات ذات العداد فقلما تجدها. واما الخصوصية فهي في بغداد، في كل العراق ، لا تتجاوز الالفين سيارة ، واكثرها قديمة او انها لا تلبث ان تصير كذلك لقلة الاعتناء بها . وقلما يفطن السائق او صاحب السيارة ان غسلها كل يوم هو الزم ما يلزمها في بلاد مثل العراق غبارها ابدي.

ان العربات من هذا القبيل خير منها . وقد تقول اذ تراها انها من عهد عاد وثمود . ولكنك بعد ان تركب فيها ، اللهم اذا كنت ممن لا يعدون الدقائق والساعات ، ترضى عنها وتقول : خسئت يا سيارة !

فالمجلس فيها احسن مما يبدو لناظريك ، لانه نظيف وثير ، والخيل تجري جري الاصايل ، وان لم تكن منها .

الا ان حال الخيل يسوء عندما يرَش الشارع بالماء ، فيجرّ الجري البلاء عليها ، او بالحري يجرها اليه . ذلك ان هواء بغداد يحمل دائماً من دقيق الغبار ما يفرشه في الشارع، فيستحيل اذ يمسه الماء وحلاً رقيقاً زلجاً . وعندما تكون الخيل جارية جريها المعتاد ربعةً — وقلما تراها ماشية — فترفع فجأة امامها يد الشرطي لتوقفها ، فيقصر السائق العنان في الحال وبقدر ما تلبيه قواه ، تزلق الخيل زلقة هي القرفصة بعينها ، فتكاد تدخل في العربة ولولا العريش تصير تحت دواليبها . لاحظت ذلك غير مرة ، ولفت نظر رفيقي اليه ، فابتسم وما شاطرني في تلك الحال شعور الرفق بالحيوان . قلت ان الملازم سردست قليل الكلام ، وهو لا يؤخذ بالاوهام ، ولا يروقه حتى الشعري من الخيال . دقيق النظر على قدر ما يمد نظره ، صريح القول

(١) بص autobus جمع بصات — لغة امانة العاصمة .

في ما يعلم ويرى . وقد قال يصلح ما كان من خطأي في ما تقدم ، وما كان من رثائي لحالة الخيل: « ليس الحق على الاسفلت، ولا على الغبار والماء، ولا على الشرطي او على السائق . هذه العربات من ايام الترك ، وليس لواحدة منها وازع (اداة للتوقيف في البغتات)

وبين كنا نطوف يبعض الاسواق الجديدة في السنّك قال : « ترى الرصيف في هذه الاسواق ايضاً غير متسق . ضيق هنا — واسع هناك — وفي بعض الاماكن يضيع ، يختفي . وما ذلك الا من اطماع الناس ، واهمال المجلس البلدي . فالمجلس رغبة بالتجديد — بالعمران — أعطى اجازته لكل طالب ، بدون حساب ولا قيد . وكل من احتاج الى بضعة اقدام او امتار من الشارع اخذها ولا حرج عليه »

عَلى ان في بغداد الجديدة ناحيتين تبشران بالخير ، الاولى في باب شرقي على طريق الكرادة،تشقها جادة عريضةذات طريقين ، للذاهبة من السيارات والعربات وللآتية ، وبين الطريقين جنينة مستطيلة ستغرس فيها الاشجار . فمتى كملت هذه الجادة ببيوتها الحديثة الهندسة وبستانها المقطع المستطيل ، وكمل بناء الشوارع الى جانبيها ، تضحي الناحية مما يحق لبغداد ان تفاخر به مدن اوروبه .

وفي شمال الرصافة الى جانب النهر ناحية اخرى جديدة هي الفيصلية، تزينها روضة عمومية .وهناك كذلك العلواظية التي ظهر من عمارها وتخطيطها حتى اليوم ما ينبيء بما سيكون من جمالها المدني . ان في هذه النواحي الثلاث الدليل على ان امانة العاصمة عازمة على تنفيذ اوامرها وتعزيز اسباب الصحة والراحة والجمال المدني في الاحياء الجديدة .

بقي ان اشير الى مظهر في الاسواق من مظاهر التجديد أوحت به الوطنية العراقية العربية · فقد بدأت امانة العاصمة تطلق اسماء عربية على الاسواق والجادات · وان وطنيتها في هذا الامر لتستوحي ربة الشهرة في جميع منازلها ، العباسية والاموية ، السنية والشيعية ، الشعرية والدينية والسياسية · اجل ، ان اختيار امانة العاصمة يشف عن ذوق شامل دقيق ، وعن حكمة بليغة · مثَلُ ذلك الجادة التي نشأت الى جانب النهر ، من باب شرقي الى الكرادة ، والتي ستصبح المتنزّه الاول ببغداد · فقد أُطلق عليها اسم ابي النواس · واحسن من هذا في حسن الاختيار الاسم الذي أُطلق على سوق الصرافين ، وهو اسم الشاعر العربي الاسرائيلي السموأل · فحبذا الشعر والشعور في حياة هذا الشارع ، وحبذا الوفاء ، وحبذا المعروف· على ان امانة العاصمة ارادت من الاسم ، على ما اظن ، ما ترمز اليه جنسية صاحبه·

هي دعاية مستحبة ، وان كانت من الحكومة · بل هي في الحكومات شيء جديد · وانك لتجد خارج السور مثالاً آخر منها · هناك ، شمالي البلاط الملكي ، الى جانب طريق الاعظمية ، في بستان كبير من النخيل ، شُيّدت كلية آل البيت ، منذ عشر سنوات ، لتدريس العلوم الاسلامية ، ففتحت ابوابها للطلاب نحو سنتين ، ثم اقفلت ، وهي اليوم دار البرلمان العراقي · من العلوم الاسلامية علم الكلام الذي يدعى عند المسيحيين اللاهوت · فمن علم الكلام الديني ، الى علم الكلام المدني — لا يزال موضوعنا الكلام · الا ان الانتقال من كلية آل البيت الى البرلمان يُعد جديداً ، وقد يكون — وقد لا يكون — مفيداً ·

***

تعالَ اريك مِن الجديد ما لا ريب في خيره . تعالَ اريك آية الجمال في الجادات . من بغداد الى الهنَيدي ، مركز الطيران الانكليزي السابق ، العراقي الان ، مسافة تنيف عَلَى الخمسة الاميال، طريقها مفروشة بالاسفلت، ومزدانة الى الجانبين بصفٍ متواصل من شجر الدفلى . ان هذه الطريق في الربيع، يوم يكون الدفلى الزاهر في مجده ، لاجمل ما يبتغيه المرء من نزهة في ضواحي بغداد . وان شئت اطالة السرور فالعربة خير من السيارة .

وقبل ان اختم هذا الفصل ينبغي ان اقول كلمة في المثال الحي الناطق المنظم للجديد المفيد — وفي بغداد منه مثالان — الشرطة والسجن . اني محب لشرطي بغداد ، معجب به ، لا لانه صورة مصغرة لشرطي لندن ، بل لانه ، وان كان دون الانكليزي في قامته ، فهو صنوه في التيقظ والنشاط ، وفي اللطف والمعروف ، كما هو في ملابسه الانيقة ، وفي حركاته ووقفاته .

والغريب العجيب اني ما سمعته مرة يرفع صوته مهما كان من المخالفة او الاقتتال . فاين الصوت البغدادي الجهوري ، بل الصوت العربي العريض ؟ ان في الشرطة كثيرين من الذين لم يألفوا النظام ، اي من الاسر الطيبة ومن العشائر ، وهم اليوم من ارباب النظام . لله ما يفعله التعليم والتدريب . ما رأيت شرطياً في ثوب مفتقر الى التنظيف ، او بوجهٍ يحتاج الى الموسى . وما سمعت شرطياً يشتم المخالف او يسبه ويتحكم به . وقد قال لي العارفون ان شرطي بغداد نزيه عفيف ، لا تمسه الرشوة ، ولا تثنيه عن واجبه المغريات والتوسطات .

اني اهنئ بغداد بشرطتها . واهنئ اولئك الذين جاءوا من وراء البحار معلّمين ، فانصرفوا الى مهنتهم الشريفة ، دون ان يتدخلوا في

السياسة ، فعلموا ، ودربوا ، ونظموا ، فحببوا مهنة الشرطي حتى الى ابناء العشائر .

اما المثال الآخر فهاكم في سجن بغداد . قد زرت السجن متردداً ، وخرجت منه حائراً في ما عراني من دهشةٍ يتخللها التسآل ، واعجابٍ يبطّنه الريب . فهل من الحكمة ان تحسن السجون فتغدو كالفنادق ، بل احسن منها في النظافة ، وفي قسمتها من النور والهواء ؟ وهل تقل في مثل هذا التحسين الجرائم ؟ وبكلمة اخرى هل يصلح المجرم حاله اذا أُحسن اليه في سجنه ، فيخرج منه نادماً على ما كان من ذنبه ، عازماً ان يلزم بقية حياته السراط المستقيم ؟

سُئل هذا السؤال احد مدراء السجون فقال ان التحسين واجب ، لان القصاص المقرون بالمعروف يصلح ثلث عدد المسجونين او نصفهم . اما الباقي منهم ، وهم المدمنون الاجرام او المطبوعون عليه — يخرجون من السجن اليوم ويعودون غداً — فهؤلاء لا يصلحهم قصاص مهما كان من المعروف او من القسوة في تنفيذه . فالاعدام خير لهم — خير لهم وللامة .

سألت مدير سجون بغداد رأيه في المسألة فقال ان المطبوعين على الاجرام قليلون ، وان العدد الاكبر من المجرمين يصلحهم القصاص المقرون بالحسنى . اذن ، يجب ان نحسّن بيئة السجن — يجب ان نحسنها حقيقةً ومعنى ، فيخرج منها السجين سليماً في صحته وفي اخلاقه . وحسام الدين بك وجيب المدير الحازم يحسن وضع الشيء في موضعه ، وقلما يُفرِط في القسوة او في اللين .

قال احد الحضور معقباً على كلام المدير ان للدين أثراً يذكر في التوبة ،

وان المجرمين من سواد الناس الشديدي التدين · لا ريب في الشطر الاول من هذه الكلمة ، وقد يصح الشطر الثاني · انما هناك ما هو جدير كذلك بالاعتبار ، وهو ان عقيدة من العقائد الدينية تحفز الى الاجرام ، او تشجع عليه ، كما سنرى في ما بعد ·

استقبلنا المدير في مكتبه الى جانب السجن الذي قد ينقل في المستقبل الى خارج المدينة · فهو اليوم قبالة دار الكتب العامة ، في ما كان امس قريباً من بوابة المعظّم اي من السور ، وسيصبح غداً في قلب المدينة المسرعة في نموها شمالاً وجنوباً ·

وكان اول ما قاله المدير بعد السلام — ولا عجب اذا ما افتخر — ان كل اثاث المكتب ، من السجادة الى المنضدة ، هو صنع السجناء في السجن · فشاركناه في الافتخار انا والرفيقان الكريمان ، النائبان المحترمان فخر الدين آل جميل وعلي الامام · ومشينا بعد ذلك جميعاً ، يتقدمنا المدير الذي تفضل فكان الدليل ·

في ظلال النخيل دائرة التأديب ، وفيها من الاولاد الذين يتراوح سنهم بين الاحدى عشرة والثامنة عشرة سنة ، نحو خمسين ، منهم عشرة جرمهم القتل ·

سُئل احدهم عن ذنبه فاجاب فوراً : قتلت ابن جارنا في عركة · وآخر قتل دفاعاً عن عرض اخته · والثالث قتل بدون تعمد — بقضاء وقدر · اما اكثر الذنوب فهي التي تتعلق بالسرقات ، وبما ينجم في « العركات » من الخلل في الامن العام · ولهؤلاء الاولاد معلم يعلمهم العلوم الاولية ، والرياضة البدنية ، فيضحي اكثرهم ، بعد القصاص ، احسن صحةً ،

واسلم خُلقاً ، وانبه عقلاً مما كانوا قبله ·

ثم زرنا المستشفى ، قسم الرجال منه ، وهو وقسم النساء بادارة الدكتور شريف عسيران · ذلك الرائد للصحة والعافية في الكاظمين ، وذلك العامل في سبيل الصحة العامة والنظافة عشر سنوات عملاً متواصلاً يمتاز بالجد والكفاءة والنزاهة والاخلاص · وكفى بمستشفى السجن ان يكون مديره الدكتور شريف ليكون في الاقل مثال النظافة ، ويظل قيد النظام القائم بحسن الخدمة ، وخير المعالجة ، للجميع على السواء ·

ولكني استنكرت في اسرة المرضى اللحف الخشنة القاتمة اللون · كفى بهؤلاء المساكين الاشقياء ظلمات السجن والمرض والشقاوة · وخليق بمديرية السجون ان تجعل اللحف بيضاء او زاهية الالوان ، فترتاح اليها عيون المرضى ويسري من الارتياح الى نفوسهم شيء من الانتعاش · وهب ان فيهم المجرم المدمن الاجرام او الشقي المطبوع على الشقاوة ، فالقسوة في القصاص تعود · بعد عودته الى الصحة والعافية ·

اما السجناء في دور الصناعات فليس في حالهم ما يبعث على الشكوى الا اذا كان الحديد — سلاسل منه ثقيلة — في ارجلهم · وها هنا مجال للحسنى · فان السجناء في المصانع اكثرهم من اصحاب الذنوب الصغيرة ، وهم منها في زورة السجن الاولى · فهم اذن يستحقون الرحمة ولا اظن ان القيد الخفيف او عدم القيد يغريهم بالفرار ، او يحرم مخزن السجن شيئاً من الانتاج او من جودة العمل ·

رأينا هؤلاء السجناء في مصنع السجاد ، وفي وجوه اكثرهم ملامح القناعة والوداعة ، وفي ارجلهم اثقال الحديد ، ينسجون انواعاً من السجاد

الايراني ، التبريزي والشيرازي والكاشاني ، بشارفة معلم عراقي تعلم صناعة النسج في ايران ، ويجيدون عملهم اجادةً تدعو للاعجاب .

ورأيناهم في دار الانوال التي تُدار بالكهرباء ينسجون اقمشة القطن والحرير ، فيأتون باشكال منها ، للرجال وللنساء ، حسنة الديباجة ، كثيرة الانواع ، يبيعها مخزن السجن باسعار بخسة . اما مصانع الاحذية والاجربة فهي تصنع في السنة ما يكفي حاجة الجيش اليه .

وهناك مصانع للنجارة والحدادة والحصر وغيرها ، تنبئك بها ، اذا فاتتك في جولة الاستكشاف ، ما تراه في المخزن الكبير الحافل بانواع شتى من ابضعة السجن .

كل هذا حسن محمود . بيد انه عادي مألوف اذا قيس بمثله في سجون اميركة الحديثة . فهل في سجن بغداد ما يميزه عن سجون العالم المتمدن بشيء ؟ اجيب : نعم . فقد لا تجد في غيره ، في الشرق وفي الغرب ، ما تجده من النور ، والرحبات ، والهواء الطلق . اجل ان من هذه البركات في سجن بغداد ما يكفي للتوزيع عَلَى عشرة سجون في غير مكان . وانك لتجد الرحبات للنور والهواء النقي حتى في السجن الداخلي المعد للمجرمين المحكوم عليهم بالسجن طول الحياة .

ليس من العجب اذن الاَّ يكون للمجرمين ها هنا تلك الوجوه التي تسمها الجرائم بميسم التنكُّد والتأبُّد . ليس من العجب ان يكون اكثرهم عَلَى جانب يذكر من البشر والوداعة .

ان ذنوبهم تنحصر في الدفاع عن العرض ، والثأر ، والسرقات ، و « العركات » التي تنجم عن تنازع في ارضٍ او ماء . وما احد منهم اذا

سئل عن ذنبه يكذب او يجمجم الكلام ·

سألنا عدداً من القتلة فكان جوابَ كل منهم : نعم قتلت · وزاد ثلاثة بقولهم : مقدر — هو ما قدَّره الله ·

هذا ما ألمحت اليه في ما تقدم ، وهو ان بعض العقائد الدينية تدفع الى القتل ، او تشجع عليه ، او هي على الاقل تبرره في عين القاتل · وهناك غير العقيدة بالقضاء والقدر ، فقد جاء في القرآن : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم · »

هي السنة الموسوية التي جاء ينقضها المسيح · فقد قال موسى وقال محمد : السن بالسن والعين بالعين · فقال الناصري : « من ضربك على خدك الايمن فحوّل له الآخر ايضاً · » وما زال صاحب المثل الاعلى غريباً في قومه · فقلما تجد بين النصارى من يعمل بسنة الناصري ، وقلَّ بين المسلمين من لا يعمل بآية الكتاب وسنة النبي ·

وقفنا عند زمرة من السجناء جالسين في الشمس امام حجراتهم ، وفيهم شاب مسيحي أسلم واجرم ، او اجرم ثم اسلم · سألته : هل ارتكبت الجريمة قبل ان اسلمت او بعد ؟ فعلمنا انه أجرم بعد ان اسلم · ولكنه انكر انه قاتل ، فجمجم الكلام ، وانتحل الاعذار · لا اقول ان هذا الرجل هو مثال صادق لكل من اذنب من المسيحيين · انما حزنت لانه مجرم وفوق ذلك جبان · حزنت لانه ، على اسلامه ، لم يكن كالمسلم شجاعاً صريحاً صادقاً ·

قال فخري آل جميل يطيب خاطري : « ما خسرتموه ، يا امين ، وما كسبناه · هو من مال ابليس · »

واخبرني زميله المحترم علي الامام أنه عرف بنفسه ، قبل الاحتلال ،

حجرة من هذه الحجرات ، وما ألفهـا . فان المجرم اليوم يلقى من الحسنى والمعروف في السجن ما لم يلقه في عهد الترك المذنب السياسي .

والمجرمات يعاملن بمثل ما يعامل المجرمون . ما زرنا القسم الذي يختص بالنساء . ولكننا علمنا ان فيه اربعين سجينة ، منهن القاتلة والسارقة والزانية .

والزانية ! — ها هنا وقفت . وما كان الناصري ليحلّي في نفسي مرارة التأمل . . . « من كان منكم بلا خطية فليرمهـا اولاً بحجر » . . . وها هنا ايضاً ينهزم المثل الاعلى . . . قال المعري :

« الشر والخير ممتزجان ما افترقا
وكل شهدٍ عليه الصاب مذرورُ . »

ومع ذلك اقول ان احسن جديدٍ في بغداد انما هو السجن . وقد قلت لرفيقي النائبين المحترمين : سجنكم يُستبشر به اكثر من برلمانكم . »

فضحك المدير ، وعبس فخري ، وقال علي الامام : صحيح .

اني في كل حال اهنئ بغداد بسجنها ، واهنئ حسام الدين وجيب بادارته وبسجنائه .

الفصل الرابع

شارع المستنصر

روح المدن — نيويورك ولندن وباريس — روح القاهرة — روح القدس — روح بيروت — روح دمشق — روح بغداد — السيادات الثلاث المادية — مركز اعصاب المدينة — المغنية ونجوم الليل — نور القمر يرقص مذبوحاً من الالم — بنات الليل الاوروبيات — العري والفن — دور كانت عامرة بالفضل — دور التجارة — دور الدعارة — دكاكين الصابئة — الوداعة والقناعة والصناعة — الشركات الاوروبية — المطامع المستغلة لضعف العباد — الحمامات — اطياف الاساطير والتاريخ — الدربونات — مستودعات الخشب — دار نخمة على عدوة دجلة — الامن والسلام والسجن — جامع المحكمة — المؤذن وقضاة الشرع — القديم الذي يظل جديداً — القيافات واشكالها — الجماعات وصفاتها — العارات ، معناها ومغزاها — الجراوية واليشمق والكشيدة — العبي وما تحتها — الموكب في شارع السراي — الفقيه والسياسي والخمار — الحمالون والحمالات — السافرات والمحجبات — الحافيات والعاليات الكعب — الخلاخل واجربة الحرير — الجديد في الاعلان — عجائب المخلوقات — بياع البزور الشاعر — دُبه دُبْ دب ، اسمعي يا نويورك — الشرق الوادع القنوع — الثياب الفرنجية — « اللباس رسمي كامل » — مصيبتي في اللباس الرسمي — اقص القصص مثل شهرزاد — سكرة الرمان وكرم كسباني وافنان — دعوة للعشاء في بعقوبه — الرحلة — قطاع الطريق — السيارة والاراكيل — الخيبة ·

ان للمدينة كما للانسان روحاً حيَّةً ناطقةً ثابتةً · وبكلمة اخرى ان روح المدينة هي الصفة البارزة الممتازة من صفاتها ، تلك الصفاة التي تبدو في اكثر

مظاهر الحياة والعمل، فتسمها بوسمها الخاص . وزيادةً في الايضاح أعطيك الامثلة من بعض ما عرفت من المدن الكبرى . ان روح نويورك التبجح، فكأنها تقول : كل ما عندي هو مثل هذه الناطحات السحاب ، كل شيء ضخم عليّ عظيم ! وروح لندن الاناقة — كل ما عندي خاضع لسنةٍ اولية مثلثةٍ موحدة ، هي التدبير والترتيب والتنظيم . وروح باريس الزهو والجذل — ومن مثلي حسناً وبشراً وازدهاراً ؟ وروح برلين المهماز وخوذة الفولاذ — المانية فوق الجميع ! الا ان في المانية مدينة وادعة جميلة هي مونيخ، وان لها من الفنون روحاً سامية . وليس بين المدن الاسبانية مثل اشبيلية المركبة روحها من نقيضين ، القداسة والقمار .

اما في هذا الشرق العربي فكل مدينة من المدن الكبيرة اضحت مدينتين ، الاولى ، وهي القديمة ، ذات روح تُعرف وترى ، والثانية ، وهي الجديدة ، لا روح لها تُرى او تُعرف . او انها مزيج خاثر من الشرق والغرب . فللقاهرة مثلاً روح تتجلى في الصحافة وفي ما حول الازهر من الاحياء ، هي روح زغلول والوفد والحوقلة — البلاد وفدية ، والحكومة انكليزية ! لا حول ولا قوة الا بالله ، وروح القدس ، داخل السور ، هي الاقصى والمبكى والطور — انا اسرائيل وبلي من العرب — نحن العرب وبلنا من اسرائيل — انا بريطانية العظمى ، خيري في الويلين ! اما دمشق فروحها روح المرجة والكتلة — حركة دائمة ، ووطنية هائمة ، وتمرد لا يزول ما زالت الجنود السود تُرى في المرجة ، وترعى في مروج الوطن . واما بيروت فلا روح لها اليوم بارزة ، عَلَى ما فيها من معاهد العلم ، غير الفسق والخنوع وحب المال — هات الفلوس ، وخذ العروس ، وعفر وجهك

امام صاحب « الكابوس » .

وما هي روح بغداد ؟ لا تقسم بغداد اليوم الى قسمين ظاهرين بالمعنى الذي ذكرت . فهي لا تزال مدينة شرقية واحدة ، يتخلل بعض احيائها ، كما بينت في الفصول السالفة ، شيء من اختلاط الشرق بالغرب . انما قديمها كثير الاشكال والالوان ، فيصح ان نرمز اليه بإله من آلهة الهندوس ، روحه تبدو ولا تتوحد في رؤوسه وفي ايديه المتعدده .

اذن روح بغداد اعجوبة من الاعاجيب . فهي الحوقلة والاستسلام ، وهي الشغب والتمرد ، وهي الورع والتقوى ، وهي التخنث و « المشلجي » [1] ، وهي في هذا الزمان النفط ! وقد يصير النفط في المستقبل روحها الكيماوية العظمى ، روحها المركبة في بوتقة هذا الزمان البراق الخنّاق .

هات شتاتِ هذه الروح نعرضها للبحث ، فنتحقق طبيعتها ومنهجها . الا اننا لا نجزم في ما نؤمل من ادراكٍ واكتناه . فقد لا نوفق لغير العَرْض ، فنترك للقارىء التحقيق . اننا في كل حال لا نطمح الى التكهن . فقد سبق ان ألمحنا الى بعض صفات المدينة ، في مـا وصفنا من احيائها ، ومن شارعها الاكبر الجديد ، شارع الرشيد ، وسنزيد القارىء علماً بما هو عريق في القدم ، عميق في الجدة .

الى جانب شارع الرشيد ، بينه وبين دجلة ، شارع هادىء وادع ، جدير بالطواف والاستكشاف . هو شارع المستنصر الذي ينشأ عند رأس الجسر ، فيمتد شمالاً في خطٍ شبه قويم نحو ميل واحد ، وينتهي عند شارع المأمون ، ذلك الشارع القصير العريض الذي يرضى بقسمته من المدينة ،

---

(١) اي الغناء والرقص

فيصل شارع الرشيد بالجسر الثاني ، ويفتح قلبه للسوق المسقوف شمالاً منه الذي يدعى سوق السراي ·

اذا ما وقفت في هذا الشارع القصير العريض ترى نفسك في ظل السيادات الثلاث المادية ، اي الحكومة والتجارة والمال · امامك السراي ، ووراءك الجمرك وبيوت التجارة والشركات والبنوك · وهناك الى يمينك مهد للفن صغير هو المتحف العراقي ، وفي السوق المسقوف ، سوق السراي ، مرجة للادب خضراء صفراء ، هي الدكاكين التي تباع فيها الكتب والمجلات ·

هوذا مركز اعصاب المدينة · وانك لتجد في جواره ، فوق ما ذكرت ، — بين الجسرين — اشتاتاً من روح بغداد الدينية والاجتماعية · فان شارع المستنصر يبدأ بالقهاوي ، وينتهي بالمساجد · وبين هذه وتلك وحولها طواحين التجارة والدعارة · اجل ان بين الجسرين محط رحال قافلة الروح البغدادية ، ان بين الجسرين نيت قصيد المدينة · · ·

اظل ارعه نجومل ليل بِسْماي
ولي ناظر يهلل دمع بسماي
الج بسمه وعَيبُن يلج بسماي
أُونّ عليه ليه مي ونّ عليَّه[1]

وهذه التي ترعى نجوم الليل ، وتلهج باسم الحبيب ، وتئن عليه ، هي

(١) ومعنى ذلك : اظل ارعى نجوم الليل في السماء ، ولي ناظر يقطر دمعاً · اني الهج بذكره (باسمه) وعيب عليه ان يلهج باسمي · أئن عليه فلماذا لا يئن علي ؟

احدى مغنيات بغداد الشهيرات – واكثرهن من بنات اسرائيل – تجلس كل ليلة عَلَى عرشها في القهوة التي في الطابق الاعلى ، عَلَى زاوية شارع المستنصر – بين الرصافة والجسر – وتصيح باعلى صوتها صيحات منكرات فظيعات ·

اظل ارَعهْ نجومل ليل بسماي !

فتسمعها نجوم الليل في السماء ، فتئن منها ، ويسمعها اهل بغداد ، فيئنون معها ويتأوهون · مسكينات تلك النجوم ! كم ينقصها من العلم لتحسن تقدير هذا الغناء البغدادي القديم ·

قلت ذلك مرة ، وانا واقف على الجسر ، بينما كانت اشعة القمر ترقص على الامواج ، فسمعت صوتاً يوبخني قائلاً : وهل تظننا نرقص طرباً ? أفلا يرقص الطير مذبوحاً من الالم ? فحتى مَ التهكم منك ? والى مَ انت ماضٍ فيه ? أوَليس هذا الغناء صياح بصياح ? بل هو صياح جرّاح ونواح فضاح ! تعالَ ارقص معنا على هذه الامواج ...

عليَّ بعد هذا ان اقول ان ما اسمعتك من المغنية المشهورة هو من القديم القبيح في الغناء · ولا جديد اليوم في بغداد غير ما يجيء في الفونوغراف من سوريه ومن مصر · اذن دع الجالسة على عرشها ، بين الرصافة والجسر ،

ترعى نجومل ليل وِتونّ

وتعال ندخل هذا النزل الانكليزي الاسم ، ونجلس في البستان المشرف على دجلة ، تحت شجرة النبك الكبيرة ، المعلقة فيها انوار الكهرباء · هذه المائدة قريبة من الساحة المسحورة ، وبعيدة من جوقة الطبالين والزمارين · فاجلس

ها هنا تسمع قليلاً وترى كثيراً .

ولا تسل عن ابناء الليل هؤلاء المعجبين بهذه الشقراء النمساوية ، او بتلك السمراء الفرنسية ، او بالشقيقتين الصغيرتين ، اللتين يطويان البطن والساق طيات عجيبات ، تحملق لها العيون ، وتتضاعف الشجون .

ان هؤلاء الراقصات يُدعين باﻟ « ارتستات » وبينهن وبين الفن بيدٌ دونها بيدُ . اما المعجبون بهن فان فيهم البغدادي ذا الصدارة ، وذا العمة ، وذا العقال ، ومعهم الرفيقات والحبيبات ، العابثات بالقلوب والجيوب . وبين اولئك الهائمين والهائمات الانكليزي والفرنسي والالماني والطلياني ، وهم في النهار من اصحاب الاشغال ، وفي الليل من ابناء الوسكي والصودا او الابسنث والفرموت ، الناشدين سروراً يعيد اليهم في بلاد الهجرة ذكرى بلادهم .

وما هو بالشيء الذي يرضون به هناك هذا الذي تعرضه لنا الراقصات العاريات ، في طيات واهتزازات ، تحت الشبكات . واهاً لهن . فقد كانت الليلة من ليالي كانون ، وكان الريح ينفخ في نواعم ذلك العري ، فتزيد المسكينة في الهزيز لتبعث الحرارة في جسمها . وكنا نرى البرد ، على تلك الرجرجات والزلزلات ، يقرص ذلك الناعم منهن ، فيفضح نور الكهرباء القشعريرة فيه .

قلت وما هذا الرقص بشيء من الفن الذي يصفقون له استحساناً هناك . ولكن الاوربي الهاجر المحروم يتعزى بنظرة فيها احياء الذكرى ، وهو لا يتوقع ممن هي هاجرة محرومة مثله ان تكون من ربات الفن والشهرة في بلادها ، فتجيء بغداد تعمياً لِتنعِمَ عبقريتها . ولا هي تنتظر الاعجاب من

مواطنيها · اما من ابناء البلاد فلا ترضى بغير العبادة · كيف لا وهي ربة الفن الفذ — الفريد — القائم بالرجرجة والتجريد ·

مسكينات تلك الحمامات اللواتي يتهززن ويترجرجن تحت النبكات · مسكينات تلك الواهمات ان الفن كل الفن في هذه الرجرجات والتلزلزات · وهذا لعمري ما يحسبه البغداديون فناً جديداً ، وما هو غير الفن الرَجرَج بل هو مثل ذلك القبيح من الغناء القديم — واقبح منه ·

على ان في شارع المستنصر ، بالقرب من الجسر ، غير هذا العري الفضاح ، وذلك الصوت الصياح · ان هناك بضعة نزل انكليزية الاسم ، او انكليزية النزعة الى السكينة والخفاء ، تنعم في الليل لاصحاب الذوق الرفيع ، والستر المنيع ، فتجرَّد فيها الصيَّاحة من صياحها ، والرجراجة من ترجرجها ، فتجري الامور على هدْإ تطمئن له القيادة العامة والخاصة في عالم اللذات ·

سقياً لزمنٍ كانت الدور في هذا الشارع من اجمل ما ببغداد واشرفها مبنى ومعنى · انما بعد الحرب العظمى تحول بعضها الى نزل ، وبعضها الى مخازن ومكاتب للتجارة وللمال · بيد انه لا يزال بين الاثنين أثر لذلك الماضي الشريف ، يتمثل هنا وهناك في « حوش » (بيت) عامر بالفضل والكرم · تنبئك البوابة المفتوحة ، اذا ما وقفت فيها تشرف على الصحن اللألآء بالأجر الابيض والاحمر ، وبالقيشاني الساكن الحواشي ، الصافي الجو ، تنبئك بما كان من لطيف العيش الهادىء الامين على ضفة دجلة في الزمن الغابر ·

اما بعد الحرب فقد اسمى الانكليز هذا الشارع شارع النهر ، وفرشته

امانة العاصمة بالاسفلت ، ثم غيرت اسمه ، فصار شارع المستنصر ، وما غيرت كثيراً مما آلت اليه الحال في ظلال هذه المدنية الغربية الشرقية ، التي تقوم فيها المناقضات جنباً الى جنب ·

وهالك قرب النزل الكبير ، ذي الاسم الشهير ، دكاكين صغيرة حقيرة لقوم وصفوا بالوداعة ، وعرفوا بحسن الصناعة ، وامتازوا بالمحافظة على ماضيهم القديم ، واصلهم الكريم · فهم في دكاكينهم الزرية ، وفي كل منها النار والمنفخ والسندان ، مثال القناعة والنزاهة والنشاط ، تراهم على الدوام يدأبون ، ومن الصناعة الواحدة لا يخرجون · ان هؤلاء الصبّه — الصابئة — وصناعتهم الواحدة الفضية ، وبراعتهم فيها ، والوداعة في سلوكهم والاستقامة في تجارتهم — انهم في كل ذلك لاشرف مظهر من مظاهر الحياة في شارع المستنصر ، وانهم لمن اجمل ما رأيت من اقوام بغداد ·

وبين دكاكين الصبه بيوت التجارة والشركات الانكليزية والاوروبية ، وفيها النظام والاجتهاد ، والمطامع المستغلة لضعف العباد · ان فيها المال والسيادة والقوة ، وليس فيها شيء من الوداعة والقناعة · وليس فيها من اللطف غير المكتسب ، ابن التعمد والاجتهاد ، وهو من لوازم النجاح في المعاملات التجارية وفي المشاريع المالية والاقتصادية ·

هي ذي بعض المناقضات · ومنها كذلك المخازن والمستودعات التي كانت « احواشاً » (بيوتاً) في الماضي · فانك لترى فيها البغداديين ، على اختلاف اديانهم واجناسهم ، وكلهم واحد في القناعة والاحتراس ، وقل في التقاعد والنعاس · لا يبالون ، جاء ام لم يجيء الزبون ·

ان شارع المستنصر ، خلاف الشارع الجديد ، ساكن الطرف ،

بالرغم عما اسلفت من وصف احدى نواحيه ، وهو قليل الضوضاء ، فقلما تجد فيه غير العربة يجرها الخيل ، وبعض السيارات . وان فيه ، بما انه على النهر ، الحمامات للرجال والنساء .

وقفت امام باب مفتوح مهجور ، فغرّني حب الاستكشاف ، فنزلت الدرج ، فسمعت قهقهاتٍ انثويةٍ فعدت ادراجي ، فاذا بوَلَيْد يعدو الي ويقول : ممنوع ، ممنوع ! فقلت : ومن انت . فقال : انا الحارس - والحريم تحت في الحمام .

اما حمامات الرجال فهي كذلك تحت مستوى الشارع — وقد تكون سراديبها تحت مستوى قعر دجلة . بيد ان القسم الاعلى منها بادٍ للعيان . فالباب مفتوح ، والستر مكشوف ، والقيم والخدامون في جيئة وروحة حاملين المناشف والقباقيب .

اطللت على واحد من هذه الحمامات فاذا بغرفة الاستقبال تحت قبةٍ مستوى سطحها يعدل مستوى الشارع — قبة تحت الارض ! — وكل ما تحتها زاهي الالوان ، منعش للارواح والابدان ... طابت حِمَّتُكَ يا شوق الزينات . طابت حِمتكِ يا فتنة القلوب ...

انه ليصعب على المرء المشغوف بباهر ذلك الزمان الغابر ان يجول في هذه المدينة دون ان يستسلم الى طيف من اطياف الاساطير او التاريخ ، ويستسيغ شيئاً من الخيال الذي تتجلى فيه عرائس الانس وابطال الجن . فان في هذا الشارع الكثير المباغتات أزقة قصيرة ، هي « الدربونات » التي تفضي بك الى النهر . وقد استهوتني احداها ، فسرت بين « احواشٍ » ابوابها عريضة نخمة دكناء ، لبعضها خوخات ، ولجميعها مطارق من حديد

تنوعت اشكالها ، وجوّدت صنعتها .

ومع ان اكثر هذه الدور امست مستودعات للخشب الذي تجلبه بغداد من الموصل ومن الهند فما زال الانس فيهـا يكنسون ، والجن يزمزمون . خصوصاً عند الشاطئ بين الدارين المشرفتين على النهر . وقفت هناك اتأمل تلك الرواشن القائمة بعضها فوق بعض ، وما كان وما يكون من باطن امرها . هي الحياة في حقائقهـا الرائعة المروّعة ، وفي احلامها الباهرة المبهجة . هي الحياة في الامس ، وهي الحياة اليوم وغداً . احوال تحول ، وآمال لاتزول . قلوب تذوب ، واشواق تذهب وتأوب .

ان هذه الاحواش اسلامية البناء او بالحري عربية . فقد رأيت في جدة وفي الحديدة مثل هذه الرواشن ، ومثل هذا الاضطراد في هندستها . انما هي تمتاز في بغداد بما يجاورها ويهيمن تحتها

لقد شغفتني الدار القائمة على عدوة دجلة . شغفتني حباً لانهـا في آخر الزّقاق فلا تتقيد بكل مافيه من مضايق وظلمات ، ولانهـا على طريق النهر فيستطيع من فيها الفرار ، في ضوء القمر او في نور الشمس ، دون ان يراهم الحارس او الشرطي او احد من الجيران ، ولانها كثيرة الرواشن فترحب في الاقل بالهواء وبالنور ، ولانها مقفلة الابواب والنوافذ ، ساكنة مستسرّة ، كانها قصر لبنات الجان ، او مركز لارباب الجن .

وهي رحبة ذات ثلاث طبقات ، الثانية منها تبرز فوق الاولى برواشنها الممتدة على طول البناء . وللثالثة رواشن فوق الروشن الثاني ، وكلهـا من الخشب الهندي النادر جودةً وصنعاً . وهناك من الحواجز للشبابيك ما يبعث على الظن ان اهل الدار الاولين كانوا متشائمين بالحياة ، متحذرين من

بوادرها ، ومن اغارات بدوها ، فهذا الزجاج ، وهـذه شعريات الخشب ، وهذه قضبان الحديد — حواجز ثلاثة لا يخترقها غير الجن

فليطمئن بال الخاتون ، ولتطمئن الحوريات المكنونات : ان ها هنا الامن والسلام — والسجن ! وان شئت التنزه يا سيدتي ، كان لك ذلك في الروشن المعلّق فوق دجلة ، تجلسين هناك ، وتسرحـين النظر في ما تحتك ، فترين الاسماك ترقص في المياه الجارية . واذا اخذتكن نزعة الحرية ايتهـا الحسان ، وشئتن الفرار من سجنكن في الليلة المقمرة ، فالزورق عند الدرج والنوتي حاضر مطيع . وان جرى هذا الزورق من هذا المكان في الرصافة جرياً قوياً كان مرساه في الكرخ عند درج آخر ، اسفله في الماء ، واعلاه امام بوابة السفارة البريطانية . . .

وهذه سيارة برّاقة خضراء تملأ الحي بصوت بوقها ، فتقف امام بوابة في وسط الجادة ، فتنزل الخاتون ذات العباءة السوداء والقناع ، وتختفي قبل ان يقفل السائق البـاب — تعود الى سجنها المحبوب . ويعود السائق الى مكانه وراء الدولاب ، فيسوق متقهقراً الى شارع المستنصر .

هوذا القديم والجديد في الجادة الواحدة . وسيمسي هذا الجديد قديماً وسيزول ذلك القديم . وقد يتداعى الدرج فتذهب حجارته في النهر ، وتسقط الرواشن فتحملها الامواج ، ويظـل النهر يجري جريه الابدي الى البحر . صورة من الجديد واخرى من القديم ، تنعمان ثم تفنيان امام دجلة الخالدة .

وان في شارع المستنصر الى جانب القديم جديداً من غير الغرب . ان فيه يُجدَّد صرحاً للشرع الشريف . فهاكم جامع الحكمة ، وليس فيـه ما يستوقف البصر غير المأذنة الخضراء الصفراء البيضاء . بل فيه ما يستغرب

مما لا يلتئم وجمال المأذنة ، وما يستنكر في مكانه · فيه صحن خالٍ خاوٍ ، ومصطبة للصلاة مفروشة بحصير — ومرحاض تراه وانت واقف في الباب · قديم جد قديم !

بيد ان الارض قبالة الجامع تنبىء بالخير الحديث · هي وقف احدى الخواتين — زاد الله سجونهن نوراً وحبوراً — على ما فيه اقامة الحق وازهاق الباطل · فقد كانت المحكمة الشرعية القديمة في هذا المكان ، فهُدمت لتقام ، بين ما تبقى من بواسق النخيل ووارفات النبك ، المحكمة الجديدة · وهذه الاتن البيضاء عشرات منها تحمل التراب من امكنة الحفر ، وتعود اليها باحمال من الأجر · والبناؤون شارعون بالبناء · صرح منيف ، للشرع الحنيف ·

وغداً يجلس قضاة الشرع في دارهم الجديدة ، فيسمعون وهم يقضون صوت المؤذن يتموج خلال النبك والنخيل ، فيذكرهم كل يوم بوجوب اقامة الحق وازهاق الباطل · ان ذلك في الاحكام لمن القديم الذي يبقى جديداً بل هو مثل نور الشمس جديد كل يوم ، ولا خوف عليه من عَدْو الزمان ·

* * *

هـا نحن في التطواف شمالاً ندنو من آخر الشارع الذي عرضت لك بعض مافيه ، صوراً متحركة ، فلا تستبلدها · وقد فاتني ان اعلمك ان امانة العاصمة اطلقت اسم المستنصر عليه ، تذكاراً للمدرسة المستنصرية التي كانت في جواره مكان الجمرك اليوم · وسنجيء على ذكرها في استعراضنا ما تبقى من آثار بغداد القديمة في الفصل التالي ·



اكراد

قهوة تحت النخيل

بغداديون بالجراوية والعقال

بيد ان جزءاً من الماضي هو امامنا في قيافات الناس واشكالها والوانها ، فضلاً عما يبدو منه في الوجوه ويخفق في الصدور وفي العقول . ان هـذا المـاضي مقيم في يومنا كما في امسه . هو على ما يظهر صنو الزمان . بل هو الاثر الحي القديم الجديد ببغداد ، تسوقه اليك الليالي في اشكاله المتموجة تموُّجَ دجلة ، تموُّجاً بطيئاً هادئاً ، وفي الوانه التي تذكر في مجموعها بذنب الطاووس .

وللجماعات في بغداد صفة تختلف في اختلاف المكان . فهي ساكنة في الكرخ ، مسرعة على الجسر ، مصطخبة في شارع الرشيد . فلا تستطيع مراقبتها ، وتمييز صفاتها الظاهرة والباطنة ، الا اذا كانت في غير هذه الحالات الثلاث ، الا اذا كانت متمهلة في سيرها ، جامعة في قيافاتها .

وانك لتشاهدها في هذه الحال في مكان واحد هو شارع الجسر الشمالي عند مدخل شارع السراي . قف هناك هنيهةً ترَ معرضاً من الناس عجيباً . او اجلس في دكان احد التجار . بشارع السراي الظليل ، وراقب الموكب المستمر في سيره . فتنطبع في ذهنك شتى الصور ، وتدرك اذا استعنت بالتسآل معناها ومغزاها .

تعالَ نستعرض قيافات البغداديين ، وهي اليوم في مجملها كما كانت على ما اظن في زمن الرشيد والمأمون . سنبدأ بالرأس ، او بما يزينه من عمارة ، في شكل عمة او عقال او صدارة . قد تظن ان العمة عمة ، والعقال عقال في كل حال . وهذا خطأ . فان لاشكالها والوانها وكيفية لبسها معانٍ ومغازٍ تخفى عَلَى السائح العربي ، فضلاً عن الاوروبي .

واول ما يستوقف البصر من العُقُل العقال الصوف الضخم الطية ، البني

او الاسود اللون · هو عقال اهل البصرة والزبير ، ويندر ان يلبسه في بغداد غير الشيوخ المسنين · يلبسونه فوق غطرة (كوفية) زرقاء او حمراء · ولا فارق بين اللونين كما في البصرة والزبير حيث النجدي او الزبيري يمتاز بغطرته الحمراء عن البصراوي ذي الغطرة الزرقاء · ولهذا العقال في بغداد صفات اخرى · فان كان ذا لفتين سمي « ظيتين » وذا ثلاث او اربع طيات عرف باللَّفْ · اما العقال الاسود البسيط فيدعى قحطاني نسبة الى قحطان ·

ولا عقال بلا غطرة اي كوفية · وللغطرة ما للعقال من المعاني والاشكال · فالزرقاء التي تدعى « يَشْماق » تُلبس في شكل عمةٍ ملفوفةٍ لفتين او ثلاث لفات ، ومشدودة على الرأس في انحراف الى الامام او الى الوراء ، وفقاً لمزاج صاحبها · فالذين يرفعونها فوق الجبين هم « القبضايات » او الفتيان المشهورون في العراق بالشقاوة · فهم المثيرون « للعركات » ، الضاربون القاتلون ، في سبيل « الشرف » ومن اجل من شاء ممن له ثأر ، وعنده بدل الشجاعة المال ·

وبما ان لهؤلاء « الفتيان » شهرة محلية تُذكر بشيء من الاعجاب فالمتهافتون على المهنة والمتطفلون كثيرون ، وليس في القانون ما يمنعهم من ان يلفوا الغطرة لفتين او ثلاث لفات ، ويرفعوها فوق الجبين عاليه · فلا يغرنّك اذن كل من لفها ثلاث لفات ، ولا تخشى جانب كل من رفعها فوق الجبين !

وان شئت الزيادة من هذا العلم زدناك · فاعلم ان الغطرة كيفما وضعت على الرأس بدل العقال تُسمى جرّاويّه · اما اذا لفها صاحبها على

الرأس وحول الوجه ، اي تلثم بها ، فتدعى اذ ذاك يَشْمَقين · واكثر من يلبسونها ملفوفة لفةً واحدة بتأدب واتضاع هم من اصحاب الصناعات ·

اما العمم فلاشكالها ، مثل الغطرات والعقل ، معان واشارات قد تخفى على غير العراقيين · فالشاب المتدين ، اذا كان طالب علم ، يلفها رقيقة فوق الطربوش · والتاجر او الوجيه الشيعي يحملها كذلك فوق الطربوش انما من الحرير المقصب ، فتُسمَّى اذ ذاك كَشِيْدَه · وهناك الخضراء للشريف كما في سوريه ومصر ، والسوداء للسيد ، والبيضاء للعلماء ·

ننتقل من الرأس الى ما دونه واظهره العباءة · فهي سوداء مطرزة بالاسود او بالفضة او بالذهب ، وهي بيضاء صيفية ، وهي من اللون البني انواع · فالعبي السوداء المفضضة والمذهبة تصنع في بغداد من قماش اوروبي ، والباقي يصنع في بلاد ايران وفي الحسا · فالعباءة الحسوية ، التي هي من الوبر ، يلبسها مشائخ العشائر خصوصاً في كربلا والنجف · والعباءة الايرانية التي هي من الصوف البني اللون على نوعين ، الكوبائي والنائيني ، يلبسها التاجر والعالم وغيرهما ·

اما ما تحت العباءة فهو كذلك من الملابس العربية الشائعة ، فلا تميز البغدادي عن السوري ، الذي لا يزال يلبس الانباز ، من قطن او حرير ، ويتمنطق بمنطقة من نوعه ، او انه يلبس الدشداشة(جلباب)ويشدها بحزام من جلد او قماش · اضف الى ما تقدم ذكره القيافة الفرنجية بالصدارة الفيصلية ، وهي قلما ترى في غير المدن · تلك هي الاوليات في علم القيافة العراقي ، احفظها اذا شئت ان تحسن التمييز بين ابناء التقوى وابناء الشقاوة في بغداد ·

واذا ما وقفت في شارع السراي تشاهد الموكب باجمعه وفيه من كل

طبقات الناس · فالشاب في الامباز والعباءة السوداء المفضضة ، والعقال الاسود ، والغطرة الزرقاء ، الحامل في رجله حذاءً اسود او اصفر ، هو من الفتيان الذين لم يمعنوا بعد في الحرفة ، فما اشتهروا بخيرهم ولا بشرهم · ان قيافتهم تخبر بانحراف فيهم الى الشقاوة · وقد تحول الايام دون تحقيق رغباتهم الفتوية ، فيبقى ذكرهم مضمخاً ومنعماً بالخمول · مثل هذا الرجل في الغطرة الزرقاء والعقال البني والعباءة والامباز · فهو من الطبقة الوسطى التي لا تعرف من خمول الذكر غير القطن والصوف · واذا لبس احد رجالها السرماية او ما يسمونه اليمني ، فهو من كعب الطبقة · اما اذا لبس الساكو الفرنجية بين الامباز والعباءة والحذاء الفرنجي فهو من رأس تلك الطبقة — من وجهائها · · · اتق الله يا حمّار ، يا ، يا ابالجُرّاويّة · فانك تحشر حمارك بين عالم معمم ، وسياسي « مصدّر » ·

وهذا وراء الثلاثة بغدادي في دشداشة وساكو عسكرية ، هي من لون العصفر « كاكيه » ، وهو من الركبة الى الاخمصين كما جاء الدنيا الدنية ·

وهذا الممنطق بالمنطقة الحمراء ، فوق الامباز الابيض ، الحامل كرشاً تحتهما عامراً ، الملفوفة غظرته فوق كوفية صفراء ، المزدانة رجلاه بيمانية حمراء ، هو من اولئك البغداديين الحائلين — من عشيرة « ابو حمد » (اي القبضاي) — الذين يصيحون بوجه المعتدي عليهم : انا بغدادي مو عجمي — فك عينك زين !

وفي الموكب ترى الحمالين ، في دشداشة وجرّاوية ، يحملون الاكياس والصناديق ، والاشجار للغرس ، والخشب والحديد · وهم يزاحمون الافندي اللابس الصدارة ، والعالم ذا العمة البيضاء ، والفقيه والسياسي

— نحن بالقرب من السراي والمحاكم العدلية — ومَن في الموكب من النساء ٠
النساء ، وليس فيهن شجرة الدر ، او فتنة القلوب ٠ وهذه اليهودية او المسيحية تلبس العباءة كالمسلمة ولا تلبس الحجاب ، مع ان الوجه منها احق بالتقليد مما حجبت من جسمها ٠ وهذه مسلمة في ثوب افرنجي قصير ، وجوارب من حرير ، وحذاء يرفعها قبضةً فوق الارض التي تشرفها بمشيتها المتكسرة ٠ وهذه منهن اقرب شيء الى الفتنة ٠ بنت سافرة في عباءة سوداء ، من تحتها فوق الجبين غرة من شعرها الذهبي ، ووجهها بين طرفي العباءة كالبدر بين غيمتين سوداوين ، فنصع البياض فيه ، واشتد تورد الخدين ٠

ومن النساء من يخرجن الي السوق بالمشاية ، ومن المشايات ما ترفع صاحبتها بضعة اصابع عن الارض ، ومنها المسحاء وتلك التي لا يظهر منها في الرجل غير رأسها ٠ ومن النساء من يلبسن الحذاء الفرنجي ، وجوارب الحرير ، ويسدلن من رأس العباءة الحجاب ، فلا ترى من محاسنهن غير الارساغ (هل تصح الاستعارة ولا تُذِل ؟) اللهم اذا كانت دقيقة انيقة ٠ ومنهن من يلبسن جوارب الحرير فوق الخلاخل الضخمة ، فتظن ان في الساق ورماً ، او جرحاً مضمداً ، ويخفين تحت العباءة السوداء دراعات (فساتين) من الحرير تنم الاطراف عن الوانها الزاهية ٠ فهل تصدق الظواهر فيهن ام البواطن ؟ وقد يكون في القلوب شيء من فضة الخلخال الخفي ، وقد يكون فيها القيود الفضية !

ومن النساء في هذا الموكب المتحرك على الدوام الحمالات والمعولات — حمالات اللبن ، وحمالات الحطب ، واللاتي يحملن اطفالهن على اكتافهن ٠

وجوه صفراءُ فوق وجوه سمراء · ارجل نحيلة على صدور عليلة · بيد ان هذهَ الصغيرة الوردية الوجه ، الضامة يديها على رأس امها ، وتلك الام الحافية ذات القد الرُدَيني ، تعيدان اليك ما ذهب من امل وتشعلان ما انطفأ في موقد الحياة ·

ان ها هنا ايضاً ما يباغتك في املك ، وينفخ في رماد موقدك · هاك زمرة من الصبيان في اطمار فرنجية ، واسمال بغدادية ، يحمل احدهم طبلاً ، وآخر لوحة ، ويتقدمهم ابو اللفتين ، رافع اليد ، جاحظ العين · فيدق حامل الطبل طبله ، ويرفع حامل اللوحة لوحته ، ثم يرفع الخطيب ابو اللفتين عقيرته : هيوا على السينما الملكي ، وشاهدوا اعجب الصور ، واغرب المخلوقات · ثعلب يقتل اسداً · خروف يأكل ذئباً · طفل ذو قرنين ، وآخر ذو رأسين ··· عجائب المخلوقات — هذا المساء — في السينما الملكي · هبوا على السينما الملكي : دُبه دُبْ دُبْ · دُبه دُبْ دُبْ !

من الناس من وقفوا ليسمعوا ويتعجبوا · ومنهم من قالوا : عجيب ، وهم ماشون · ومنهم رجل يبيع بزر بطيخ مملح ، كان واقفاً عند مدخل السوق ، وراءَ فرشه ، وهو يسمع ويهز برأسه · هذا الرجل لا يؤمن بما قاله الخطيب ، واذ رآني انظر اليه قال :

« كل من في الحياة يطلب صيداً غير ان الاشراك مختلفاتِ »

دُبه دُبْ دُبْ ! اسمعي يا نويورك · هل عندكِ مِن باعة فستق العبيد مَن ينطق بالشعر ? دُبه دُبْ دُبْ ! اسمعي يا لندن ، اسمعي يا باريس · هل عندكما مِن باعة السمك او الضفادع مَن يحسن النطق بالحكمة شعراً ?

هوذا الشرق المهذب الوادع القنوع . ان هذا البغدادي لأكبر واشرف من كل من ينصبون الاشراك للناس . انه لمن الماضي القديم الجميل، وانه من هذا الجيل، وهو مع ذلك يرضى بالقليل، ويرى بعينه الثاقبة الظاهر والخفي من الاحابيل .

* * *

ليس في القيافات البغدادية التي عرضناها لك قيافة واحدة جامعة تميز البغدادي عن سواه من اهل العراق، او العراقيّ عن سواه من العرب، الا اذا استثنينا الصدارة والجرّاويّه، ملبوس اقليتين من الاهالي الافندية والفتيان . اما الاكثرية فان هي الا اشتات من الناس، تعلن صفاتها وجنسياتها، ومذاهبها المختلفة، في اشتات من القيافات .

على ان الاقلية العصرية في الملابس الفرنجية تزداد يوماً فيوماً . وكما انك شاهدت السيارة البراقة في الدربونة المعتمة ، فانك تشاهد في المآدب وفي الحفلات الرسمية ما يدهشك لاول وهلة . واذا كنت من السياح المعروفين في دوائر العاصمة العالية، الاجتماعية والسياسية، وكنت تظن ان بغداد مدينة عربية او صحراويـة، لباسُ اهلها قميصٌ وعباءة، فلا تعجب ولا تجزع عندما تجيئك رقعة مكتوبـة على الآلة الكاتبة، او مطبوعة بماء الذهب، تتضمن دعوة لمأدبة او حفلة، وفيها، في الزاويـة اليسرى السفلى : اللباس رسمي . او اذا كانت من البلاط : اللباس رسمي كامل !

اني لا ازال اذكر يوم تشرفت للمرة الاولى بمثل هذه الدعوة . ولا

بأس ، ما زلنا في موضوع الثياب ، ان اقص قصتي واشرح محنتي . يوم كنت مقيما وصديقي العزيزين ، امين بك كسباني سكرتير الملك فيصل في تلك الايام ، وحسين بك افنان سكرتير مجلس النظار ، في بيتٍ واحد ، جاءتني دعوة من البلاط الملكي ، وفيها اللباس رسمي كامل .

ان معنى ذلك للضباط والموظفين ان يلبسوا اثوابهم الرسمية ، العسكرية او المدنية ، ويزينوا صدورهم بما يحملون من الأوسمة . ومعناه لمثلي ثوب فرنجي اسود ذو ذنب كذنب الحسون . واَحرَّ قلبي . اين لي بثوب نصف رسمي ، فضلاً عن الكامل ذي الذنب الطويل ، وانا قادم ، ايها النجيب ، من رحلة طويلة في البلاد العربية ، ولم اتعود ان احمل ، مثل الانكليز ، حتى في البادية ، جهاز العرس والعيد . فقد كان بيني وبين الثوب الرسمي ثلاثة — اربعة — خمسة بحور ، عدا البوادي والجبال . هنالك في نويورك تركت كل ما لا يُسعد المرءَ في رحلةٍ عربية ، وما ادركت خطأي الا في بغداد ، عندما وصلتني رقعة الدعوة لمأدبة الملك .

واين في بغداد الثوب الرسمي احرزه بيومٍ واحدٍ ، بساعةٍ واحدة ؟ ان عاصمة العراق لا تزال ، في التمدن الحديث ، دون تلك المنزلة التي ينعم باسبابها اولئك الذين يستأجرون اثوابهم الرسمية لليلة من ليالي الدهر ، او انهم يرهنون ساعاتهم عند صاحب الدكان السعيد ، ابي الثلاث طابات المذهبة[1] ليبتاعوا ثوباً مخيطاً جاهزاً من صاحب المخزن الآخر ابنِ عم ابي

(١) الثلاث طابات المذهبة ، فوق باب الدكان بلندن او نويورك ، هي شعار من يتعاطون الرهن والدين هناك ، واكثرهم من اليهود ، كما ان منهم اكثر مَن يتاجرون بالثياب الجاهزة البخسة الاثمان

الطابات المذكورة

ولم نكن في بغداد الرشيد ، بغداد السحر والجن، فافرك خاتم اللبيك، فيقول عبدُهُ : بين يديك ، ويجيئني في الحال بثوب رسمي كامل ، يدهش بقماشه وخياطتة حتى خياط الملك بلندن . ومع اني كنت اسكن في محلة الشيخ ، بجوار مولانا عبد القادر الجيلاني ، قدس الله سره ، وانا من الطامعين باليسير من بركته، لما ينور في روضتي الحين بعد الحين من زهيرات التصوف ، فما حقق رجائي بزيارةٍ تستكشف حاجتي ، فيقضيها كما كان يقضي حاجات المقربين منه في قديم الزمان . ما جاءني يقول : ما همك ، يا امين ؟ فاجيب : ثوب فرنجي رسمي يا مولانا . فيهديني اليه ، او يقول : هاكه ، فاراه بين يدي اذ ينطق بالكلمة المسعدة . لا ، وربك ، ما كان شيء من هذا .

بيد ان املي ما خاب . فان احد رفيقي يمت بالنسب الى مولانا عبد القادر ، لانه مثله سيد ابن سيد من سلالة الحسين ابن بنت الرسول ، عليه السلام ، والآخر هو من لبنان ، من تلك البلدة التي انجبت صروف والشميل واليازجي وغيرهم من العلماء . ولكن علم الكسياني امين لم ينفعني في تلك المحنة ، ولا نفعتني ظاهراً سلالة السيد حسين افنان .

انما الامل ، كما قلت ، ما خاب . واليك البيان . فقد كنا نحن الثلاثة الفرسان ، على ما كان من اضطراب الاحوال ، نظفر بسويعة واحدة في النهار ، بل في الليل ، نحسبها دهراً من النعيم . وفي تلك الساعة كان ينقسم الكون الى قسمين — العالَم ، وانا وخليلَي . فيظل العالم خارجاً بعيداً ، ونمسي نحن الثلاثة في حصن حصين ، بل في واحة من السحر الحلال . ولم يكن

لمولانا عبد القادر يد في هذا السحر او كلمة . لا ، وربك . انما كان كله من بعقوبة ، من فضل رمانها .

تراني انتقل من قصة الى قصة ، ولا ابالي بما يُقطع او يوَصل منها ، مثل شهرزاد . كنا في الثوب الرسمي ، فصرنا في بعقوبة . ايه بعقوبة جنة العراق . ان فيك يتراجع على الدوام صدى اغاريد الشعراء والاطيار ، وهم يتغنون بجمال بساتينك ، وطيب ثمارك — بعنبك وهو كالبلور والياقوت ، بتمرك وهو كالعسل من قبلات الشمس ، ببرتقالك الذهبي ، بخوخك الذي تخجل الوانه الزمرد والماس الاصفر والارجوان .

ولكن اميرة بساتينك هي التي استعارها الشعراء ليزيدوا جمال ما في صدر الحسان . هي ذات الفم المدور المهيأ دائمًا للقبلات . هي التي تخبئ في صدرها كنوزاً من لؤلؤ الحب وياقوته ، هي أم النهود ، وخالة ورد الخدود — هي الرمانة .

وقد كنا نجلس نحن الثلاثة حول طبق من الرمان ، من العشر الى العشرين ، في ساعةٍ من الليل تغبطنا عليها الملائكة والجن ، ولا ننهض للنوم حتى نكون قد جردنا الاخيرة من ثوبها المصبوغ بذوب الياقوت الاصفر ، وظفرنا بكنوزها كلها . وكذلك كل ليلة ، قبل ان نصعد الى الاسرّة على السطح تحت ستر النجوم ، كنا نجلس الى مليكة قلبنا ، ونتبارى نحن الثلاثة في حبها . وكان الكسباني السابق في اكثر الاحيان ، يعض الخمسة ويتلهمها ، الواحدة تلو الاخرى ، قبل ان يكون قد فرغ افنان من الرابعة . وكنت انا الاخير دائمًا ، الاخير الا باللذة الهادئة المتأملة . فاذا كنت ، ايها القارئ الفهيم ، محبًا للرمانة مثلنا ، فاني انصح لك ان تجلس اليها في ساعة المساء

الاخـيرة ، قبل ان تولي وجهك شطر السرير ، فينعم بعد ذلك نومك ، وتنور احلامك .

عفواً ، قارئي : ما بعدت عن المحنة التي كنت فيها الا لاخبرك كيف قدر الله كشفها في حلمٍ من احلام الزمـان . فقد جاءني الكسباني امين في صباح اليوم المعدّ للمأدبة ، وهو يحمل ثوبه الرسمي ويقول : أُمرت بان اقدمه لك . ثم جاءني السيد افنان بثوبه ، وهو يظن ان من زاره ليلاً ، وامره بان يكشف محنتي ، هو نسيبه الجليل الذكر مولانا عبد القادر .

اما ثوب افنان فقد كان الجسم مرتاحاً فيه اكثر مما يلزم — كان واسعاً علي ، فضاحاً لامري . واما ثوب الكسباني فقـد احسست اني فيه مرزوم رزماً محكماً ، فيخيل للناظرين انه صُنع لي في عهد الشباب . فاخترت من الفضيحتين اصغرها ، واحبها ذكراً الي . وبما ان خليليَّ كانا من المدعوين مثلي فقد تعاهدا صباح ذاك اليوم على ان صاحب الثوب الذي اختاره يحرم نفسه اطايب المأدبة وخمورها . فطأطأ الكسباني رأسه للقدر ، وأُصيب ، وفقاً للعهد ، بصداع شديد يحرمه شرف الحضور ، فأبلغ خبره بالهاتف ، فقبل رئيس التشريفات العذر ، وغفر الذنبين ، ذنبه وذنبي انا — بعد ان رآني في ثوبه !

كن حكيماً اذن ، ولا تنسى اذا ما زرت بغداد ثوبك الرسمي الكامل . فقد لا تتوفق الى رفيقين مثل الكسباني وافنان ، وقد لا يكونان ، اذا توفقت ، ممن يسكرون بالرمان ، ويحلمون بعد ذلك الاحلام التي يتجلى فيها اولو الكرامات من الاولياء .

* * *

اما وقد ذكرت الرمان وبعقوبه — والحديث ذو شجون كما يقال — فاني خاتم هذا الفصل بما لا يخرج عن موضوع التجوال ، وان كان خارج المدينة . فمن شارع المستنصر نذهب بك الان الى بعقوبة . وسنسمعك هناك ،في دار صديقنا الابر فخر الدين بك آل جميل، ما ينسيك ما اسمعناك من صياح تلك التي ترعى على الدوام نجوم الليل «وِ تونٍ » . فقد دعانا للعشاء ، ووعدنا ، وهو الجميل المحب للجمال ، بشيء من محاسن الفن صوتاً وشكلاً . « وأبشروا بالجنة التي كنتم تُوعَدون » .

خرجنا من بغداد ، والشمس وراءنا تدنو من الغروب ، والافق امامنا خطٌ من ذوب قلبها اصفرُ رقيق ، يفصل بين سماء جامدة في زرقتها ، وارض هامدة غبراء . وهذا السهل السوي الفسيح الفارغ هو درب في كل مكان ، وهو للسيارة ميدان . لا زرع فيه ولا كلاء ، غير بقاعٍ هنا وهناك اخضرها مائل الى الاصفرار ، واصفرها كالغبار . وهذا قطيع من الغنم يعلل النفس بها . وهاك آخر يجتز ما لصق منها بين الحصى والتراب .

لا شيء جميل حتى في القوافل التي مررنا بها ، وهي سائرة الى بلاد فارس او قادمة منها . ولا رفيق لنا في الطريق غير الغبار والشمس . ارض بلقع يملّها الحادي ، ويقنط منها حتى القطا ، ولا يتحمل مشقتها مشياً غير الحاج العجمي الذي يجيء زائراً النجف . بل هو يجتازها فرحاً ، لانها مُدنيةٌ لبغداد ، ولان بغداد تُدني اليه مشهدَي علي والحسين .

وها قد هجرتنا الشمس ، ولا رفيق لنا غير الغبار . ولكننا بعد قليل وصلنا الى خان بني سعد ، في منتصف الطريق بين بغداد وجسر ديالى ، فاوقفنا شرطي المخفر هناك ، ورحب بنا قائلاً : « لا سفر بعد الغروب .

قانون جديد . فاما ان تباتوا هنا ، واما ان ترجعوا » . وقد اكد لنا ان الطريق غير آمن ، وان اللصوص لا يخشون مخفراً فيه شرطيان لا غير . فافهمناه اننا مجازفون ، وان الاخطار لذة الاسفار . ثم اعطيناه اسماءنا — العفو — نحن السيد حسين بك افنان سكرتير مجلس النظار . فسلم ثانياً وقال : « بامان الله » . وقد كان افنان يحمل بندقية للصيد ، والسائق سكيناً ، ابرزها ليزيدني اطمئناناً .

عاد يرافقنا اثنان — الغبار والقمر . وكنا نرتاح الى ثالث هو صوت السيارة . ثم مررنا بجماعة من الناس ، وهم مثلنا متخوفون ، متوقعون القدر واللصوص . فبادرونا بالسلام بصوت عالٍ ، كانهم يستنجدون بنا ، ولوحوا بالاردان . فرددنا السلام بصوت اعلى ، وطمأنهم السائق قائلاً : « اللصوص امامكم » .

وها قد دنونا من العمران . هوذا جسر ديالى ومخفره ، وهوذا عدو اللصوص يسلم علينا ، ثم جابي رسم المرور يلوح لنا بقنديله الاخضر . دفعنا الرسم وسمعناه يشكر ويدعو لنا بالسلامة .

بعد ان عبرنا الجسر سرنا في جادة ضيقة ، مضيئة بانوار ضئيلة من الغاز ، أدت بنا الى السوق ، سوق بعقوبة المسقوف ، الحافل بالقهاوي ، وقد اكتظت بالناس . وكان السائق فرحاً فخوراً ببراعته ، وسرعة سيره كانه لا يزال في الفلاة . وكنا نحن بشجاعته معجبين ، وبجنونه راضين . وليس في السوق شرطي يعيده الى رشده ، ويذكرنا باننا في قلب بعقوبة ، لا في البادية .

وما بعقوبة ، وما قلب بعقوبة ، بلا رمانها ؟ كنت اتوقع ان نصطدم

بطبق من الرمان ، بدل كرسي وخوان. زمر يا رجل ، زمر. ما جئنا بعقوبة غازين ، ولا نحن من المحتلين . هؤلاء السمّار اخواننا ، ولهذه الاراكيل حق في السوق مثلنا . فقال السائق : « اذا زمرنا يا بك يجي البوليس » .

وما كاد يفصح عن خوفه حتى بدا امامنا الشرطي ، والعين منه جاحظة ، واليد مرفوعة آمره . — ممنوع السير ، ممنوعة السيارات . — وكيف يمكننا ان ندور لنرجع ادراجنا ، الا اذا دخلت السيارة احدى القهاوي ؟ كلم السائق الشرطي ملاطفاً ، مجاملاً ، وصلى على النبي . فصلى الشرطي كذلك على النبي ، وما لان . فهمس السائق اذ ذاك قائلاً : السيد حسين بك افنان سكرتير الخ ، فحوقل الشرطي ، واشار بيده أن سيروا بامان الله .

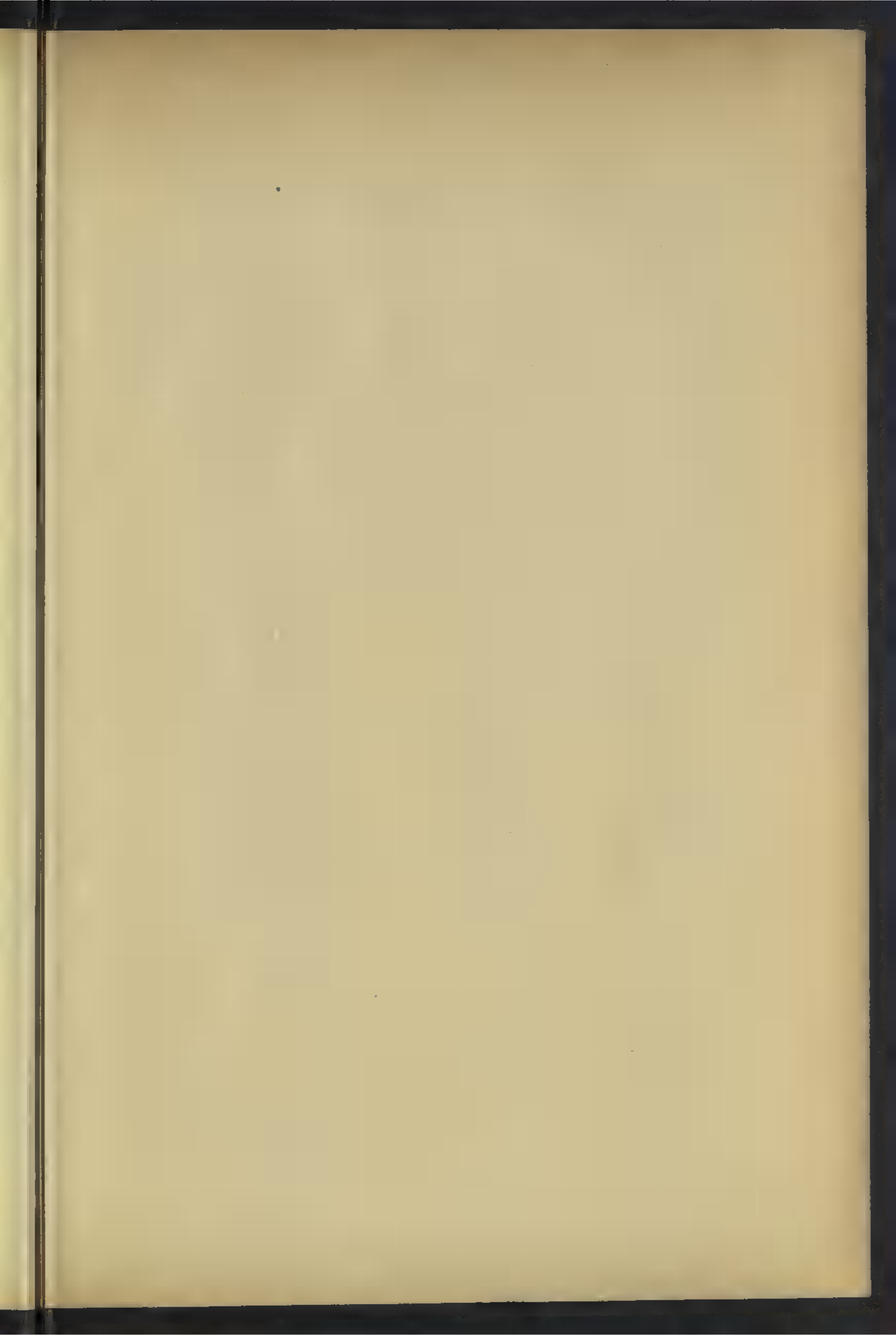
وكان السوق يزيد ضيقاً ويقل نوراً . وكنا نسمع الناس يستعيذون بالله ، ويصلون على رسوله ، ويحوقلون . وكنا نراهم يقفون واثبين ، والاراكيل او الكراسي بايديهم فيلصقون بالجدران ، او يدخلون الخان او الدكان ، لنسير نحن بامان . يا للفضيحة ويا للعار ! ان جملاً هائجاً في قهوة ، او ثوراً ثائراً في مطعم ، لأقل فظاعة منا في سوق بعقوبة . ولكننا نحن والسوق ومن فيه خرجنا من الغمرة سالمين كلنا والحمد لله . وما كان من ذنبنا الا اننا روعنا البعاقبة ، وكدرنا جو سوقهم ساعة السمر .

وكدنا ، ونحن متأخرون في الموعد ، نكدر عيش مضيفنا ، الذي كان في انتظار ضاقت دونه فسحة الصبر والامل . فبادرنا ، بعد السلام ، الى المائدة ، وهو يقول : « خفنا عليكم والله ، من قطاع الطريق » .

وما كانت المائدة ، بزينتها والوانها وخمرها ، بعقوبية او بغدادية . مائدة لا شرقية ولا غربية ، بل جامعة بين محاسن القارتين . وكنت انا في

سروري الوارف ، اتشوف الى السرور الاورف في ظلاله ونضارته · كنت اتخيل ما سيتبع الوليمة ، وانا احسب نفسي ، بعد ما ذقت من غم المآدب الرسمية ، مستحقاً كل ما تجيء به اريحية الصديق الجميل · ولكنى ما رأيت في الايوان ، ولا في من بدوا وتواروا هنا وهناك في الدار ، ما يبرر الخيال والامل · لا وجه من وجوه الحسان ، ولا طيف لقين من القيان · لا ، ولا سمعت همس راقصة وراء الستار ، ولا خشخشة فستان او ازار ·

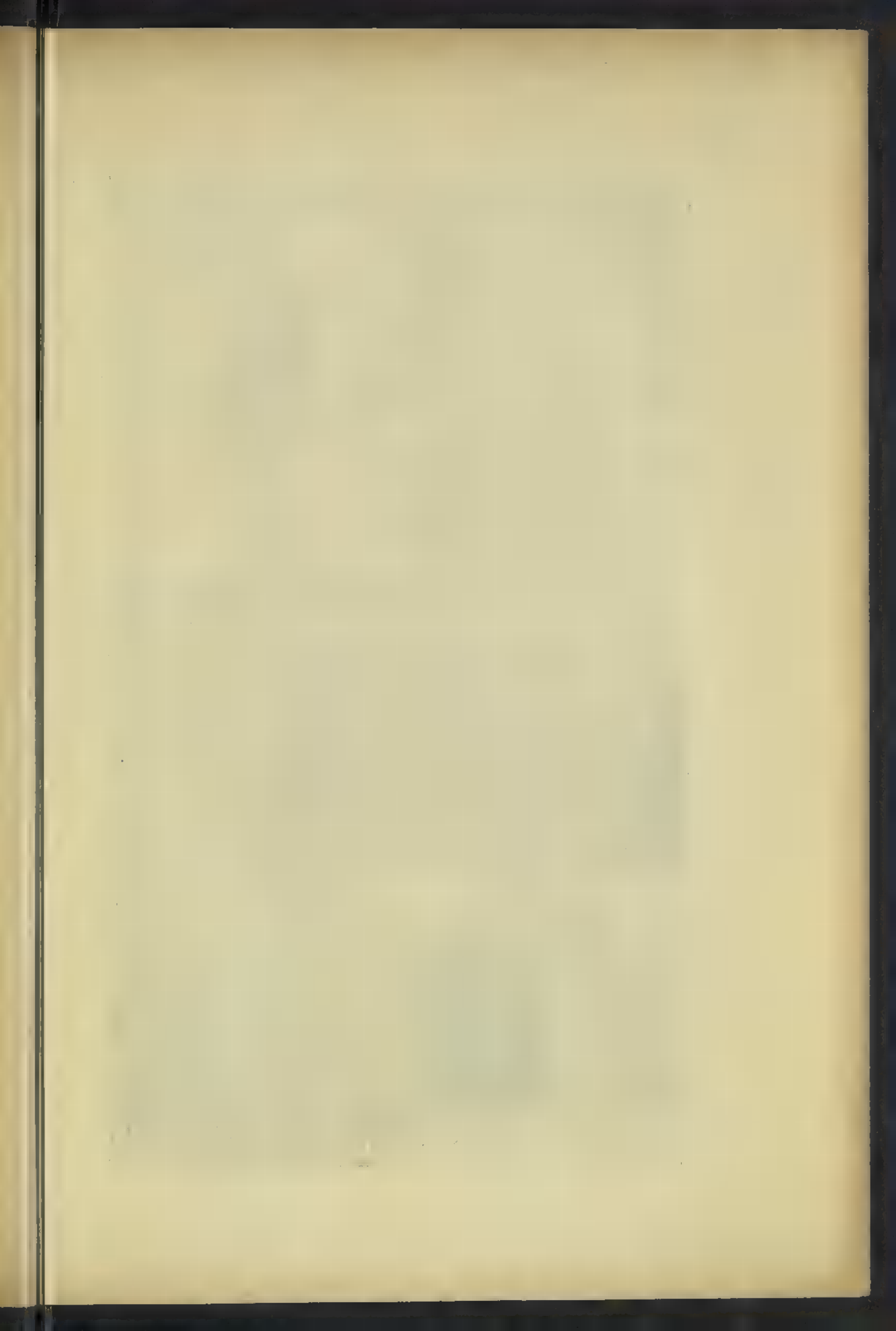
انتهى العشاء ، وشربنا القهوة · ثم جاءت الاركيلة ، ثم شيء من الشراب · وما لبث ان تثاءب السيد حسين بك افنان ، قدس الله سر اجداده ، فقال الاخ نخري ، دامت نجابته : « انكم ولا شك ، تعبون من السفر · » ثم نهض يتقدمنا الى — « هذي هي غرفتك ، يا حسين ، وهذي هي غرفتك ، يا امين » · وكان الله محب المحسنين ·



منارة سوق الغزل

في الوسط - من كتابة منقوشة في ماتبقى من احد جدران المدرسة المستنصرية - الظاهر فوق سطح البناية التي هي اليوم الجمرك

اثر من بناء عباسي في القلعة وراء وزارة الدفاع



القسم الثانى

القديم من الآثار والاخبار

الفصل الاول

مغزى اللبنة

الأُجر والحجارة في البناء — لبنة بابل — تطور الأُجر — ملح الارض يُفسِد — اتون المؤمن بالكاظمية — « هذا التراب من كرم الله » — أتون الكافر ببغداد — « العلم لا يزبد الارباح » — الزراعة واللبنة والمجد

لا يزال ببغداد من الآثار القديمة ما يعود بعضها الى القرن الرابع للهجرة · سنعود بك الف سنة اذن ، لنريك ما نجا من صول العناصر ، وغوائل الزمان · وانك لتعجب للرسم الطامس ، والطلل الدارس ، فضلاً عن الصرح الذي لا يزال قائمًا سليماً نافعاً ، اذا ما علمت ان مواد البناء في اواسط العراق سريعة التفكك والدثور · فالباني بالطين والأُجرّ مهما كانت مهارته ، ومهما كان من طموحه واجادته في الهندسة والزخرف ، لا يتمكن من تشييد الصروح التي يضمن لها طول البقاء الصلدُ الضخمُ من الحجارة · اما اللبن فهو مثل العامل باللبن — هو من التراب ولا يلبث أن يعود ، مثل الانسان ، الى التراب · لا خلود في غير الجلمود ·

واذكر كذلك ان لبنة بابل التي لا تزال تشهد على مهارة صانعها وبانيها في عهد نبوخذنصر ، والتي لا تزال في حائط المعبد وشارع النصر ، في ما اكتشف من المدينة الكلدانية القديمة ، كما كانت يوم أُخرجت من النار منذ الفي سنة ويزيد ، ان تلك اللبنة امست من التقاليد المطوية ، والذكريات المنسية ، في مصانع الاجرّ بالكاظمية وبغداد · فقد تطورت صناعة الاجُرّ في العراق تطوراً سلبياً · لا اعني بهذا انها رجعت القهقرى ، بل

اعني انها سقطت سقوطاً مفجعاً . والبرهان عَلَى ذلك في ما نشاهد من انواع الاجر القديم والحديث ، او بالحري في المقارنة بين لبنة بابل ولبنة طاق كسرى وبين لبنة بغداد اليوم .

ومما يدعو للتفكر والاعتبار ان هذا التطور المعكوس دخل عَلَى شعب البلاد ، في بعض نواحي الحياة ، كما دخل على أجرّه . فلا عجب اذا قال العالم الاثري : هات اللبنة العراقية وخذ الحديث عن اهل الزمان الذي صُنعت فيه .

وهاك بعض الحديث . كان البابليون مثلاً يهتمون اهتماماً عظيماً بالزراعة والري ، وكانت اللبنة البابلية في منتهى الجودة والمتانة . ثم عرا الزراعة شيء من الاهمال في عهد الساسانيين ، وغدت اللبنة الفارسية دون البابلية صنعاً واتقاناً . ثم جاء العرب ، فدخلت الزراعة — وصناعة الاجر — في دور الانحطاط .

لا نكران ان بعض الخلفاء العباسيين كانوا يعتنون بالزراعة عناية تذكر ، ويستحبون من البناء ما كان فسيحاً ، وما اتسعت في طول بقائه فسحة الامل . ولكن اللبنة التي كانت تُصنع في زمانهم هي دون اللبنة الكُسرَوية فضلاً عن البابلية .

مسكينة هذه اللبنة العراقية العصرية — هذه اللبنة النضاحة المتملحة . فما كان بامكان حتى الخلفاء العباسيين ، اولئك الخلفاء الذين بذّروا اموال الدولة في بناء الجوامع والقصور ، كما بعثروها في الحروب ، ما كان بامكانهم ان يجبروا صانع الاجر على ان يستخرج من اللبنة كل ما فيها من الملح . او انهم جهلوا هذا الامر ، وما علموا ان ملح الارض ، في صناعة

الاجر على الاقل ، هو غير ما تصفه به الامثال . هو يفسِد ، ولا يصلح . وهذا هو السبب الاول في درس اثار بغـداد المشهورة وامحائها ، الا القليل منها .

كان البابليون يحسنون ، ولا شك ، استخراج كل الملح من الاتربة التي يستعملونها لصنع الاجرّ . وهذا هو السر في دوامها سليمة اكثر من الفي سنة . فالملح في اللبنة يجعلها عرضة لفعل العناصر ، اي نضاحة . وانك لتراها في ابنية بغداد اليوم تنش بالماء ، فيذوب تـدريجاً ما فيها من الملح ، فتبدو بنخاريبهـا كقطعة من الاسفنج المتحجر . وتستمر هـذه الحال حتى تتفتت اللبنة ، فيتداعى الجدار ، ويسقط البناء .

ولماذا لا تُصنع اليوم اللبنة الشبيهة بلبنة بابل القديمة ؟ سألت هـذا السوءال احد اصحاب المصانع خارج الكاظمية فقال : « هذا التراب من كرم الله ، واللبنة منه ، وهي خير ما يُصنع ، والحمد لله » قلت : « وكم هي مدة الاشتواء ؟ » فقال : قدر ما يشاء الله . حيناً سبعة ايام ، وحيناً عشرة ، وحيناً خمسة عشر يوماً ، وفي بعض الاحيان لايشتوي قطعاً . سبحان الله ! »

كانت النساء العاملات في محفر كبير في جوار الاتون يمزجن ركام التراب بالماء فقال لي وانا انظر اليهن وارقب عملهن « التراب والماء لاغير » . ثم انتبه فادار بوجهه الى الاتون وكمل كلامه قائلاً : « والنـار — التراب والماء والنار . وكلها من كرم الله ، سبحانه وتعالى . »

قلما اجتمعت ، في رحلاتي كلها ، بمن هو اكثر لطفاً ، وادمث خلقـاً واجمل تقوىً وورعاً من هذا الرجل . وهو ولا شك شيعي من الكاظمية ، قلما تجد مثله في الشرق . هو رجل قديم الايام ، قديم اللسان ، قديم العقيدة

والايمان . هو رجل من القرن العاشر ، احد صنّاع الأُجر في زمن العباسيين ، عاش الف سنة فلطفته الايام ، وورعته الليالي . ثم استأنف صناعته في ظل المآذن والقباب ، في جوار الكاظمين رضي الله عنهما .

وقد زرت خارج بغداد مصنعاً للأجر حديث البناء والادوات ، صاحبه اسرائيلي من هذا الزمان — عصريّ عمراني ! فهو يشعل في اتونه زيت النفط ، بالضغط البخاري ، ويصنع الأجر بالمكنات ، ويرسل نموذجات من التراب — مكّن كلمته هذه بايماءةٍ فيها الرضى عن نفسه والفخر بها — الى اوروبه ليفحص فحصاً كياوياً . ثم قال : « نعم ، اننا نلجأ الى العلم ، لننتفع به . ولكن العلم لا يزيد الارباح في العراق » . ثم سألته سؤالي بخصوص اللبنة البابلية ، ابنة نبوخذنصر ، وهي المثل الاعلى في هذه الصناعة فقال : « كله يتوقف عَلَى التراب والملح . في بعض الاماكن يكثر الملح في التراب ، ويقل في غيرها . لذلك نرسل النموذجات منه الى الاختصاصيين باوروبه . . . اظن ان الملح يقل في التراب في جوار بابل والحلة . . . لا ياسيدي لا نستطيع ان نستخرج كل ما في التراب من الملح ، لان ذلك يقتضي نفقات كبيرة . والناس لا يرغبون بغير الأجر الرخيص السعر . »

ان المسألة اقتصادية زراعية . فاللبنة لا تتحسن الا اذا زيد بثمنها ، والزيادة بالثمن غير ممكنة الا اذا ازدادت الثروة في البلاد . لذلك ترى الحكومة العراقية باذلةً جهدها في تحسين الزراعة بتحسين عوامل الري . اذ ذاك نعود الى الزمن البابلي — الى عهد نبوخذنصر الزراعي — فنستغل الارض بكل ما لدينا وبكل ما فيها ، ونثري ونبني البيوت التي لا تنضح لبناتها ولا تذوب ، البيوت التي تدوم اكثر مما دامت قصور الخلفاء العباسيين .

لله اولئك العباسيون ! فقد ابتغوا المجد في الدنيا وفي الاخرة ،وخصوصاً في الدنيا ، وما ادركوا ان ما ابتغوه موكول باللبنة لا بالدينار . وباقنية الري لا باقنية الحياة الحريمية ، وبالمحراث لا بالسيف . بل هو موكول ببناء العقول اكثر منه ببناء الدور لأسترقاق العقول وسجنها ، او لاستخدامها في سبيل الخليفة ولذاذاته .

الفصل الثاني

آثار العباسيين

الابطال من سواد الناس — جولة اثرية — مسجد المنطقة — الاسطوانة العجيبة — منارة سوق الغزل — الانحناء في المآذن ومعناه — الطلل الدارس — المدرسة المستنصرية — الائمة الخمسة — خاتمة العهد العباسي

ان الانسانية لتنوّر النوّر الاجمل في اوديتها الساكنة الهادئه ، وانها لتثمر اطيب الثمار في المروج والحقول . اجل ، ان اكثر النوابغ ، واكبر الابطال لمن سواد الناس . مما يحقق الامال بالانسانية ، ويبرر الانانية في النهضات القومية ، فتتميز بفضل ارباب النبوغ والبطولة عهود التاريخ بعضها عن بعض ، وتظهر الفوارق حتى بين المثمر منها والعقيم ، فتُعرَف اذ ذاك باسماء اصحابها ، لا بالنعوت الذهبية او الدرية .

وان في تاريخ العراق العباسي عهداً ، وان قصر ، يستحق ان يدعى باسم من بزّ فيه جميع معاصريه . وما هو بالعباسي ، مَن أَوَطّى له هذه التوطئة ، ولا بالبرمكي ولا بالبويهي . ما كان من الامراء ، ولا من الفقهاء ، ولا من العلماء . بل كان عبداً رقاً ، ذا مطامع تصغر عندها مطامع اكبر الناس همةً ، واشرفهم حسباً ونسباً . هو العبد مرجان ، وسأزيدك علماً باسمه وسيرته عندما نصل في جولتنا الاثرية الى آثاره .

اول الاثار هو ما بقي من مدينة جعفر المنصور في مقبرةٍ بالجانب الغربي هي اليوم للشيعة . هناك حجرة كانت مسجداً في المدينة المدورة ، او انها الاثر الباقي من ذلك المسجد ، وهي لا تزال تُدعى باسمه ، اي مسجد

المنطقة . وفي هذه الحجرة اسطوانة من الرخام السماقي يتبرك ويتوسل بها العوام من الشيعة لمعجزة اتتها في قديم الزمان . وهي ان علي بن ابي طالب وقف ذات يوم ها هنا يصلي ، وكان عطشانا ، فتنبع الماء من الاسطوانة ، فشرب وحمد الله . هي الاسطورة لا تحفل بالتاريخ . فقد توفي الامام علي بالكوفة قبل ان بُنيت المدينة المدورة بمائة سنة .

اما المأذنة القديمة القائمة اليوم في قلب الجانب الشرقي من المدينة ، فلا اسطورة تشرفها ، ولا هي تفعل العجائب . كانت هـذه المأذنة في زمن العباسيين في وسط جامع كبير ، قيل انه بُني في عهد هرون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ = ٧٨٧ – ٨٠٩ م) وقيل في عهد المكتفي بالله (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ = ٩٠٣ – ٩٠٨ م) ولو كانت تُقرأ الكتابة المحفورة في اعلاها بالخط الكوفي لتحقق على ما اظن تاريخ هـذا الجامع ، الذي كان يدعى منذ خمسين سنة بجامع الخلفاء والذي لم يبقَ منه غير هـذه المأذنة ، القائمة في وسط بيوت واسواق يباع فيها الغزل ، فسُميت لذلك منارة سوق الغزل .

هي فريدة وحيدة في مكانها . وهي تختلف كما يقال عن سائر المآذن القديمة والحديثة بامرين ، الاول هو الكتابـة الكوفية التي لا يستطيع ان يقرأها احد لعلوها ولغرابة نقشها ، والثاني هو انها غير مستقيمة ، تميل قليلاً عن الخط العمودي . فهي من هذا القبيل تذكر السائح الاوروبي ببرج بيزه المدينة الايطالية .

ولكن في العراق غيرهـا من المآذن المنحنية ، اهمها في الموصل مأذنة الجامع الكبير . فان زاوية انحنائها تزيد عن زاوية انحناء منارة سوق الغزل ،

وتدنو على ما اظن من تلك التي لبرج بيزه المشهور · ليست صفتها الممتازة في الانحناء نفسه اذن ، بل في الامر الذي من اجله انحنت · قلت انها لا تفعل العجائب ، والقول يحتاج الى تصحيح · فانها تمتاز عن سواها من المآذن والابراج ، في الشرق وفي الغرب ، بما هي عليه من الورع والتقوى · فقد جاء في الاثار ان النبي مشى في ظلها ، فانحنت له اكرماً واجلالاً ، وهي لا تزال منحنية ، وستظل كذلك الى يوم القيامة !

اما الاثر العباسي الثالث فهو من مألوف الطلول الدوارس المبنية بالاجرّ · الا انه اقدم ، على ما يقال ، من منارة سوق الغزل ، اللهم اذا كانت شيدت في عهد المكتفي · وهو قائم في القلعة الى جانب وزارة الدفاع · يظهر من خريطة لبغداد قديمة ان قصور البرامكة كانت في هذا المكان الفسيح ، وان هذا الطلل الذي يدعى دار الضيافة هو من بقايا تلك القصور · الا انك لا تجد في جدرانه المتهدمة وسقوفه المعقودة ما يثبت شيئاً كل الاثبات غيرُ الاجر · وفيه الدليل على ان هذه الصناعة كانت في العهد العباسي الاول ارقى منها في ما بعد · مما يؤيد ما اسلفناه ان انحطاط صناعة الاجر مقرونة بانحطاط شعوب البلاد ·

قد اشرنا في الفصل السابق الى المدرسة المستنصرية ، وما يزال يبدو من اثارها في البناية التي هي اليوم الجمرك ، ومنها كتابة ، على بقية جدار بارز فوق سطح هذا البناء ، تنبىء بان المدرسة شيدت بامر الخليفة المستنصر في سنة ٦٠٢ للهجرة (١٢٣٣ م) لتعلم فيها المذاهب الاسلامية الاربعة ، اي الحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي · بيدَ ان تساهل المستنصر لم يكن شاملاً ، فقد وقف واجماً مانعاً ، عَلَى ما يظهر ، عند المذهب الخامس اي

الجعفري[1] . وهو مع ذلك جدير بحسن الذكر والثناء لانه جاء في أخر زمان

---

(١) هاكم ائمة المذاهب الخمسة :

ابو حنيفة — نعمان بن ثابت (٨٠ — ١٥٠ ه = ٧٠٠ — ٧٦٨ م) وما خلت حنافته من السلوك الشاذ الشريف . فقد استدعاه الخليفة المنصور من الكوفة وطلب اليه ان يتولى القضاء ، فابى فحلف عليه ليفعلن فحلف ابو حنيفة ان لا يفعل ، وانه غير اهل للقضاء — ليتعظ قضاة هذا الزمان — وفضل الاستمرار في تآليفه الخالد والمشارفة خلال التأليف على تخطيط وبناء المدينة المنورة

ابن حنبل — ابو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤٠ ه = ٧٨١ — ٨٥٦ م) هو في المنزلة الاولى امام الوهابيين الموحدين . وهو في النزاهة وجرأة الفكر والوجدان صنو ابي حنيفة . فقد رفض في عهد المأمون ان يشايع الرأي الرسمي في المعتزلة وان يقول ان القرآن مخلوق ، فجلد وسجن . وقد كان مع ذلك ، او بالحري لذلك ، محبوباً مكرماً ، كثير الانصار والاتباع ، فمشى في جنازته على قول الناس — والمؤرخين — ثمانون الف من الرجال واربعون الف من النساء .

الشافعي — ابو عبد الله محمد بن ادريس (١٤٩ — ٢٠٤ ه = ٧٦٧ — ٨٢٠ م) الشارقة شمسه اليوم في المغرب . فان اكثر التابعين لمذهبه هم في تونس والجزائر ومراكش . ولكنه ولد بغزة وقيل بعسقلان ، ونشأ بمكة ، وزار بغداد ، وتوفي بالقاهرة

مالك بن أنس (٩٥ — ١٧٩ ه = ٧١٤ — ٧٩٦ م) هو امام دار الهجرة وقل من فاز فوزه في حياته في الشرق او الغرب . فقد تبعه واخذ عنه بعض العلماء الذين درس عليهم ولكنه تبجح فقال : قل رجل كنت اتعلم منه ما مات حتى يجيئني ويستفتيني . ومن غريب ما يروى عنه انه حمل به ثلاث سنين .

العباسيين — هو السادس والثلاثون من الخلفاء وابنه المعتصم هو الاخير — فاعاد مع ذلك الى الملك شيئاً من مجده الغابر ، وبعث في البلاد روح العلم والادب ·

ان ذلك الصرح ليحزن في ما صار اليه · وهل في دور الحكومة ما هو اقتم وجهاً ، وانكر شكلاً ، واهول داخلاً من دار الجمرك ؟ هيا بنا · ولكننا ، ونحن نسارع منها الى السوق ، نمر بقسم قديم تحت مستوى الشارع ، معقود عقداً محكماً بشيء من الزخرف البديع — الذي كان بديعاً — والذي لا يزال يفصح من تحت القتام الكثيف عن مجيد غابره · هذا المكان الاشد سواداً من الجمرك هو اليوم فرن للخبز · ومع هذه المحزنات في الاثر الطامس للمدرسة المستنصرية ، فانه خير خاتمة للعهد العباسي ·

بيد ان من خلفهم من التتر لم يكونوا كلهم اعداء العلم والادب · فقد تداعى من هذه المدرسة ، بعد خمسين سنة من بنائها ، جدار الى جانب دجلة ، فامر الملك ابو سعيد اخر ملوك الدولة الايلخانية ببنائه ، كما هو مذكور في الكتابة التي تقدم ذكرها ·

(تابع الحاشية)

جعفر الصادق — ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابي طالب كان معاصراً لابي حنيفة (٨٠ — ١٤٩ هـ) ونقيضه في المذهب · بل هو عند الشيعة اعلى واعز من ابي حنيفة عند السنة · اما انه لقب بالصادق لصدقه في كلامه فذلك جميل ، ولكنه لا ينعكس انعكاساً جميلاً على معاصره الاعظم ·

الفصل الثالث

الآثار التترية

قصة عجيبة — السلطان أوَيس — المملوك مرجان — الغزوة — الاختلاس — طغيان دجلة — السلطان الرحوم — المملوك التائب — مبرات مرجان — الجامع والمدرسة والخان — بيت الآلوسي

اما وقد وصلنا الى العهد التتري فيجب علينا ان نقف اكراماً واجلالاً عند اسمين من كبار الدولة التترية الثانية — الجلائرية — وهما السلطان أوَيس ومملوكه الناهض الطامح ، المختلس التائب ، الصالح المحسن ، مرجان بن عبدالله بن عبد الرحمن . واليك بقصته العجيبة .

كان السلطان أوَيس بن حسن الجلائري ، موئسس الدولة الجلائرية (٧٤٠ هـ ١٣٣٩م) طامعاً بتوسيع ملكه ، فجرد حملة على خيجوق ملك اذربيجان ، وعين مملوكه مرجان حاكماً لبغداد في غيبته . وكان مرجان قد تخرج في سياسة الدولة ، وتدرج في مناصب البلاط السلطاني ، فغدا اسيراً لرغبة مضنية ، بل لأمنية مهلكة . مرجان بن عبدالله بن عبد الرحمن الاولجايني ، الرومي الاصل ، طمح الى الملك . وكان يومئذ دجلة آخذاً بالطغيان ، فطغى الاثنان معاً . وعندما شاهد مرجان المياه تغمر الجانب الشرقي من المدينة ظن نفسه في حرز حريز ، فتوكل على الله ، وتبوأ عرش أوَيس .

وما كان السلطان أوَيس موفقاً في حملته على خيجوق صاحب اذربيجان ، فعاد الى عاصمته التي أضحت في حوزة مملوكه ، وكان جانب المدينة الشرقي لا يزال تحت مياه النهر ، فبنى اسطولاً من الزوارق وخاض

به عباب دجلة الطاغي يحمل على ذلك الطاغي الاخر مملوكه مرجان · فوصل الى القصر وادركه هناك ··· وماذا دهاك يا مرجان ? ··· العفو ، يا مولاي ، العفو ! ··· وكان الاثنان من الصالحين · اعترف المملوك بذنبه وتاب ، وتوسط من اجله بعض كبار الدولة فعفى السلطان عنه ·

ومنذ ذاك الحين تاب مرجان الى الله — لست ادري أُسمِّي بامين الله قبل ملكه القصير ام بعده — وبذل كل ما كان يملك في سبيل البر والاحسان · بل خلد ذكره في ما بناه لخير الناس في هذه الدنيا وفي الاخرة · من ذلك المدرسة المرجانية التي شُيدت في سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٧م) وأوقف عليها مائة دكان ، وثلاث عشرة معصرة للزيت ، (كان يحرز الاملاك على ما يظهر بالسهولة التي احرز بها الملك ، وينفض منها يديه كما نفضها من العرش) وثلاث عشرة قطعة من الارض ، وسبعة خانات ، وسبعة بساتين ، اوقفها كلها وقفاً صحيحاً شرعياً ، كما جاء في الكتابة المنقوشة بالاجر قرب البئر في الجهة الجنوبية · وقد ختمت بهذه الكلمات : من غيّر شروط اوقافي اوتصرف فيها خلاف ما شرطت لُعن في الدنيا والاخرة[1] ومع ذلك ان

(١) «وتمت هذه المدرسة في دولة نور حدقته ، ونور حديقته ، المخدوم الاعظم الاعدل ، رافع رايات السلطنة على الافلاك ، ساحب ذيل الرحمة على الاعراب والاتراك ، محيي مراسم الملة المصطفوية ، مزين شعار الدولة الجنكيزية ، حاجيج شاه أوَيس خلد الله ملكه · »

وما خلد لولا هذا حتى ذكره · اما مرجان فلا حاجة الى الكتابة لتخليده · فهو مدفون تحت قبة المسجد ، ولا يزال الناس يزورون قبره ويتبركون به · وان سألت البغدادي اليوم عن الحاجيج أوَيس ، اجابك بسؤال آخر قائلاً : أويس ، أويس ? ومن هو أويس ? مما يثبت ما بدأنا به قصة مرجان ، وهو ان عظام التاريخ قلما يكونون من الامراء او من ذوي المال والجاه في الناس · ولا يندر النبوغ حتى

اكثر تلك العقارات ، التي لا تزال قائمة ، هي اليوم في ايدي اليهود !

ومن اثار مرجان الجامع الذي بناه للمدرسة ، والخان المقابل للجامع والاثنان يدعيان باسمه . اما اورونه فهو الاسم الذي اطلقه الترك على الخان لظلمته ، وقد امسى تحت الارض ، ولا يزال عليه مسحة من الفخامة . اما الجامع فان بابه على الاقل جميل . بل هو في هندسته ونقشه منقطع النظير ببغداد ، وقد امسى مثل باب الخان بضعة اذرع تحت مستوى الشارع .

والجامع والخان اليوم مفتوحان ، الواحد للصلاة والآخر للتجارة . اما المدرسة والمكتبة التابعة لها ، الحافلة بالمخطوطات ، فقد تولى ادارتها زمناً طويلاً بيت الالوسي الموصوف بالفضل والعلم والتقوى . ثم أُقفلت المدرسة ونقلت المكتبة الى دار الكتب العمومية .

لا اظن ان في بيت الالوسي اليوم من يهمه امر مرجان ومدرسته القديمة . فان كبير هذا البيت موفق بك من غير اولئك الاجداد الانقياء في علمهم ، العلماء في تقواهم ، الرافعين يدي الدعوة والاستيحاء للسلف الصالح . الشاربين من مياه التقاليد الحلو والمالح . لا . ما هو منهم ، لا في كتابه ، ولا في شرابه . فقد تلقى علومه بباريس ، وافعم روحه بالثقافة الاوروبية اللاتينية ، ثم اضاف الى ذلك من الانكلوسكونية اشياء ، تتصل اسبابها حيناً بالعلماء ، وحيناً بغير الماء . كيف لا وهو الى ال « بار » اللامع ، ادنى من البارّ الى الجامع .

وما مرجان ، وجامع مرجان ، ومدرسة مرجان ! ان للدولة العراقية الحديثة حقاً بثمار علمه العصري ، وبخير ادبه ووطنيته . بيد انه لا يتوفق دائماً بما يريده لها من الخدمة . فبعد ان درس القانون الدولي في كلية الحقوق

دخل في السلك السياسي من باب الوزارة الخارجية ، ثم خرج منه غير آسف ، وهو اليوم — لست ادري اين يكون عندما يصدر هذا الكتاب.
وما مرجان ، ومدرسة مرجان ، وخان مرجان ! هات يا ولد الوسكي والصودا .

لقد جرنا مرجان ووقفياته الى من تولى ادارتها اي آل الوسي ، فحملنا ذلك على ذكر كبير الالوسيين اليوم ، وهو ينبو عن كل ما فيه سمعة وظهور . فنسأله العذر ، وندعو له بالتوفيق حيث كان ، ببغداد او بطهران ، معلماً للانس او للجان ، في دار الحقوق ، او في « بار » الاميركان !

الفصل الرابع

المقامان الاعظم والاشرف ·

مقام المعظم — جمال جواره — امامه الاعظمي — « لا حد لعلمه ولا نهاية لظلمه » — محلة الشيخ — الحضرة القادرية — « الباز الاشهب » — شطحات وسكرات — القديس اغناطيوس لويولا والقديس فرنسيس الاسيسي — يشوع بن نون ·

ت م ، والموضوع القديم ، نعود اليه · قد ذكرت ابا حنيفة في حاشية ماشية ، وما تورعت ولا اعتذرت · فلا بد من التكفير في زيارة لمقامه القدسي بالاعظمية · وما المقام على شيء كبير من جلال القدم · فقد شيده الترك ، واحاطوا الحجرة بمشبك من الفضة · انه في ما سوى ذلك جامع كبير كغيره من الجوامع الكبيرة ، فلا تجوز ولا تليق المقارنة بينه وبين الكاظمين القائم قباله على الضفة الغربية · وحسبك ان تذكر المأذنتين والقباب الكبيرة والصغيرة المصفحة كلها بالذهب ، فيتوارى المقام الحنفي الاعظم ، ويستغفر لبانيه الله ·

ولكنه يمتاز بما لا تجد له اثراً في الكاظمين ولا بالكاظمية · ويحق له ان يفاخر جوامع بغداد كلها بما الى جانبه ، ضمن السور ، من جمال الطبيعة الهادئ الوادع ، المرحب بالنفوس الوادعة الهادئة ، المضيء فيها انوار الفكر والتأمل · فسلام على بستان المعظم وازهاره ، وعلى ظلال اشجاره ، وعلى سكينة جواره ·

ويحق للمعظم أن يفاخر كذلك بامامه الاعظمي اليوم سميّه نعمان ، الحامل للبيان ، العلَمَ والصولجان ، الجامع في مواعظه الحديث والقديم ، والسليم

والسقيم ، والمثمر والعقيم ، الضارب في كل واد ▪ وفي كل منبت آسٍ وقتاد ، المزّين الترهات بالآيات ، الخالط السمن باللبن ، واللبن بالخل ، والخلّ بالنفط ، والنفطَ بالخمر ، والخمرَ بزيت الخروع ! رب المنابر الشيخ نعمان ▪ صاحب العلمَ والصولجان ·

وانه في حديثه مثله في وعظه ، لا حد لعلمه ، ولا نهاية لظلمة ، يدقق ولا يشفق ، ولا يبالي في ما يفتق ويرتق ، يفيض ولا يغيض ، ويداوي المريض بالقراءة وبالقريض · لله در الاعظمي نعمان ، إمام جامع المعظم نعمان بن ثابت ·

اما وقد زرنا مقام المعظم فجدير بنا ان نزور مقاماً اخر قدسياً ، هو في قلب بغداد ، بمحلة الشيخ ، المشرّفة باسمه · هو مقام الشيخ عبد القادر الجيلاني (٤٩٠— ٥٦١هـ = ١٠٩٨— ١١٦٦م) الذي جاء من جيلان يشرف بغداد ، ويشعل انواره في البلاد ·

كان الشيخ ذا نظرات في التصوف غريبة ، وشطحات عجيبة ، وتأويلات واجتهادات ، في تفسير الآيات ، وكشف الغوامض المبهمات · وكان في طلعته ، مثله في نزعته · عينان هما اتونان مشتعلان ، وحاجبان هما دغلان مدلهمان ، في رأسٍ كبير مستدير ، فوق انف ضخم ، فوق لحية مرسلة طويلة · اضف الى ذلك اللسان الفصيح والذهن النفاذ الكشاف ، والصوت المزمزم كالرعد ، تشهدهُ باجمعه ، وبكامل مجده · قيل انه نقل الى خارج المدينة لما ضاق بالسامعين المكان الذي كان يعظ فيه، وهناك في العراء كان يجتمع من الوف المؤمنين ، ستون وسبعون ، ليسمعوا كلماته الذهبية وآياته السماوية ·

أسمي الشيخ بالباز الاشهب[1] ، وهو ، على مــا يظهر لي ، رمز «السوبرمان» في الشرق ، وقد كان في بيته مثله في بيئته ، كثير الانتاج ، موفقاً ظافراً على الدوام ، فنعمت الدنيا بتسعة واربعين ولداً من صلبه ، وبالفِ مرةٍ تسعة واربعين من السالكين لطريقه ·

بيد انه كان في سلوكه مثل جميع المتصوفين ، جوّاب افاق قصيّة ، حيناً متألقةً ، وحيناً مظلمــة · له حالات ، وحيزات ، وابتهاجات ، وله في يقينه الآيات : ارفع نفسك الى ما فوق الشقاق في نفسك يجئك الاسد طائعاً ، ويأكل الذئب من يدك · إقتل نفسك امام نفسك ، دُر ثم دُر ، من الوعي الى الحال ، تقع النجوم كالدرر عند قــدميك · اتضع نفسك امام العرش في نفسك ، تشاهد في بابك العزة الالهية ·

وفقاً لهذه الشطحات سلك الشيخ سلوكه القادري ، فكان حَملاً للوديعين ، واسداً للطالبين ، وكوكباً للسكارى في حانة الشوق والحنين ، وذاتاً مقدسة لبقية المؤمنين · وما كان حتى الخليفة ليأمره بالمثول بين يديه ،

---

(١) قال البَنْدِيجي في كتابه «جامع الانوار في مناقب الاخيار» في ترجمة الشيخ عبد القادر ما نصه : «وقيل له الباز الاشهب لما كان يمشي ويطير على رؤوس الاشهاد ، كما روى الشيخ ابو القاسم عمر ابن مسعود البزّار ، والشيخ ابو حفص بن يحيى المتاني» هما شاهدان · وهناك مصدر آخر وشاهد من اهل الجنة ، على ما يظهر ، اسمه الشيخ عقيل المُنبجي · فلما قيل له : قد اشتهر ببغداد امر شاب اعجمي شريف اسمه عبد القادر · قال: «امره في السماء اشهر منه في الارض · ذلك الفتى العلي المدعو في الملكوت الباز الاشهب·»

وقد اضاف الى هذه الحاشية صديقي الابر الشيخ كاظم الدجيلي ما يلي : «والبــاز الاشهب ، كما جاء في التاج ، لقب ابي العبــاس ابن سريج والسيد منصور العراقي خال سيدي احمد الرفاعي · ولم يذكر الشيخ عبد القادر بينهما · فتنبه»

بل كان اذا شاء الاجتماع به يجيء بنفسه اليه ، بعد ان يستأذن بذلك · ولكنه كان محباً للفقراء ، متواضعاً لهم ، فيآكلهم ويقيم بينهم · انه في هذا لمثل القديس فرنسيس الاسيسي ، وانه في ما سوى ذلك لمثل ولي الجزويت القديس اغناطيوس لويولا · كلاهما مصدر وحي ، ومصدر قوة · فقد ابتدأ عبد القادر بالحب وانتهى بالنظام · ادّى صاحب السلوك الرسالة في حياته الدنيا ، وصار بعد ذلك صاحب طريقة ·

وكان فوزه الاكبر في مماته · فان عظامه محفوظة تحت القبة في الجامع الحامل اسمه بمحلة الشيخ ، وما زالت روحه ، بعد سبعمائة سنة ، منارة علمٍ وهدى لألوفٍ من اشياع الطريقة القادرية في الشرق ·

وان للشيخ عبد القادر ، فوق ما ذكرت ، صفةً حربيةً تذكر قارئ التوراة بيشوع بن نون · فهو مثل يشوع هدّام اسوار ، وهو مثله فاتحٌ مظفر · اجل ، هو بطل القصة التي تتعلق بأثر من الآثار القديمة العجيبة ، اي المدفع الذي يُدعى « طوب ابو خزامة » وقد صُنع بامرٍ سماوي ، وكان للسلطان مراد ، مفتاحَ بغداد ·

الفصل الخامس

كنج عثمان والباز الاشهب

تاريخ واساطير — الشاه عباس يفتح بغداد — السلطان مراد يكسر الشاه — الراوي يكمل التاريخ — الدرويش السويدي بالاستانة — الزحف على بغداد — كيف فتحت بغداد — كنج عثمان — الحصار — الرؤيا — كيف صنع المدفع — الباز الاشهب — الملحمة العظمى وعجائبها — الطوب ابو خزامة ومعجباته — تمرده على السلطان — زبور ورموز — العاقر والحامل والعمشاء

قبل ان اقص القصة التي اشرت اليها في الفصل السابق ينبغي ان اقدم لها مقدمة اخرى ، مقدمة صغيرة تاريخية ٠

في السنة الثلاثين والالف للهجرة (١٦٢١م) فتح بغداد الشاه عباس الصفوي وملك اربع سنوات ، فخلفه الشاه صفي خان ، ثم صفي الدين ، وما تجاوز حكاهما الاحدى عشرة سنة ٠ ذلك ان سلطان العثمانيين مراد الرابع زحف بجيشه عَلَى بغداد ليطرد منها الفرس ، فحاصرها في ٨ رجب سنة ١٠٤٨ (١٥ تشرين الثاني ١٦٣٨) ودخلها ظافراً في الشهر التالي ٠ ثم ولى عليها واليًا من قبله ، وعاد الى الاستانة ، تاركاً ببغداد للدفاع عنها المدافع التي غنمها من الشاه الصفوى ، وتلك التي كانت معه ، ومنها طوب ابوخزامه ٠

هذي هي رواية التاريخ ، وليس فيها شيء من سيرة المدفع العجيب وعلاقته بالشيخ عبد القادر ، ولا بما للاثنين من الفضل في فتح بغداد ٠ انها لقصة عجيبة قد تجدها في مخطوطة من مخطوطات المدرسة المرجانية ، وقد تظفر في احدى القهاوي بمن يستطيع من القصاصين ان يكمل التاريخ ٠ بين كنت اسعى لهذا الغرض لقيت صديقي الدجيلي الشيخ كاظم ، الناثر الناظم ،

فقصر علي الطريق بان جاءني في اليوم التالي بمجلة « لغة العرب » وفيها ما ابتغيته ، مكتوب بقلمه ، ومؤيداً بوافر علمه ·

قال الزاوي : لما اخذ الشاه عباس بغداد أذل اهلها ، وجعل جوامعهم الكبيرة مرابط لخيله وبغاله · فثار ثائر الناس وقالوا : مـا لنا غير السلطان نستغيثه · ولكن السلطان في الاستانة ، والشاه عباس منع السفر من بغداد ، فكيف الوصول الى السلطان · اجاب على هـذا السؤال رجل من بيت السويدي ، وكان جوابه غير الكلام · فقد تزيا بزي درويش ، وسافر الى الاستانة ، ليحمل الى السلطان خبر سقوط بغداد · وبعد وصوله ظل متخفياً ليدرك غرضه · فوفقه الله الى خطيب جامع السلطان ، فقال له انه طالب علم وعارض خدمة · فاستخدم الخطيب ، لما بدا من نجابته · وفي ذات يوم من ايام الجُمع كان الخُطيب مريضاً ، فما استطاع ان يذهب الى الجامع ليلقي الخطبة ، فقال له السويدي انه ينوب عنه ، فسر بذلك · ولما رقي السويدي المنبر نادى باعلى صوته : ايها المؤمنون المسلمون · ان الدين ذهب ، وان بغداد قد ضبطها الشاه عباس وربط خيله وبغاله في حضرات أئمتها ، وفعل من المنكرات ما لا يوصف ولا يحصر في بال انسان · فلما سمع الحاضرون كلامه ضجوا بالتكبير ، واخذوا بالبكاء والعويل ·

وكان السلطان مراد حاضراً ، فامر ان يجيء السويدي الى القصر ، فاستقصه القصة من اولها الى اخرها · ثم أعلن الجهاد ، ونادى المنادي في الاستانة ان لا يصحب السلطان من عسكره الا الكهول ، والذين يغرز المشط في لحاهم · فحشد الجيش وفيه الشبان والكهول لا غير ، ثم مشى به السلطان قاصداً بغداد ·

ولما صار قرب سامرّاء خطر له خاطر في اختيار رجاله . قال الراوي : اراد ان يجعل على الجيش قائداً محنكاً ، وان يذهب هو بنفسه الى بغداد متجسساً . فاخذ يسأل كل من ظن فيه الكفاءة للقيادة : اين بغداد ؟ فاجابه الاول : على بعد ثلاثة ايام منا ، فامر بقطع رأسه . واجاب الثاني : على بعد يومين ، فصاح السلطان : اقطعوا رأسه . واجاب اخر : على بعد يوم ، فطاح رأسه حالاً . هذا في يوم واحد . وعند ما امر القواد في اليوم التالي بالمثول بين يدي السلطان سأل احدهم : اين بغداد ؟ فوثب الى صهوة جواده ، وراح غائراً يهز اللواء ويقول : بغداد تحت حافر هذا الجواد . فهتف السلطان قائلاً : الان وجدت ضالتي .

ثم دعا القائد اليه وقال له : اصدقني الخبر . من علمك هذا ؟ فاجاب القائد: لي ابن احبه حباً شديداً فلم اطق فراقه ، فحملته معي مخفياً في صندوق ، فأُخرجه منه في الليل واسامره . وفي الليلة البارحة رآني في ضيق وكنت اقول في نفسي : هي الليلة الاخيرة من دنياي ، فسألني عن حالي ، فقصصت عليه القصة ، فدبر لي هذا الامر .

قال السلطان : اين ابنك هذا ؟ فاجاب القائد : في الصندوق . فامره ان يأتيه به ، ففعل . فلما رأى السلطان الولد استسماه فاجاب : اسمي كنج عثمان (عثمان الصغير)

السلطان : الم تسمع اني امرت بقتل كل من لا يغرز المشط في لحيته؟

كنج عثمان : انا لست كما ترى ، بل انا شيخ من الشيوخ .

السلطان : ان كنت صادقاً فخذ هذا المشط واغرزه في لحيتك .

فتناول المشط ولشدة خوفه من السلطان غرزه في لحم خده .

السلطان : اين لحيتك ؟ فانّا لا نراها في وجهك ·

كنج عثمان : لحيتي ، يا جلالة السلطان ، في داخل صدري ·

فأعجب السلطان بجوابه ، ونجابته وشجاعته ، وولاه القيادة العامة ·

ثم زحفت الجنود بقيادة كنج عثمان على بغداد ، فحاصروها ، فتعسر فتحها ، فاستمر الحصار مدة مديدة ·

اما السلطان مراد فقد جاء بغداد في زي درويش ، ودخلها وهو ينشد الاشعار الفارسية باطرب الالحان ، فسمعه الشاه ، فدعاه اليه ، وقربه منه ، ولعب واياه في الشطرنج ، فتقدم السلطان بفرزانه منتصراً ، ثم حصر « شاه » الشاه وقال: الشاه مات · قال ذلك وقام ، فخرج من القصر مسرعاً ، وراح الى المعسكر خارج السور ·

وفي تلك الليلة كان القائد العام كنج الصغير ارقاً مغتماً ، فزاره شيخ معمم بعمامة خضراء كبيرة وخاطبه قائلاً : ما لي اراك في ضيق واضطراب ؟ فقال كنج عثمان : قد اعيانا فتح بغداد ، وقد نفدت قوانا وذخيرتنا · فقال الشيخ: اذا كان الغد اذهب الى السلطان مراد وقل له ان اعمل مدفعاً كبيراً ·

فلما بزغت الشمس ذهب القائد العام الى السلطان واخبره بما كان · فقال السلطان : من اين لنا ذلك ولا حديد عندنا ·

وفي الليلة الثانية ايضاً طاف الشيخ بالمعسكر ، وخاطب القائد العام عثمان الصغير قائلاً : الم اقل لك اعملوا مدفعاً من حديد ؟ لِم لم تعملوا ذلك ؟ فقال عثمان : ليس عندنا شيء من الحديد · فقال الشيخ : خذوا انعل خيولكم ومرابطها الحديدية وصبوها ·

وعند الصباح اخبر كنج عثمان السلطان مراد بذلك ، فامر السلطان

بجمع النعال والمرابط كلها ، فلما جمعت وأذيبت تحيروا في كيفية صبها ٠

وجاء الشيخ في الليلة الثالثة الى خيمة كنج عثمان يقول : انا اعلمك ٠ وراح يشرح له كيف يعمل القالب ويصب المدفع ٠

ما فهمت القاعدة لا مما نقله الدجيلي ، ولا مما رواه الراوي ٠ كلام الشيخ مبهم ٠ ولكن القائد العام كنج عثمان فهمه ، عَلَى ما يظهر ، لان المدفع صنع في اليوم التالي ٠

قال الراوي : صُنع المدفع ، ولكن يا جماعة الخير ما عندنا بارود ٠

وللمرة الرابعة تجلى للقائد الصغير الشيخُ الجليل — الذي عرفه الان ولا شك القارىء النجيب — تخاطبه قائلاً : لا يهمنكم البارود والرصاص ٠ فاجعلوا بدل البارود التراب ، وبدل القنابل قطع الصخور ، وارموا بها الاعداء ٠ فانها ستقع عليهم اشد وقعاً من الرصاص والبارود ٠ وسأقف لكم غداً على قمة قبتي بصورة باز اشهب (نعم ، هو الشيخ عبد القادر قدس الله سره) فاذا رأيتموني صوبوا المدفع الي ، واقذفوني بما فيه (مافهمت السر في هذا ولا فهمه الدجيلي ، ولا توفقنا الى احد ببغداد يفهمنا اياه) ثم ارموا رمية اخرى على السور ، تثلم منه ثلمة واسعة ، وادخلوا المدينة عنوة وانكم ان شاء الله لظافرون ٠

وفي صباح اليوم التالي انتصب الباز الاشهب فوق قبة جامعه ، وكان ما اوصى به ٠ فاطلق المدفع عليه ، فاخفاه التراب عن النظر ٠ ثم أُطلق الطلقة الثانية عَلَى السور ، فانهدم جانب منه عظيم ، فتدفقت جنود السلطان مراد في المدينة كامواج البحر الزاخر ، والتحمت وجنود الشاه في القتال ٠ وكانت ملحمة ولا كالملاحم ، حدّث عن عجائبها ولا حرج ٠ فقد

شاهدت امرأة من على طوار دارها جندياً مقطوع الرأس يحمل سيفاً بكلتا يديه ، ويستمر في التذبيح . فصاحت قائلةً : سبحان الله . هذا رجل بلا رأس ، ولا يزال بسيفه يقطع الرؤوس . عندئذ سقط من على ظهر جواده وخر صريعاً ، فدفن في موضع مصرعه في المحلة المعروفة اليوم بمحلة « ابو سيفين » واكثر سكانها من اليهود .

لله من هول تلك الملحمة ومن عجائبها . فقد أُصيب فيها حتى القائد العام عثمان الصغير . قطعت يداه وما سقط اللواء الذي كان حامله . بل ظل يمشي امامه — يمشي اللواء وحده — حتى رآه احد الناس فصاح مدهوشاً : الله اكبر ! فهوى اذ ذاك الى الارض . وقُتل كنج عثمان . ولكنه بعون الله وعبد القادر كان منتصراً .

عبد القادر الجيلاني
من احسانك لا تنساني —
من احسانك لا تنساني !

دُفن عثمان الصغير — القائد العام الكبير — حيث سقط هو واللواء . ولا يزال ضريحه ، بحجرته وقبته ، قائماً اليوم بقرب باب السراي ، وقد كتب على احد جدرانه بالقاشاني الابيض يتخلله الازرق ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . رئيس الشهداء كنج عثمان . » وقد اصبح هذا الضريح مقاماً تُشعل الشموع عليه ليلة كل جمعة ، ويزوره الناس وينذرون له النذور .

اما اكليل المعجزات في تلك الملحمة العظمى فقد احرزه الطوب ابو

خزامة [1] الذي اضحى بعد ذلك ، في نظر العامة ، وليًا من الاولياء . فهم يزورونه ، ويتبركون به ، ويعقدون الخرق بسلسلة الحديد التي تطوق قاعدته ، وينذرون له النذور ، ويسرجون الشموع حوله كل ليلة جمعة . اكرم به من ولي قلما يخيب طلب زوّاره ، واكثرهم من النساء . فالامرأة العاقر والفتاة العاشقة ، والعمشاء والعرجاء ، وام البنين المعلولين — كلهن يجئنه طالبات داعيات . الام التي لا يعيش لها ولد تأتي اليه بالمولود في يومه السابع ، وتدخله في فوهته وتخرجه ثلاثًا لصحة المولود ، على ما اظن ، وشجاعته وطول عمره . والامرأة التي بعينها رمد تدخل رأسها في فوهته وتخرجه ثلاثًا ، وتغسل شيئًا منه او من السلاسل حوله بالماء ، ثم تغسل بذاك الماء عينها ، وتنذر النذور . ومما هو جدير بالذكر ان الناذرات لا يفين بنذورهن الا اذا استجيبت طلباتهن .

وعلى الطوب ابو خزامة زبور ورموز لا يحسن تفسيرها غير المتضلعين بالعلم من الرواة .

قال الراوي الذي تلطف وكان دليلنا : ترى هذه البعجة في ظهره ? قد توقف عن السير في يوم الحرب ، فغضب عليه السلطان ، فضربه ضربة بكفه بعجت ظهره . لماذا سمي ابو خزامة ? الجواب عندي . انظر الى الفوهة ترَ في داخلها صدعًا ، هو مكان انفه الذي كانت فيه الخزامة — ابوخزامة! ولما استعصى عَلَى السير نتله السلطان من خزامته نخرم انفه . وهذا اثر الخرم

---

(١) هو مدفع كبير طوله اربعة امتار ونصف متر ، وقطر فوهته نحو نصف متر وهو « مضطجع عَلَى مرقد » من جذوع النخل ، في محلة الميدان ، في الجانب الشرقي من بغداد ، امام باب القلعة التي فيها اليوم وزارة الدفاع .

باقٍ الى اليوم · اما السمكات الاربع المنقوشة على ظهرة فان قصتها عجيبة · هي ترمز الى ما كان من غضبه — غضب ابو خزامة — وسمو قصده ، فعندما خرم السلطان انفه ، توقف عن الحرب — ابي القتال — صار من انصار اهل السلام · ولشدة غضبه وتحقيق قصده في رفض الحرب وشجبها القى بنفسه في دجلة · فخاض السلطان النهر لينقذه ، فجره الى البر ، فرأى صورة السمكات منقوشة على ظهره لتشهد انه رمى بنفسه في النهر فراراً من السلطان ومن الحرب ·

كل هذا من فضل الدليل وعلمه · الا انه نسي ان يشير الى الكتابة المزبورة على المدفع ، وهي انه « صُنع برسم السلطان مراد خان » وكأن به اي الدليل يقول : فقهت ما تلمح اليه · واني ارد كيد المشككين بنحرهم · فهل ترى في الكتابة المزبورة ، كما تقول ، غير ما قرأت ، اي « صُنع برسم السلطان مراد خان » ؟ كلا · اذن ، ما صُنع بالاستانة بل صنع هاهنا ببغداد بامر مولانا عبد القادر ، قدس الله سره ، وبعونه تعالى ·

الفصل السادس

في مقبرة الكرخ

قباب الاولياء — الصوفي الكيّس — التوفيق بين النور والظلمة — الصلة الروحية بين جُنيد وبين بولس الرسول — معجزات جنيد — يأتي بما لا يستطيعه الطوب ابو خزامه — مقام بهلول — بيوته العامرة بالخزعبلات .

يُستدل مما تقدم في الفصل الاخير على انه يحق للولي ان يوكل من يقوم مقامه في المعجزات ، وان كان الموكل من الجماد ، كالمدفع ، او الراية التي مشت وحدها ، او السيفين بيد الجندي المقطوع الرأس . وما عبد القادر الولي الوحيد في هذا بين الاولياء . فهناك غيره كثيرون ، وان صغرت القباب المضطجعون تحتها ، ينيبون عنهم الجماد ، لخير العباد . ولكنهم ما حاولوا ، في حياتهم الدنيا ، ان يلبسوا نبوغهم الصوفي ثوب السياسة ، او يقلدوه سيف الملك . ظلوا بعيدين عن الملك وعن الحرب ، الا القليل منهم ، مَن غرتهم المناصب فقاسوا في سبيلها البلاء كثيره او قليله .

في مقبرة الكرخ القديمة بعض المقامات الجديرة بالذكر والزيارة . وهي لا تخرج من موضع بحثنا الشامل ما تبقى من اثار مدينة الخلفاء . تعال اذن نزر مقبرة الكرخ . وجدير بنا ، ونحن في الطريق ، ان نتمثل بقول ابي زيد البسطامي الطبرستاني : « اترك نفسك وتعالَ . كنت لي مرآة ، فصرت انا المرآة . »

انا في مقام جُنيد ، وهو لا يزال مشهوراً بما يأتيه من المعجزات ، فينافس فيها الباز الاشهب وغيره من الاولياء . كان جُنيد في زمانه — توفي

في العقد الثاني من القرن الرابع للهجرة — اشهر المتصوفين المجلين ، فساوم الدنيا وما عاداها . قبِلَ تبعة الحياة ، وشذّبها ، فكان من اصحاب السيادة والكياسة ، يرتدي الدمقس ، ويسبح بسبحة من اللؤلؤ ، ويتطيب بالعطور ، ولا يحفل كثيراً بما لا يساق لطوعه من المحسوس والمنظور . بل حاول ان يُسكت المناقضات ، ويوفق بين النور والظلمات . فاعترف بفضل الماعون الفارغ يحمله الدرويش ، كما اعترف بفضل الفراش الوثير يُفرش للقضاة . اما الاول فهو رمز كل باطل في الحياة ، واما الثاني فهو رمز الحياة التي تظل ناعمةً — ولا بأس — تحتنا .

كان جُنيد محبّاً للجدل ، شغفاً باساليب البيان . بل كان ممن تستهويهم الالفاظ ، فيصيغون منها الحِكمَ والآيات للناس ، لا لانفسهم . « البلاء سراج العارفين » قالها جُنيد ، وما عرف البلاء في الحياة الدنيا . وقال غيرها مما لا نكلفك اجهاد النفس في تصديقه . فقد سُئل مرة عن غني شاكر وفقير صابر ايهما افضل ، فقال : « الذي آلم صفته وازعجها أتم حالاً ممن متع صفته ونعمها » . وقد كان هو ، كما اسلفت ، من المتعين المنعمين ، عفا الله عنه ، وغفر له خصوصاً لقوله : « ما اخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا . » ان في كتابه « دواء الارواح » من الغوامض الفكرية ، والالاعيب اللفظية ، ما يعيد الى الذهن اسلوب يوحنا في انجيله ، وبولس الرسول في بعض رسائله [١]

(١) قال المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون ، المحيط علماً بالمتصوفين المتضلع بعلوم التصوف العربية والفارسية ، ان في كتب جُنيد وامثاله مجالاً للبحث في ما قد يكون من الصلة الروحية والفلسفية بين هؤلاء المتصوفين وبين نساك النصارى في العراق .

لست ممن يقولون ان كتبه – ومن يا ترى يقرأها اليوم – هي الضامنة لدوام ذكره · انما اظن بل اعتقد ان ذلك الذكر منوط دوامه بفجيعة تلميذه وزميله الحلاج ، الذي حكم عليه جنيد بالاعدام · وقد دفن الاثنان بالمقبرة الواحدة ، في التراب الواحد ، انما تحت قبتين ، قريبة الواحدة من الاخرى ·

وهو لا يزال في هذه التربة ممن يأتون بالمعجزات · فان في الجامع الصغير الذي يحتوي ضريحه حجرين املسين ، على سجادة مفروشة فوق مائدة صغيرة ، ينعمان بالصفة التي للطوب ابو خزامة · اجل ، ان فيهما الدواء لكل الامراض · فاذا وضعت المرأة احد الحجرين على موضع الالم منها كان لها الشفاء · وان كان الداء داخلياً حملت المرأة الحجر عَلَى رأسها وطافت بالمسجد حول الضريح · وان كانت عاقراً تبتغي ولداً مسحت بالحجر بطنها · وإنّ خارج المسجد بئراً يحقق الغسلُ بمائها ما قد يعجز عنه الحجر العجيب · بل ان في ذلك الماء قوةً تكيّف الجنين ليرضي حاملته المؤمنة · فهي اذا اخذت ثلاثة ادلية منه ، وصبتها على رأسها وجسدها ، وكان ما سبق من ولدها اناثا كلهنّ ، تنعم بمولود ذكر ! حسبك من جنيد هذه المعجزة ، وهو فيها منقطع النظير بين الاولياء ·

على ان هناك غيره من الاخصائيين ، فيقفون في البركة عند معجزة لا يعدونها · ان في هذه المقبرة القديمة تراب صوفيٍ آخر هو بهلول الذي كان معاصراً لهرون الرشيد ، ومؤازراً لابي النواس في منادمة ذلك الخليفة المرّيح · وانه اليوم ، وان كان من الابرار في الجنة ، ينافس زميله جنيد بالمعجزات ·

انما لبهلول طريقة طريفة ، توجب على الزائرين والزائرات ، وخصوصا الزائرات ، البناء والهدم في سبيل الله . فـان في ساحة المسجد الصغير ، كومات من الحصى متعددة ، هي بيوت القلوب ، اي ان كل كومة منها هي بيت بنته احدى الزائرت الناذرات ليحتوي منية قلبها . وبعد ان تتم المسكينة بناء بيتها تتوسل الى بهلول ، وتقسم انها لا تهدم ذلك البيت ، قبل ان يستجيب دعوتها . فهل يجوز ان تدعى المعجزة البهلولية اللعب بالحصى ؟ ما السبب اذن في ازدحام هذا المكان بالبيوت العامرة ؟ . . لا اهدم بيتي ، حتى تستجيب يا بهلول دعوتي . . . « وعمل كالسراب ، وقلب من التقوى خراب » . . . ذرهم في حوضهم يلعبون .



طوب ابو خزامه

ضريح المرأة المجهولة

الفصل السابع

الصوفي الاكبر

ما قاله عبد القادر الكيلاني في الحلاج — «شطاح العراق» — «انا الحق» — الحكم على الحلاج بالاعدام — بيلاطوس بغداد — ما قاله الحلاج للخليفة — الرأس الناطق والدم الكاتب — ورأس مار بولس برومه — الشرق والغرب يلتقيان — ما يزوى عن الحلاج — ما قاله الحلاج عن نفسه — ما قاله لاخته في منامها ·

ها نحن في ظلال — العفو ، يا قارئي · ليس في هذه المقبرة غير الشمس في النهار ، والظلمة في الليل · لا شجر ولا ظل بين هذه القبور · انما نحن واقفون وراء ظلنا الضئيل الذي يقبّل الان عتبة مقام حسين بن منصور بن ابي بكر الانصاري ، المعروف بالحلاج ، المشهور في الشرق والغرب ·

قال عبد القادر الجيلاني في الحلاج : «كان بازياً من بزاة الملك··· فلم يجد في السماء ما يحاول من الصيد··· فطلب في الارض ما هو اعز من وجود النار في قعور البحار · تلفت بعين عقله فما شاهد سوى الآثار · فكر فلم يجد في الدارين مطلوباً سوى محبوبه ، فطرب فقال بلسان سكر نفسه : انا الحق · ترنم بلحنٍ غير معهودٍ من البشر · صفر في روضة الوجود صفيراً لا يليق ببني آدم · لحّن بصوته لحناً عرّضه لحتفه · »

كان الحلاج مثل عبد القادر فارسي الاصل ، ولد في تل بيضا القريبة من شيراز ، وجاء العراق فقضى معظم سكرته الالهية ببغداد · وهو حقاً من اعظم السالكين ، واصدق المتصوفين ، بـل هو اشهر من ابتلوا بالعشق ، وتلذذوا بالبلايا · هو «صاحب الخرقة ، شطّاح العراق ، رئيس

السكارى والعشاق » .

ولكن جُنَيد أنكر ذلك . فقد قال مرة للحلاج : « فتحت ثغرة في الاسلام لا يسدها الا رأسك . » ما لنا والثلمة . امـا الرأس فقد طاح ، وبالتوحيد صاح . وماتبقى من صاحبه هو مدفون تحت قبةٍ في جوار خصمه الاكبر . وما جنيد وبهلول ومعروف الكرخي اذا ما ذُكر الحلاج ؟ فهو للسالكين في الشرق وفي الغرب النور الانور ، والعلمَ الاشهر .

« تفكرت في الاديان جدّ تحققٍ فالفيتها اصلاً له شُعباً جَمّا
فـلا تطلبن للمرء دينًا فانـه يصد عن الاصل الوثيق وانما(؟)
يطالبه اصـل يعبر عنـده جميعُ المعالي والمعـاني فيَفهَما »

وله غيرها في ديوانه من الحكم الالهية التي تبدو كفراً في ظـاهرها ، او هي من الكفر المبطن بالايمان . غير ان الذي اوجب الحكم عليه بالاعدام هو قوله : انا الحق . وقد اطلعتك على ما قاله عبد القادر الجيلاني في شرح الحال التي ادت بالحلاج الى ان ينطق بهذه الكلمة .

اما جنيد مُنكرها ومُخزي قائلها ، فقد جلس في كرسي القضاء وحكم حكمه ، بعد ان جمع اربعة وثمانـين من العلماء والقراء ليشهدوا « بان في قتله صلاح المسلمين . »

. . وجاء حامد بن العباس وزير الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥ — ٣٢٠هـ = ٩٠٨ — ٩٣٣م) ومعه موكبه وصاحب الشرطة محمد بن عبد الصمد ، فتقدم حامد الى الخشبة واخرج من كمه الدرج الذي فيه شهادة الفقهاء والعلماء فقال : « اريد الشهود . »

فاذا بالشهود يهرعون اليه من كل مكان .

فقال لهم : « هذه شهادتكم وخطوطكم ؟ » فقالوا له : « نعم ، اقتله ففي قتله صلاح المسلمين ودمه في رقابنا » .

أنزل الحلاج من الخشبة وتقدم السياف اليه ليضرب عنقه ، فقال الوزير (بيلاطوس بغداد !) للشهود : « امير المؤمنين بريء من دمه . »[1] فقالوا « نعم » . فقال : « وانا بريء من دمه . » فقالوا : « نعم » . فقال : « وصاحب الشرطة بريء من دمه . » فقالوا : « نعم . » لله انتم يا بيلاطوس البنطي ، ويا اخوان بيلاطوس ببغداد !

هذي هي صفحة من التاريخ ، وهناك صفحة اخرى من كتاب الاساطير . . . عندما ضرب عنق الحلاج ، بقي جسده ساعتين من النهار قائماً ، ورأسه بين رجليه ، وهو يتكلم بكلام لا يفهم ، الا ان اخر ما قال : احد احد . وكان الدم يخرج منه ، ويكتب به على الارض : الله الله ، في خمسة وثلاثين

---

(١) « وبلغنا ان الحسين بن منصور دخل على المقتدر بالله فقال : من اطاع الله اطاعه في كل شيء . فقال المقتدر : اذن لا تبالي بما سيفعل بك . فقال له : ثمَّ حاكم ومحكوم عليه وواسطة هي السبب في ايصال الحكم من الحاكم بالمحكوم عليه . . . انت الواسطة وانا عبد من عبيد الله صابر لحكم الله ، راض بقضاء الله ، فافعل ما حركت له ، واعمل ما استعملت فيه ، وكن بعد ذلك شديد الحذر ، فيما تأتي به وتذر . وانظر في عواقب امرك . . . واني لا اعترض عليك ، ولا الومك في فعلك ولكني اقول كما قال الخليل : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين . » فامر الخليفة بحبسه ، وجمع الفقهاء والصوفية في مجلسه فاستشارهم فكفره الفقهاء وتوقف عن تكفيره الصوفية — الا جنيد . »

من مخطوطة ذكرها لويس ماسينيون ونقل منها في الصفحة ٦١ من كتابه

Recueil de textes inedits concernant l'histoire de la mystique en pays d'islam Paris, Librairie Orientaliste.

موضعاً [١] ... وبعد ان ضُرب عنقه أُحرق بالنار ، فانتثر رماده في نهر دجلة وهو ينطق قائلاً : انا الحق !

***

قال الشاذلي : اضطجعت في المسجد الاقصى ، في وسط الحرم ، فدخل خلق كثير افواجاً ، فقلت : ما هذا الجمع ؟ قالوا : جمع الانبياء والرسل . قد حضروا ليشفعوا في حسين الحلاج عند محمد صلعم في اساءة ادب وقعت منه ...

***

وقيل انه قبل ذلك وضع بالسجن فصور في حائط المحبس صورة مركب وقال للمحبوسين : قوموا بذكر الله تعالى . ثم انهم فعلوا ذلك حتى غابوا عن الحبس . فاذا هم دخلوا المركب المصورة ونجوا جميعاً .

***

وقيل انه حفر حفرة ، واوقد فيها النار ، ووضع فيها هاون . ثم انه

---

(١) عندما ضرب الرومان الوثنيون عنق الرسول الشهيد مار بولس عليه السلام جرى من جسده الحليب بدل الدم (كذا في كتاب الاساطير الغربي) ووثب الرأس ثلاث وثبات علَى الارض ، فنبع في موضع كل وثبة عين ماء . ولا يزال المكان يدعى بالثلاث عيون «تري فُنْتانا» وهو في ضواحي رومه ، ولا يزال المؤمنون يؤمونه متبركين بمياهه ، ويشربون منها ، مع تحظير نظارة الصحة ، لانها مثل المياه في بئر جنيد ، تحبل العواقر ، وتشفي المجذومين . من ذا الذي يقول بعد هذا ان الشرق والغرب لا يلتقيان؟

ُصلي كالجمر ، وقال لاهل المدينة والاولياء : كل من كان صادقًا بالله فليتقدم ويقف على الهاون داخلاً النار · فلم يقدر احد · ثم انه تقدم ووقف عليه ، فذاب تحت قدميه حتى صار كالماء ...

* * *

« قال القاضي ابو علي التنوخي : حدثني ابو الحسن محمد بن عمر القاضي قال : حملني خالي معه الى الحسين بن منصور الحلاج وهو اذ ذاك في جامع البصرة يتعبد ويتصوف ... فاخذ يحادثه وانا جالس معه اسمع ، فقال لخالي : قد عملت على الخروج من البصرة · فقال له خالي : لِمَ ؟ قال : قد صير لي اهل هذا البلد حديثًا · فقد ضاق صدري واريد ابعد منهم · فقال له : مثل ماذا ؟ قال : يروني افعل اشياء فلا يسألون عنها ولا يكشفونها ، فيعلمون انها ليست كما وقع · ويخرجون فيقولون الحلاج مجاب الدعوة ، وله مغوثات · قد تمت عَلَى يده الطاف · ومن انا حتى يكون لي هذا ؟ بحسبك ان رجلاً حمل الي منذ ايام دراهم وقال لي : اصرفها الى الفقراء · فلم يكن يحضرني في الحال احد ، فجعلتها تحت بارية (حصير) من بواري الجامع ، الى جنب اسطوانة عرفتها ، وبت ليلتي · فلما كان من غد جئت الى الاسطوانة اصلي ، فاحتف بي قوم من الفقراء ، فقطعت الصلاة ، وشلت البارية فاعطيتهم الدراهم ، فشنعوا علي بان قالوا اني اذا ضربت بيدي الى التراب صار في يدي دراهم [1] · »

* * *

وقفت في حضرة الحلاج عند مائدة عليها ورقة مكتوبة فيها الاشعار

---

(١) من كتاب لويس ماسينيون Textes Inedits صفحة ٢١٧

التي قالها قبل ان ضرب السياف عنقه . وقد نظم الابيات ، عَلَى ما يظهر ، بعد ان علم بالحكم الذي اصدره جنيد . ولكنه سأل من جاءه بالخبر : اين صدر الحكم أفي التكية ام في المدرسة ؟ فقيل له : في المدرسة . وفي المسألة نقطة قانونية شغلت باله . فلو ان الحكم صدر في التكية لكان باطلاً لان الحلاج وجنيد فيها اخوان . اما في خارج التكية فجنيد القاضي يحكم بما يشاء ... وجاء الشهود ، وتبرأ من تبرأ من دم هذا الصديق ، فانشد الابيات المعروضة اليوم على المائدة عند ضريحه :

« نديمي غير منسوب الى شيء من الحيف
سقاني مثلما يشرب [١] كفعل الضيف للضيف
فلما بان لي سكر دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح مع التنين بالصيف »

... وبعدها نامت اخته فرأت في المنام . اخاها حسيناً وهو يقول لها : يا اختي ، الى كم تبكين علي ؟

فقالت له : كيف لا ابكي وقد جرى عليك الذي جرى ؟

فقال لها : يا اختي ، لما قطعوا يدي كان قلبي مشغولاً بالمحبة ، فلم ادرِ الا وهي طينة . فلما صلبوني كنت مشاهداً ربي ، فلم ادرِ ما فعلوا بي . فلما احرقوني نزلت علي ملائك ربي من السماء صباح الوجوه ، فاختطفوني الى تحت العرش ، واذا بالنداء من العُلى الاعلى : يا حسين ، رحم الله من عرف قدره ، وكتم سره ، وحفظ امره . فقلت : اردتُ التعجيل الى رؤيتك . فقال : تملاّ بالنظر فاني لا احتجب عنك . » [٢]

---

(١) اشارة الى انه كان تلميذاً لجُنيد . (٢) صفحة ٦٦ من الكتاب المذكور لماسينيون

الفصل الثامن

المرأة المجهولة

القبة الفريدة — المرأة الوحيدة — زبيدة والست زبيدة — الحب الخالد — المرأة الفاضلة — ضريح الجندي المجهول — ضريح المرأة المجهولة ·

بالقرب من ضريح الحلاج، لا مِن تصوفه الملهَم الملهِم، قبة فريدة بشكلها وهندستها، وبالنخلات القليلة التي تظللها · ما رأيت في بغداد غير قبة واحدة مثلها، هي لمقام الصوفي السُهروردي[1] خارج السور الى الجهة الشرقية منه · ان هندسة هاتين القبتين بويهية عربية · فالشكل الهرمي فارسي، والزخرف الداخل عربي، هو التقرنص · غير ان لهذا التقرنص وجهتين، خلاف ما نراه فوق ابواب الجوامع والخانات القديمة · فان بين المخروطات المنعكسة نوافذَ للنور مغطاة بالزجاج، فتبدو القبة للواقف تحتها كقبة من السماء مرصعة بالحجارة الكريمة · ومن تلك النوافذ الصغيرة ترسل الشمس اشعتها، فتبسط على ارض الحجرة بساطاً من الظل والنور يبدو كالمشبك تحت قدميك ·

---

(١) هو ابو الفتح شهاب الدين يحيي بن حسن الحكيم السُهْرَوردي، الذي اشرقت شمسه براغة من اعمال ازربيجان، في القرن السادس للهجرة، وغابت قبل اوانها بحلب · والسبب في ذلك ان هذا العالم المتصوف كان يُتهم بالكفر والزندقة، مثل الحلاج، فأفتى علماء الشهباء باباحة دمه، فحبسه سلطانها الملك الظاهر بن صلاح الدين الايوبي، ثم خنقه باشارة والده صلاح الدين — المشهور، بغير هذه الامور ! — في شهر رجب سنة ٥٨٧ وله من العمر ثماني وثلاثين سنة · و كان السُهروردي شاعراً، موفقاً بقصيدة واحدة، مطلعها اشهر منه · فهو القائل :

ابداً تحن اليكم الارواح　　ووصالكم ريحانها والراحُ

وليست هذه القبة الجميلة في جبّانة الكرخ لاحدٍ من الرجال اصحاب السيادة اوالكرامة او المال . بل هي لامرأة تدعى زبيدة . ولك ان تسأل : من هي تلك الزبيدة التي استحقت هذا الاثر الرائع ؟ ولي ان اجيب : لم تكن من اهل البر والتقوى ، من اهل الكرامات . فلو كانت كذلك لكان ضريحها اليوم مقاماً لابناء الاحلام ، وبنات الاساطير والاوهام .

ولكنها ، في نظر احد المصورين الانكليز ، الذي صور الضريح ليتاجر بصوره في لندن ، تمتُّ بالنسب الى من ذكرنا . فقد ادعى ذلك المصور التاجر — وطبع ادعاءه تحت الصورة بياناً بل ضلالا — ان هذا هو ضريح السيدة التي صنفت كتاب الف ليلة وليلة !

اما انها كانت من ذوات الليالي، من الجميلات الفاتنات، فذلك ممكن. ومما لا ريب فيه ان رجلاً واحداً صفا لها واخلص الحب حتى النهاية . اقول ذلك لعلمي — ولا اظنك تماريني به لعلمك او عدم علمك — انه يستحيل في الشرق اليوم ، وباولى حجة في الماضي ، ان تُكرَمَ امرأة هذا الاكرام الا لحب شخصي . فلا المعاهد العلمية ، ولا الجمعيات الادبية والنسائية ، ولا الحكومات « البرلمانيه » ، تبذل فلساً من اجل أثر تذكاري يقام لامرأة عظيمة .

وهل كان بين النساء العباسيات اعظم من الست زبيدة المشهورة بوفائها وبرها واحسانها ؟ وهل هي مدفونة تحت قبة مثل هذه الزبيدة المجهولة ؟ ان الست زبيدة التي يفاخر بها التاريخ مدفونة في مقبرة الخلفاء، مثل سواها من النساء ، ولا شيء يزين قبرها ، او يلطف الوحشة المخيمة عليه .

لذلك اقول ان هذه الزبيدة المجهولة مدينة لرجل من كرام الرجال بما يحضن ضريحها ، ويغمرها ، تحت جمال تلك القبة ، بالحب الابدي . اجل ، هو ضريح للحب الخالد ، تزوره في النهار اشعة الشمس ، ويزوره في الليل ضياء القمر والنجوم .

من عادات العالم الجديدة ، التي اوحت بها الحرب العظمى ، ان تقيم الامم ضريحاً للجندي المجهول . فهلا تنشأ في العالم عادة اخرى جديدة ؟ ان هذا الزمان ليمتاز عن الازمنة الغابرة بالاباحات المشروعة وغير المشروعة ، وبالخيانات الزوجية السرية والعلنية . ومع ذلك ما عُدم الزمان المرأة الفاضلة .

فالنساء الفاضلات البواسل ، اللواتي يجاهدن في بيوتهن ، ويستبسلن في سبيل الحب والسلام ، او في سبيل السلام وحده ، النساء الكاظمات ، الصابرات ، الورعات ، الحافظات امورهن ، وامور بنيهن واهلهن ، الباذلات نفوسهن من اجل ازواجهن وابنائهن ، النساء اللواتي تتقدس في حياتهن الامومة والاسرة ، انهن علَى الدوام مجاهدات مستبسلات في كل مكان .

احب ان اتخيل لنفسي ان الست زبيدة ، التي ترقد تحت هذه القبة ، هي من النساء اللواتي ذكرت — هي المرأة المجهولة — فاجثو امام ضريحها كما تجثو الامم في هذا الزمان امام ضريح الجندي المجهول .

وعندما ينفتح قلب بغداد لهذا الاحساس والادراك تصبح بغداد فريدة مجيدة بين المدن . بل يحق لها اذ ذاك ان تخاطب مدن العالم قائلة : عني خذوا وبي اقتدوا . وبودي — قل ما تشاء في عاطفتي هذه الانثوية — لو ان المدن تباشر العمل قبل بغداد ، فتبني كل مدينة كبرى ، الى جانب ضريح الجندي المجهول ، ضريحاً للمرأة المجهولة .

الفصل التاسع

غزوات الاثريين

أبهة الغزاة — المرأة في الغزو — بلَهنية حفار القبور — ما تحت الارض من انوار التاريخ — الغزاة من كل الامم — الامير كيون في قصر سرجون — تصحيح تاريخ آشور — شعب قديم جديد — خارطة العراق على طابوقة — روزنامة عمرها ستة الاف سنة — اين هي سلوقية ؟ — ما هي أكشاك ؟ — البرثيون ومن هم — هندسة شرقية غربية — الانكليز في أور — الكنوز في القبور — المدينة السومرية — شرائع حمورابي وشرائع سومر — الاعماق تنير جادة العلم — خليج فارس تحت اسوار أور — ابطأ ما يتحرك في العالم — اكتشاف عجيب — ملحمة كلكميش وسفر التكوين — الطوفان — أوتا نابشتيم نوح السومريين — وصف الطوفان — اين بني نوح فلكه — اين دُفن نوح — الزَقرة ، هرمُ السومريين — هيا كل تحت هيا كل ومدن فوق مدن — « ودفين فوق بقايا دفين » — اشنونا والمدنية الهندية — اشور تقتبس من أور — حمورابي نصير المرأة — السومري يلعب النرد — اين تذهب آثار العراق — البعثة الالمانية في أوروك — كنوز هيكل « اي آنا » — السرقات المتعددة — قسمة ضأزى — المدير الاجنبي والامين الوطني — العلم الغالي الثمن — عبد الرزاق لطفي — الاثار في حاجة الى اخصائيين وطنيين — توقيف الحفريات .

للنزل الذي كنت مقيماً فيه صحنٌ فسيحٌ مفروشٌ بالبلاط الابيض ، يرحب حتى بالسيارات . وفي ذات يوم ، ساعة الفجر ، سمعت صوت بوقٍ صخاب ، فاذا بسيارتين في ذلك الصحن ، وقد كساهما غبار الصحراء ، الواحدة عادية ، تظهر في موءخرها لوحة بلدية دمشق ، والثانية كبيرة فخمة ،

تحمل لوحة حمراء مطبوع عليها اسم مدينة من المدن الكبرى في الولايات المتحدة الاميركية . فسارع الى استقبال الركب مدير النزل الكلداني ، يحييهم بالانكليزية ، وتبعه الخدم لنقل ما أثقلت به السيارتان من الحقائب والرزم والصناديق .

ثلاثة رجال في معاطف من الجلد ، وهم حليقون ، بيض البشرة زرق العيون ، وسيدتان شقراوان جميلتان ، كل واحدة منهما في معطف من الفرو يندر مثله — ويندر مثلهما — في بغداد . قلت: سياح من اغنياء الاميركيين . وقلت : سفير من السفراء . فكنا قد سمعنا ان السفير الاميركي المعين جديداً لايران سيمر في ذلك الاسبوع ببغداد في طريقه الى مركزه بطهران .

بادر الخدم الى السيارتين ينقلون ما حملتاه من حاجات الاسفار ونوافلها . وما اكثرها عداً وشكلا — حقائب وصناديق كبيرة وصغيرة ، واكياس من الجلد ومن القماش ، واحرمة ومعاطف وشالات ، وعلب لبرانيط النساء والرجال — المسافر ولا غرو سفير او سري .

ثم جاء ما ينبئ بغير ذلك . وما اكثر ما استخرج من داخل السيارتين . كانما الخدم من السحار وكانما السيارة قبعة سحر يخرجون لك منها حتى بالة من القطن . وهذه قِرَب من القماش وجزم طويلة من المطاط ، ومعاطف من جلد الغنم ، وصناديق من الصودا والمياه المعدنية ، والآت للكتابة ، وللتصوير ، وللمساحة ، وصندوق من اللحم المقدد ، وعلبة كبيرة ، فيها علب صغيرة ، فيها سحيق لقتل البرغش !

ليس القادم سفيراً اميريكياً ، ولا هؤلاء بسياح اغنياء . انما هم الطليعة لبعثة اثرية اميريكية . اجل فقد تغيرت الاشكال بعد الحرب العظمى ، كما

تغيرت الاخلاق · فصرنا نرى العالم فنظنه سفيراً ، والسفير فنظنه تاجراً او متجولاً ، والمتجول السائح فنظنه من اهل الورع والتقشف ·

اما ذلك العالم المحدودب الظهر ، الكث اللحية ، اللابس ثوباً بالياً ونظارات مصدئة ، المتأبط كتابه ، الحامل حقيبته بيده ، فقد امسى اثراً من الآثار ، وجاء عالم اليوم رجلاً بهي الطلعة ، حليقاً نشيطاً ، وردي الخد ، متقد الباصرة ، انيقاً كيساً ، تظنه في اسفاره سفيراً · وان ما يتقاضاه ثمن علمه وعمله لاكثر مما يتقاضاه السفير ، فيغدو وبامكانه ان يصطحب امرأته او حبيبته او رفيقته الى مكان عمله · وقد تكون السيدة المرافقة عضواً من البعثة ، قد تكون من الغزاة · ذلك لان علم الآثار ، بعد الحرب العظمى ، اضحى من العلوم المثمرة — مادياً — فتهافت عليه من اهل العلم الرجال والنساء ·

فلا تعجبن اذا كانت تلك الحسناء الملتفة بمعطف من الفرو الغالي ، المخبئة سهام لحظها وراء نظارات زرقاء ، الحاملة حقيبة تحتوي على اسباب التبرج كلها — من المكحلة الى الاصبع القرمزي — لا تعجبن اذا كانت اخصائية في العلوم والآثار الاشورية ·

انها لأهل في كل حال لمشاركة زوجها ، او خطيبها ، او حبيبها ، او رفيقها ، مسرات الاسفار ، وحفر الآثار · اجل ، هي اهل لان تتمتع واياه بملذات الحياة في حفر قبور الاقدمين ، وخصوصاً في البلاد الشرقية ، الغنية في روحها ، وفي ما تحت ارضها ·

واذا كانت القبور لا تستهوي هذه الامرأة الغازية ، فهناك في موضع التنقيب دار فسيحة جميلة تقيم فيها ، وهي السيدة الآمرة الناهية ، كانها

ملكة أور ، او اميرة من اميرات اشور ٠

وبكلمة اخرى هي ربة بيت البعثة ، المفروش باحدث انواع الاثاث وافخرها ، المجهز بالانوار الكهربائية وبالحمامات ، الحافل بالكتب والصور والرسوم ٠ قلت بيت البعثة فاخطأت ٠ ان لكل بعثة من البعثات الكبيرة بيوتاً عديدة ، فهذا بيت الادارة ، وذاك للرسم والتصوير ، والثالث للاعمال الكيماوية والمكانيكية ، وهذا مخزن البعثة ، وذاك بيت خدامها ، والآخر بيت لسياراتها ، فضلا عن بيوت الحيوانات الداجنة ٠

والجامعات الاميريكية الكبرى تعين هذه البعثات او تنفق في سبيلها النفقات الطائلة من اموالٍ يهبها المحسنون ، او من وقفيات يقفها المتمولون على العلم والثقافة ٠ فهل تستحق الاعمال الاثرية — والاثريون والاثريات — كل ما ينفق منها في هذا السبيل ؟ ان لهذا السوءال جوابين ، جواباً يتعلق بما يحرَز من العلم ، والآخر بما يحرز من نفائس الآثار ونوادرها ٠ وللقارىء ان يجيب على السوءال من ناحيتيه ، بعد ان يقرأ بياننا عن الغزوات الاثرية في العراق ٠

* * *

لا اظن ان في العالم بلاداً تعددت فيها البعثات الاثرية تعددها اليوم في العراق ٠ ولكن العلم بتاريخ البلاد القديم كان يقصر، منذ نحو عشر سنوات، على المملكتين الكلدانية والاشورية ، وعاصمتيها بابل ونينوى ٠ اما بعد ذلك ، اي منذ سنة ١٩٢٢ ، عندما باشرت البعثة الانكليزية الاميريكية التنقيب في أور ، فقد ُفتح كنز من كنوز العلم جديد ، وكنز اخر من الآثار

العجيبة، والتحف الثمينة، التي زادت بغناء المتاحف الانكليزية والاميريكية، وكانت الباكورة في تأسيس متحف صغير ببغداد ·

اذن لقد اصبح علمنا بتاريخ بلاد الرافدين علمين، علماً بماضيها البعيد، وعلماً بماضيها الابعد · وما بابل ونينوى في القدم الى جانب ما تقدمها من المدن والدول ؟ اني لأتخيل علماء اشور يحدثون في زمانهم ، كما نحدث نحن في زماننا ، عن ثقافة الحوريين ، وفتوحات الغيلاميين ، ومجد السومريين الاقدمين ·

وفي وصولنا الى اعماق أُور ونوزي قد لا نكون ادركنا الاوليات · فقد يجوز لنا ان نسأل : وبعد أُور ماذا ؟ او من هم اجداد السومريين ؟ ومن اين استمد اهل أُور نورهم — من اين استقوا معارفهم ؟ ان الاثريين مستمرون في الحفر والتفتيش ، في اعماق الارض ، وفي القبور ، طالبين العلم والنور · فهم يخترقون طبقة بعد طبقة من الارض ، ويعثرون في كل مكان من بلاد الرافدين الصغيرة ، على مدن مدفونة تحت المقابر ، وعلى تلال متهدمة تحت إساس الهياكل والقصور · لقد كسفت أور الكلدانيين بابل ونينوى · وهناك غير أور من المدن القديمة المكتشفة ، التي كانت مدفونة بعضها تحت بعض ، منها أُروك ولرسا ولاكاش وإشمونا وكيش ونوزي وسلوقية · فلا عجب اذا اجتذب العراق الاثريين ·

ان في البلاد اليوم ثلاث غشرة بعثة اثرية منها ست بعثات اميريكية ، وبعثتان مشتركتان اميريكية وانكليزية ، وبعثة المانية ، واخرى بريطانية ، واخرى فرنسية ، واخرى طليانية ، واخرى بعثة مشترك فيها الاميريكيون والالمان · ففي الشمال ينقب الانكليز في نينوى، والاميريكيون في خورسباد،

وفي تل بلا وتبه غورا ، وفي نوزي و كركوك . وفي وسط العراق ، في اشمونا وخفاجي وسلوقية ، بعثات اميريكية اخرى . وهناك بعثة مشتركة اميريكية المانية ، في تيسفون ، واخرى اميريكية انكليزية ، في كيش . اما في الجنوب فالالمان ينقبون في الوركاء ، والفرنسيس في كيش ، والامير كيون والبريطانيون في أور . ثم جاء اخيراً الاثريون الطليان فاعطوا امتيازاً للتنقيب في مكان يدعى كسكسو على ضفة نهر الزاب الكبير . وقد اكتشفت هذه البعثة الطليانية مقبرة من عهد البرثيين [١] ومدينة اقدم منها من عهد سنحاريب [٢]

ولكن اهم البعثات التي تنقب في الشمال هي البعثة الاميريكية في دور شروقين التي تدعى اليوم خورسباد . فقد حفروا الى قلب التل الذي بنيت عليه بيوت البعثة ، وهم من ايوان بيتهم الجديد المنار بالكهرباء يطلون على غرفة العرش في قصر سرجون الثاني تحتهم . وقد اهتدوا الى سور المدينة ، مدينة خورسباد ، التي بناها ، على ما يظن ، الاسرى الاسرائيليون الذين كانوا قد أُجلوا في ذلك العهد عن فلسطين . واكتشفوا شيئاً كثيراً من

(١) البرثيون (Parthians) كما يسميهم الاوروبيون . وقد دامت دولتهم برثيا اربعمائة وخمسين سنة (٢٤٩ ق . م — ٢٢٦م) ونشأت في القسم الشمالي الغربي من ايران ، وكانت حاضرتها الاولى في مقاطعة قومس ، ثم نازعت السلوقيين السيطرة على ايران . ولكن البرثيين لا يُعرفون بهذا الاسم في التواريخ العربية . فقد اسماهم العرب أشكان او أشقان من اسم ملكهم الاول أشك ، وقالوا ان الاشكانيين كانوا اعظم ملوك الطوائف الذين نبغوا في بلاد الفرس بعد الاسكندر .

(٢) سنحاريب هو الملك الذي غزا فلسطين وعاد منها مدحوراً . وهو المخرِّب الوحيد في العالم الذي استخدم الماء في حروبه . فقد حمل على بابل بعد غزوته الفلسطينية فاتخذ الفرات حليفاً له ، فسلطه على عاصمة الكلدانيين فخرَّبها — وكان من الفاتحين !

التماثيل الاشورية الضخمة السليمة والمحطمة ، المصنوعة من انواع الرخام التي نشاهدها اليوم في ابنية الموصل ·

ولكن قيمة الآثار لدى ناشد العلم ليست بحجمها ولا بزخرفها · وقد تكون ظاهراً قطعة صغيرة من الفخار او المعدن ، نبشها معول احد العمال او برزت من تحت محراث احد الفلاحين · مثال ذلك صفحة من الآجر بقدر حجم اليد ، عُثر عليها في المكتبة بقصر سرجون ، وعلى وجهيها كتابة مسمارية · هي ذي اذن اهميتها · فان في تلك الكتابة وجد العالم الاخصائي — الاسيريالوجي — جدولاً باسماء خمسة وتسعين ملكاً من ملوك آشور ، وما كان يُعلم من قبل غير نصف هذا العدد منهم · اذن، سنصحح تاريخ آشور · فان اول ملوكها هو غير الذي حكم في القرن التاسع قبل المسيح · اول ملوكها، حسب السجل المسماري الصغير، جلس علَى العرش قبل ذلك الزمان بالف وخمسمائة سنة ، اي في منتصف سني الالفِ الثالثة قبل المسيح ·

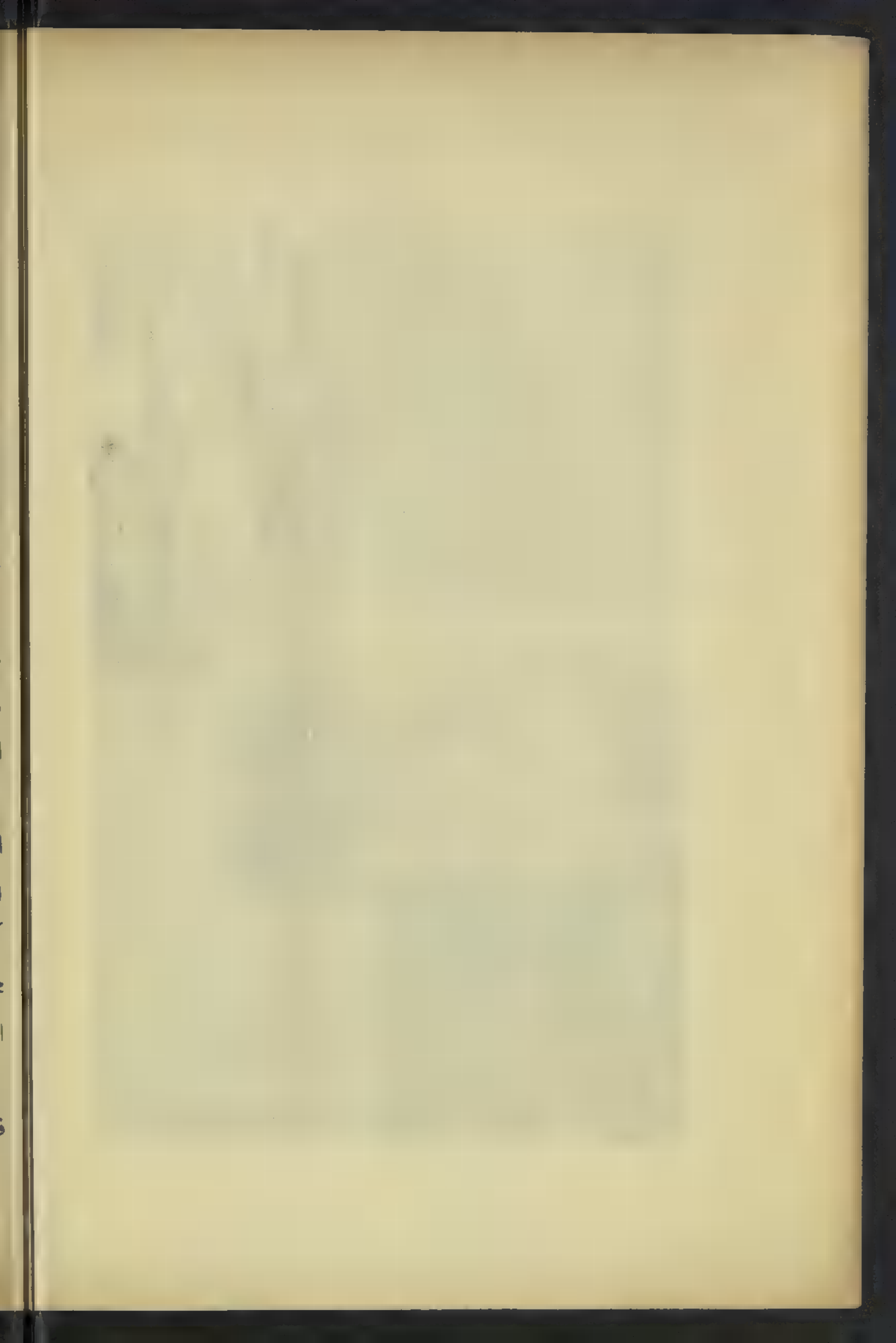
ويظهر ان البعثة الاميريكية الاخرى التي تقوم باعمالها في نوزي ، المكان الذي يدعى اليوم تورقالان ، تثبت ما تقدم · فقد اكتشفت عدداً كبيراً من المخطوطات التي تبعث النور في تاريخ شعب كان مجهولاً ، هو الشعب الحوري · قرأ الاخصائيون تلك المخطوطات فاذا فيها عن شؤون الحوريين، وصلاتهم بالشعوب الاخرى المعاصرة لهم، ما هو ذو قيمة اقتصادية وتاريخية وجغرافية · والقيمة الجغرافية اكبرها ، لانها اول اثر لهذا العلم عند اولئك الاقدمين ·

اجل ، قد اكتشف الاثريون في نوزي اقدم خارطة عرفها العالم · هي خارطة رُسمت على طابوقة من الطابوق المشوي ، وظهر فيها نهرا العراق

لوحة من خشب للعب النرد مطعمة بالصدف
وحجارة اللازورد وجدت بالمقبرة الملكية
بأُور

أور الكلدانيين
حيث تنقب البعثة
الاثرية الانكليزية
الاميركية

مجوهرات من عهد البرثيين
وجدت في سلوقية



الكبيرين ، وقسم من جباله ، وعدد من مواقع المدن الشمالية القديمة

وقد استنتجوا من بعض تلك المخطوطات ، ومن شكل الهياكل ، ان الحوريين كانوا يدينون بدين الآشوريين، وزعموا ان آثارهم تساعد في درس تطور المدنية الآشورية ·

وقد تدحض هذا الزعم، وتفسد ذاك الاستنتاج، بعثة اخرى اميريكية، هي التي تنقب في اطلال بعشيقة والفاضلية في تلّي بلا وتبه غورا · فقد ادركوا في الحفر طبقة ما قبل التاريخ ، واكتشفوا دفائن يرجع عهدها الى ٥٠٠٠ سنة قبل المسيح ، وزعموا ان الانسان سكن هناك في العصر الحجري · وقد قال مدير البعثة في خطبة القاها في بغداد ان الاهمية في ما اكتشفه هي ان مدنية السومريين في دولة أور الاولى (٣١٠٠ ق·م·) كانت منتشرة في بلاد الاشوريين · ولكن آشور ، بحسب الجدول المسماري الذي تقدم ذكره ، لم تكن موجودة في ذلك الزمان ! أثري يبلبل اثرياً ، وطالب العلم يلجأ متورعاً الى — الله اعلم ·

ولكن اولئك الاثريين المبلبلين كانوا موفقين في مكان اخر من هذا العراق ، وذلك في سعيهم لاصلاح خطأٍ يتعلق بمدينة سلوقية · فالبعثة الالمانية التي تشتغل في تسيفون تقول ان ما ادعته سابقاً ، وهو ان سلوقية كانت علَى الضفة اليمنى من نهر دجلة ، هو خطأ · ثم تقول ان النهر غيّر مجراه في ذاك المكان ، فشطر تل تسيفون شطرين ، وان عاصمة الدولة السلوقية كانت الى غربي سور المدينة ، اي على ضفة النهر اليسرى ·

وهناك في المكان الواحد تزاحمت البعثات وتباينت الاغراض · فبينا كانت البعثة الالمانية مكدة في اصلاح غلطها ، اي في نقل سلوقية

من ضفة النهر اليمنى الى ضفته اليسرى ، كانت بعثة جامعة ميشيغان الاميريكية تحفر الطبقة بعد الطبقة من الارض لتكشف مدينةً سومرية اسمها أكشاك ٠

وقد ظفرت كل بعثة بمبتغاها ، وبالادلة على اثبات افتراضها ٠ فتلك التلال الصغيرة المتعددة ، في ذلك السهل الفسيح ، هي ما تبقى من المدينة الاغريقية الشرقية سلوقيه ٠ وتحت تلك التلال المدينة السومرية أكشاك ٠ هذا ما يبدو للاثري في المرحلة الاولى من عمله ٠ ثم يجيئك في المرحلة الثانية بالبرهان والدليل ٠

فالدليل على كون تلك الكوم من التراب والحجارة هي ما تبقى من سلوقية هو في ما وجدوه من الحفريات ٠ ومنها تماثيل من الخزف صغيرة ، اغريقية الصنع والمغزى ، واختام مختومة في الحمّر ، ومكتوب عليها « الدائرة السلوقية لضريبة الملح » ، ونقود تحمل اسماء بعض ملوك سلوقية ٠ اذن هذه سلوقية ولا ريب فيها ٠

اما أكشاك فقد وجدوها في الطبقة الرابعة مدفونة تحت سلوقية ٠ والدليل على ذلك بلاطتان من الحجر لِصوص الباب منقوش في احديهما كلمات سومرية واسم ملك اكشاك ٠

اكشاك وسلوقية — سومر والاغريق ! اجل ، قد وجدوا في بعض ما تبقى من حياط البيوت اثار هندسة مختلطة تجمع بين اساليب شرقية ويونانية ٠ وبعضها انتقل بعدئذ الى الفرس الساسانيين والعرب المسلمين ٠ ولا يزال امثلة منها قائمة في ايوان القصر بتسيفون وفي خرائب الحضَر ٠ انه لعلم جليل ٠

على ان البعثات الاثرية لا تعمل للعلم فقط . فهناك المتاحف والجامعات التي انتدبتها ، وهناك تزاحم بينها وتفاخر . وهناك نفقات لا بد مما يقابلها في الاقل من التحف والآثار . لذلك لا تكتفي البعثة بكشف قبر واحد او عشرة قبور ، لا سيما اذا كان فيها اثار نفيسة ، وان تشابهت . فقد كشفوا في سلوقية مائتي قبر ، وعثروا فيها على مائتين وخمسة وسبعين شكلاً من الاواني الخزفية ، وعلى خمسين شكلاً من القناديــل البرثية (الأشكانية) ، ناهيك بالتحف والحلى .

وما هذا بشيء اذا قوبل بما اكتشف في الجهة الجنوبية من المقبرة العراقية العظمى ، اي في بلاد السومريين . هنالك البعثة الكبرى ، وهنالك الكنوز الاثرية . العفو . ينبغي ان اقول كانت هنالك ، وهي اليوم في المتحف البريطاني بلندن ، وفي متحف جامعة بنسلفانيا بفيلادلفيا في الولايات المتحدة . اما ما تراه ، ايها العراقي العزيز ، في متحف بغداد فهو جزء صغير ، صغير منها .

وما اعجب ما تراه حتى في قسمة بلادك الضازى ، ان كان من الحلى والجواهر ، او من الاواني الخزفية والتماثيل ، او من الاختام والتحف والمواعين . فهاك مكحلة سيدتي السومرية ودبابيس شعرهـا . وهاك اكليل الملكة شَباد ، واوراقه الشبيهة بورق الورد مصنوعة من الذهب ، وهاك قلادتها ، وفيها مائة حجر كبير وصغير من الياقوت واللازورد . وقد وُجد في قبر هذه الملكة السومرية ، مع حلاها وجواهرها ، قارب من الفضة ، هو ذكرى نزهاتها ، ولا ريب ، في نهر دجلة .

وماذا كان مدفوناً مع صاحب الجلالة العظمى ملك الارض وبطلها الاكبز ، موش كلام دوغ ؟ فان الخوذة التي كان يلبسها الى الحرب لمن

الذهب الابريز، وكذلك سنان الرماح والفؤوس سلاحه . وهاك خنجراً من الذهب نصابه من اللازورد ، وقرابه من الذهب المسلسل الدقيق الصنع . وهاكم ، يا غواة الموسيقى ، قيثارة الملك المرصع صندوقها بالذهب وحجارة اللازورد والياقوت . وان انفس واثمن مـا اكتشف في مقابر الملوك باور الكلدانيين كبش من الذهب الخالص ، صوفه من المعدن والحجارة الكريمة ، وهو واقف عند جذع شجرة ، ذات اغصان مثمرة صيغت كلها من الذهب . الذهب ! لقد كان في ذلك الزمان ، على ما يظهر ، ابخس من الحديد، فصنعوا منه حتى الخناجر وسنان الرماح !

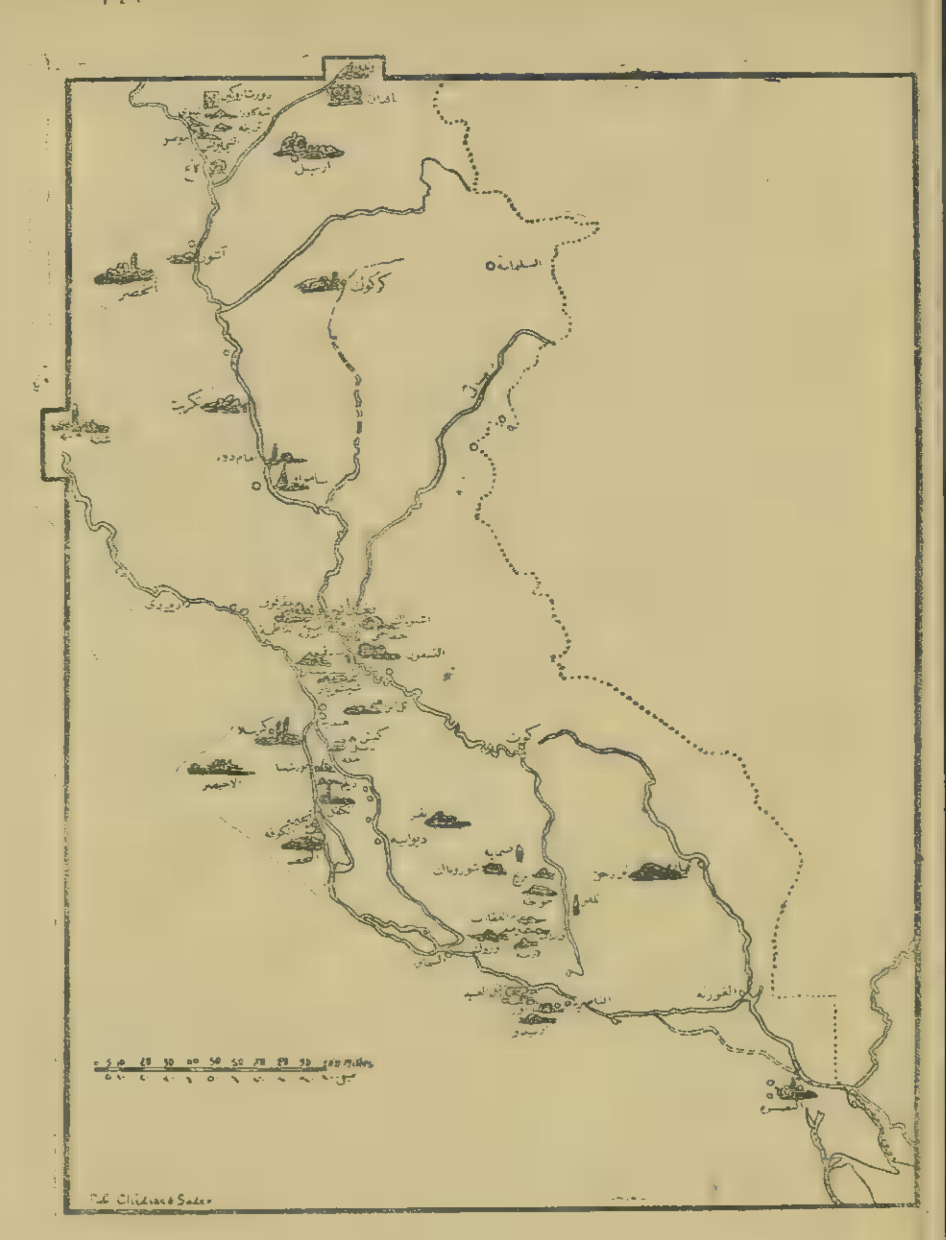
اما الحلى المتنوعة ، صيغة وشكلاً ، فان في متحف بغداد جزءاً صغيراً منها ، لتمتع به سيدتي البغدادية نظرها . ولتعلم سيدتي أن اختها السومرية ، التي كانت تسرح شعرها ، او تجلس للماشطة ، في هذه الشمس شمسنا ، وعلى ضفة هذا الفرات فراتنا ، منذ خمسة الاف سنة ، كانت تنام على سرير ، وتجلس عَلَى كرسي ، وتمد خوانها على مائدة ، وتفرش بيتها بالطنافس .

وذلك الذي بنى بيتها ، ذلك المعماري السومري ، هو الذي اخترع القنطرة والعقد في البناء . وهو اول من استوحى شجرة النخل فأوحت بالعمود اليه ، فظهر العمود لاول مرة في قصور أور وهيا كلها .

ومما هو جدير بالذكر ان شرائع السومريين وصناعاتهم كانت مصابيح علمٍ وهدى لمن جاءوا بعدهم . فعندما اكتشف الاثريون نينوى ، منذ نحو خمسين سنة ، قالوا ان شرائع موسى مأخوذة من شرائع حمورابي [1] .

---

(١) كان حمورابي نصير المرأة في زمانه . فقد سن شرائع تختص بها فكان من حقها ان تتعلم القراءة والكتابة وان تبيع وتشتري في السوق مثل الرجال .



خريطة العراق الأثرية

واليوم يقول لنا الاستاذ لِنرد وولي مدير بعثة أور ان شرائع حمورابي مستمدة من شرائع سومِرْ، ولم يكن في موضع مدينة نينوى أثر للبناء يوم كان السومريون قد وصلوا (٣١٠٠ق٠م٠) الى درجة عالية من العمران٠

ولك ان تسأل: الى اي حد من عمق الارض حفر الاثريون ليدركوا هذا العلم كله؟ عندما وصلوا الى مدافن دولة أور الثالثة، اي الاخيرة، استمروا في الحفر فاخترقوا خمس طبقات من الارض، كل طبقة منها تمثل دوراً من ادوار التمدن بما اكتشف فيها من الاثار التي تختلف عما اكتشف في الطبقة دونها٠ وقدحفروا حتى تحت الطبقة الخامسة فوصلوا الى التراب البكر، اي الطين الراسب على ضفتي النهر٠

اما اكتشافهم هاهنا فهو اهم من كل ماتقدم ذكره٠ ان لسكة الحديد اليوم، بين البصرة وبغداد، محطة في أور، هي على مائة وعشرين ميلاً من البصره٠ والبصرة هي على ثلاثين ميلاً من خليج فارس٠ ولكن امواج هذا الخليج كانت تتلاطم في ذلك الزمان تحت اسوار أور الكلدانيين، فتكون مياه الخليج قد عادت القهقرى مائة وخمسين ميلاً في خلال خمسة الاف سنة ويزيد، اي ثلاثة اميال كل مائة سنة٠ ولكن الحلزونة تجتاز الثلاثة اميال — اذا تركها الانسان وشأنها — بشهر واحد في الاكثر٠ ان حركة البحار، وهي تتقدم في البر او تتراجع عنه، لأبطأ حركة في العالم٠

قلت ان أور كانت على البحر٠ والاصح انْ يقال ان البحر كان عند أور٠ فكيف عرف الاثريون ذلك وتحققوه؟ عرفوه بالمطالعة، وتحققوه بالمعول والمِسحاة٠ فلو لم يقرأوا في كتب اختصاصهم ان في عهد الاحتلال البابلي لاور «كان في المدينة هيكلان لنبوخذنصر ونابونيدوس يدعيان

بهيكلي الميناء » لما عدوا حدودهم الاثرية الى ما دونها – الى ما يختص بعلماء الجيولوجيا–واستمروا يحفرون حتى ادركوا طبقة سمكها ثلاثة امتار من رمال شاطىء الخليج !

وهاهنا اكتشفوا الاكتشاف الثالث العجيب الذي جاء ذكره في ملحمة كلكميش . وما ملحمة كلكميش بذاتها اعجب من رمال شاطىء الخليج . انما هي اعجب في ما تشير اليه بل في النبوءة التي تحتويها .

جاء في تلك الملحمة :

« ان الالهة لغاضبون غضبة شديدة . وسيمحقون الجنس الانساني ، سيغرقونه اغراقاً في البحر . »

ولكن إنكي احد الالهة حمل السر الى أوتا نابشتيم ، ذلك الرجل الصالح ، الساكن في قرية شورورباك على الفرات ، وأوصى اليه بطريقةٍ للنجاة ، فبادر نابشتيم الى بناء سفينة مثل فلك نوح .

ثم يقول نابشتيم في ملحمة كلكميش :

« وحملت في السفينة كل مالي —
كل حصاد الحياة جمعت في السفينة —
اسرتي واقاربي ،
والحيوانات في الدور والمواشي في الحقول ، والصناع والخدم .
ادخلتهم السفينة جميعاً واقفلت الباب .

وعصفت الرياح ، وهاجت البحار ،
ستة ايام وست ليالي ،
طغت الاعاصير والمياه ! فغلبت الارض وغمرتها .

ولما انبلج فجر اليوم السابع خفتَ صوت العاصفة ،
وتقهقر البحر الذي كان يحارب كالجيش الفاتح ،
وسكن وجه اليم ، وسكتت الرياح ، فتوقف الطوفان .
ونظرت الى البحر فاذا هو هادىء كالنور ،
ونظرت الى البشر فاذا هم كلهم كالوحل .

وبعد ذلك أطلق نابشتيم طيراً من الحمام ، وترك سفينته على رأس الجبل ، وقدم ذبيحة للآلهة .

هي ذي قصة الطوفان السومرية . وان رمال الخليج دليل على ما جاء في ملحمة كلكميش ، كما يقول الاستاذ وولي . وهناك دليل اخر في الخزف المدهون الذي وجدوه تحت اكوام الرمال وفوقها .

ومن كلكميش الى كاتب سفر التكوين — مَن يعرف الصلة والسبيل ؟ من ذا الذي يستطيع ان يقول ان أوتا نابشتيم هو نوح او غير نوح ؟ او ان موسى قرأ ترجمةً كلدانية لملحمة كلكميش ؟

اما ان لنوح اثاراً في هذه الديار فاهل الكوفة والنجف اليوم يعرفون . وقد كان من حظ المؤلف ايضاً ان يعرف بعض ما يعرف اهل الكوفة والنجف . ان في الصحن الفسيح لمسجد الامام علي بالكوفة حوضاً جافاً ، او مكاناً مجوفاً ، اذا ما سأل الزائر عنه احد الكوفيين قال له : هو المكان الذي بنى فيه سيدنا نوح عليه السلام فلكه قبل الطوفان . واذا ما زرت النجف ، ايها القارىء ، وكنت من المؤمنين الجعفريين ، ودخلت الحضرة ، فعليك ان تلقي هذا السلام : السلام عليك يا علي وعلَى ضجيعيك آدم ونوح .

اذن لقد صنع نوح فلكه هاهنا في الكوفة ، ولقد دُفن بعد ذلك مع علي في جواره المبارك . والكوفة هي على النهر مثل اور في الماضي ، وقد كان موضعها بين سومر وبابل . فمن اين جاءت هذه الاساطير ، اساطير نوح والفلك ، وما علاقتها بملحمة كلكميش وسفينة نابشتيم؟ ان موضوعنا ، لسوء الحظ ، لا يتسع لهذا البحث .

لنعد اذن الى أور . فقد اكتشف الاثريون في كيش ، وفي خفاجي ، ما يثبت بعض اكتشافات البعثة الكبرى . ومهما تنوعت آثار الطبقات المختلفة ، فان هناك ، في كل مكان وزمان ، الرمز الاكبر ، الرمز السومري الشامل ، المجسم في الهيكل ، وفي ما هو اجمل بناء من الهيكل ، اي ذلك البناء الهرمي الذي يدعى زِقُّرَة[1] ، وهو مدرج موءلف من سبع طبقات ، الطبقة السفلى اوسع مما فوقها ، وما فوقها اكبر مما يعلوها ، كما هو ال « باغودا » عند الهنود . وقد بنى احد ملوك سومر زِقُّرَةً عصماء ، طُليت طبقاتها العليا بالفضة والذهب .

كانت الزِقُرَة معروفة في كل دولة من الدول السومرية الثلاث ، وامست كلها تحت الارض ، سليمة ومتهدمة ، الواحدة فوق الاخرى . فعندما وصل الاثريون الى زقرات الدولة الثالثة ، واستمروا في الحفر عثروا على بقايا زقرات الدولة الثانية ، وتحتها في الطبقة الثالثة بدت لهم اساس زقرات الدولة الاولى وقصورها وهيا كلها . تلول تحت تلول ، وقصور تحت قصور ، ومدن مدفونة تحت المدن وفوقها ، ومقابر اختلطت عظامها

---

(١) معنى اللفظة باللغة الكلدانية العلو والزهو

بعظام من دفنوا تحتها —

« ودفين فوق بقـايا دفين في طويل الازمان والآبادِ
خفف الوطأ ما اظن اديم ا‌ل— ارض الا من هذه الاجساد »

السومريون شعب مختلط اجتمع فيه العنصران الآري والسامي. وقيل انهم آريون اصلاً ، جاءوا من الشرق وتوطنوا جنوبي العراق في سنيّ الالف الرابعة قبـل المسيح ، ثم جاء الاكاديون -- العقاديون ? — فتغلبوا على السومريين في عهد الدولة الثالثة ، فاسسوا الدولة العقادية ، وجعلوا حاضرتها مدينة لاغاش القريبة من اور .

وبعـد ذلك جاء شعب من الجبال ، شعب متغلب فاتح ، هو الشعب العيلامي الآري ، فأسس مملكة في قلب العراق ، عاصمتها إشنونا او اشنوناك على مسافة عشرين ميلاً شرقي بغداد في المكان الذي يدعى اليوم تل عُمر .

وفي تل عمر بعثة اميركية موفقة في حفرياتها وغنائمها . اما الحفريات فقد اضاءت شيئاً من تاريخ تلك الناحية ، منذ سقوط الدولة الثالثة الأورية الى سقوط اشنونا .

ليس في هذه الدولة غير ملك واحد من الملوك الفاتحين على ما يظهر ، هو كيريكي ملك عيلام الذي اسس اشنونا واستولى عَلَى أُور . اما ابنـه الذي تولى الملك بعده ، فقد حاول ان يبسط سيادة عيلام على البـلاد السومرية كلها فصدّه عن ذلك العموريون الساميون الذين زحفوا على بابل من لبنان الشرقي ، وكانوا في ذلك العهد من الغزاة الصائلين المتغلبين. فحمل عليهم ملك عيلام ومـا كان موفقاً في حملته ، فعقـد واياهم صلحاً غريباً فريـداً في بابه .

قال بيلالاما ابن الملك كيريكي الى اولئك الغزاة العموريين : لا بأس من ان تغزوا في البلاد بشرط واحد — لكم الغنائم ولنا الارض . فلا عجب اذا كان عهد عيلام قصيراً في العراق . فقد دخلوا مثل غيرهم من الشعوب في حوزة الملك الآشوري السامي ، الملك الاكبر حمورابي (٢٠٦٧ — ٢٠٢٥ ق م)

وفي هذا العهد من التاريخ ، اي منذ سقوط الدولة الأورية الثالثة (٢١٧٠ ق . م) الى ان دخلت اشنونا في الدولة البابلية الكبرى ، تطورت عيلام تطوراً جديداً في حياتها الاجتماعية والصناعية . فقد اكتشف الاثريون الاميريكيون مخطوطات في القصر تدل على ان اشنونا كانت على اتصال في تجارتها بآسية الوسطى ، وان في صناعتها وحياتها الاجتماعية اثراً لمدنية الهند . اذن النفوذ الهندي في العراق يرجع الى القرن الواحد والعشرين قبل المسيح . ولكنه ضئيل بالنسبة الى النفوذ السومري . فان الشعوب السامية كلها — العقاديين والعموريين والاشوريين — اخذوا عن السومريين دينهم ، او في الاقل معظم طقوسهم ، كما اسلفت البيان ، وكانوا على الاجمال مقلدين لهم ، مقتبسين من انوارهم .

ومما هو جدير بالذكر تلك الاشياء التي كان يستعملها الناس في ذلك العهد القديم ، السابق للعهدين البابلي والاشوري . وهاك بعضها : القناديل المصنوعة من الحجر والصفر والفضة والذهب ، على شكل الاصداف البحرية ، وسنان الرماح والفؤوس من الذهب والفضة ، ومخطوطات من الآجر مغلفة بالخزف ومكتوب على الغلاف اسم صاحبها او موضوع ما تحتويه ، والمواعين من النحاس الابيض المطرق الشبيه بما نراه اليوم في سوق النحاسين

بغداد . ومسامير من الجص مدهونة بالدهان الاسود (٣٥٠٠ ق ٠م ٠) وجدت في كيش ، ومناجل واسياخ واوتاد ، واواني خزفية ومرمرية مزينة بالرسوم ، وجفان من الحجر الصوان ، واكواب من اللازورد ، ولوحات للالعاب مطعمة بالصدف . واعجب من ذلك كله قطع من العظم مكعبة ، ومنقطة بالدهان الاسود . هي حجارة النرد . فاذكروا ذلك يا من تريدون ان تقضوا عَلَى القمار في العالم . ان عمر « الظهر » خمسة الاف سنة !

* * *

هذه هي قصة البعثات الاثرية من الناحية العلمية والتاريخية . وهناك ناحية اخرى ذكرتها عرضاً في مطلع هذا الفصل ، ولا يجوز ان اختمه دون ان اعود اليها . فمن حق اهل العراق ان يعلموا بمصير آثار بلادهم القديمة . وعلَّ حكومة العراق تتشجع فتقدم عَلَى العمل الذي فيه صيانة هذه الآثار ، وحفظ حقوق البلاد في البعثات الاثرية .

كان الالمان ينقبون في اوروك ، اي الوركاء ، فاكتشفوا مخازن هيكل « إي آنا » العظيم ، ووجدوا فيها كنزاً من نفائس التحف والآثار المنقطعة النظير في الاكتشافات العراقية . فاعلمت البعثة القنصل الالماني ببغداد ، فسارع الى الوركاء . وماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد حدث ما يحدث دائماً في اعمال البعثات كلها . اني انقل للقارئ ما يلي من كتاب رسمي ارسله امين المتحف الى وزير المعارف . وقد كتب في اعلى الكتاب :

سري مستعجل

في ٣١ ك ١ سنة ١٩٣٣

اخبرني من اثق به بان قد زار موقع الوركاء الاثري في ١٣ و ١٤ ك ١

سنة ١٩٣٣ احد كبار رجال المفوضية الالمانية الذي قيل عنه لعمال البعثة انه القنصل الالمـاني ، وغادره في ١٥ منه . وكانت سيارة هذا الشخص —على ما اطلعني الخبر المومى اليه — فارغة عندما عبرت النهر الى جهة الوركاء ، وحاملة عدداً من الصناديق الخشبية عندما اجتازت النهر بواسطة قوارب العبرة في طريقها الى بغداد

ان السياسي ، في هذا الامر ، لكالأثري . انهما صنوان . وهناك طرق اخرى تمكن البعثات من السرقات . فالبعثة ترسل قسمتها من الآثار في صناديق الى البصرة ، فتخزن هناك في مخازن شركة البواخر التي تنقلها الى خارج العراق ، بدل ان تبقى في مخازن الجمرك الى يوم سفر الباخرة . وفي اثناء وجودها في مخازن الشركة ، يتمكن احد اعضاء البعثة من فتحها واضافة ما يريد اليها .

لقد اضطربت مديرية الجمارك لما تعدد من الاشاعات والاحتجاجات على البعثات الاثرية ، فطلبت ان تفحص الصناديق قبل ان تُشحن . وقد كتب مدير جمارك البصرة الى مديرية الآثار ينبهها الى ما يبعثه من الريبة ابقاء صناديق الآثار في مخازن الشركات حتى وصول الباخرة ، ويلح في وجوب فتحها وفحصها ، عل فيها ما لا يجوز اخراجه من العراق .

سمعت مديرية الآثار كل ذلك ، ومضت في امرها . ذلك لان المدير اجنبي — الماني — وهو يرى ان الآثار في اوروبه وفي اميريكه ، وخصوصاً في المانيه ، هي اضمن واسلم واكثر فائدة منها في بغداد . وهم يتذرعون بغير ذلك . هم يستعيرون كل نفيس ، وكل نادر من الآثار ليدرسوه ، ويصوروه ، ويعرضوه ، او ليصلحوه اذا كان مكسوراً ، او لينشروا رسمه ويكتبوا عنه في المجلات الاثرية . وبعد ذلك يعيدونه ، اذا كان من

قسمة العراق ، الى متحف بغداد .

فهل يعيدون ما يستعيرون ؟ لقد تصفح أمين المتحف قوائم القسمة لمجموع ما استخرجته بعثة اور الانكليزية الاميركية ، منذ سنة ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٣٣ ، فوجد ان ثلاثة الآف أثر ويزيد ، من الآثار التي تضمنتها تلك القوائم ، لا تزال مجهولة المصير . فكم يكون يا ترى عدد الآثار المجهولة عند ما يتحقق ما اخذته البعثات الاخرى ؟

يجب على المدير (مادة ٢٢ من قانون الآثار) « ان يختار من بين الاشياء المكتشفة ما يراه لازماً لاكمال المتحف العراقي من الوجهة العلمية ، وان يخصص بعد ذلك للذي أُعطي رخصة التنقيب عدداً كافياً من العاديات مكافأةً له عن اتعابه بصورة عادلة . »

ولكن وليّ القسمة مدير اجنبي ، وليس للوطني امين المتحف ما يقول . وان احتج واعترض وشكا ، فليس لوزارة المعارف ، ما زالت المفوضيات الاجنبية تهتم للبعثات الاثرية اهتمامها لمصالح بلادها التجارية والاقتصادية في العراق ، ليس لوزارة المعارف ما تقول .

فما الحيلة وما التدبير ؟ اليس توقيف اعمال البعثات خيراً من استمرارها في هذه الحال ؟ وهلا تستطيع الحكومة ان توقف الاعمال الاثرية كلها الى ان يصير في البلاد اخصائيون وطنيون ؟ أوَ ليس ذلك افضل من ان تذهب الآثار الى المتاحف الاوروبية والاميركية ؟

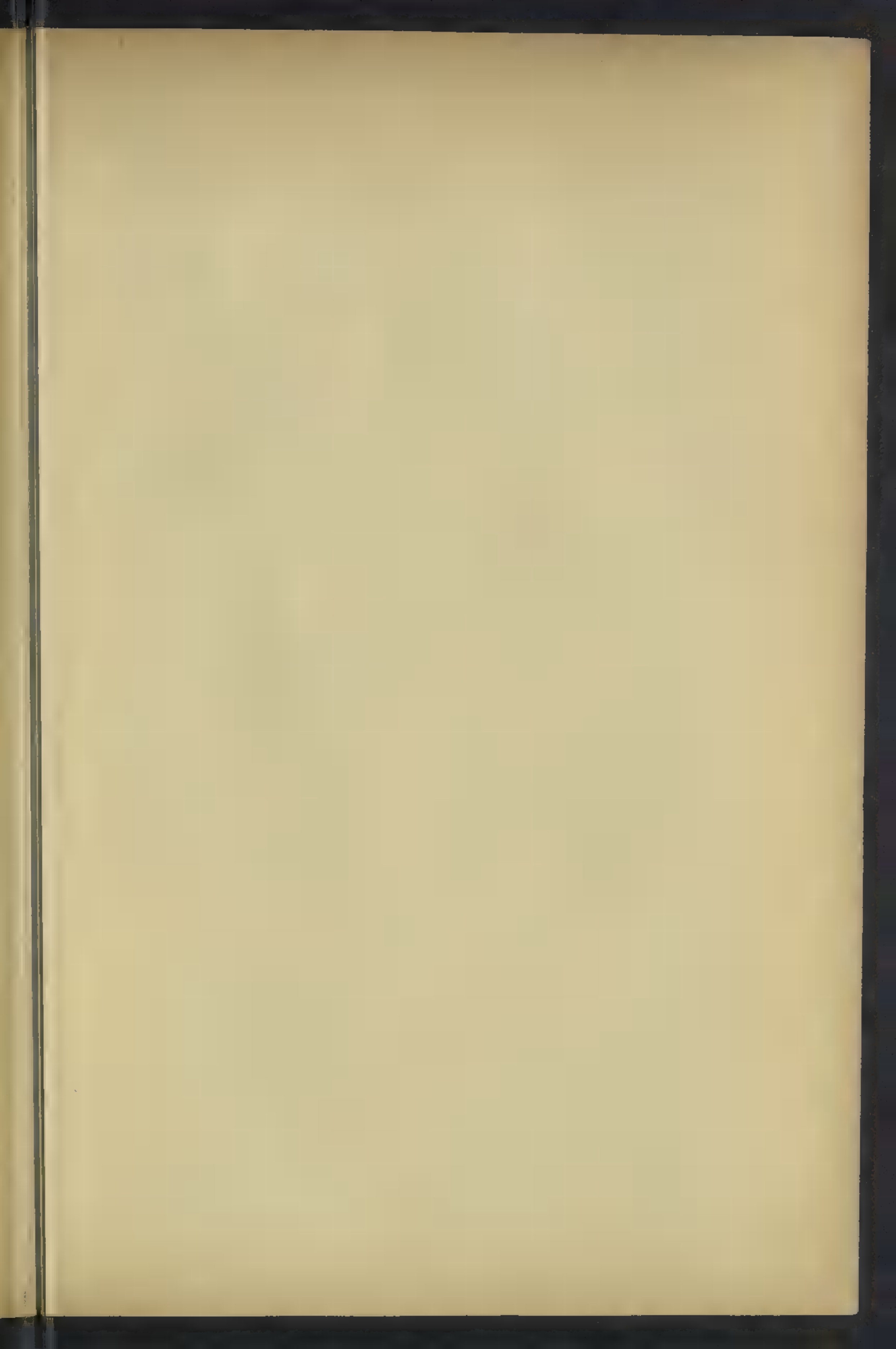
ان الحالة الحاضرة لحالة محزنة . فان كانت تنقصنا العلوم التقنية والاختصاصية ، ونحن في حاجة اليها ، فعلينا ان ندفع ثمنها مهما كان . وترانا ندفع ان كان في العراق ، او في سورية ، او في فلسطين ، اثماناً باهظة .

هذا المدير الالماني ببغداد يتقاضى الحكومة مشاهرة مائة وخمسين ديناراً ، ويمهد للبعثات سبيلها الغير علمي ، والغير قانوني ، والغير ادبي ·

وهذا امين المتحف الملتهب غيرة على وطنه ، وعلى آثار بلاده ، القائم باعمال المتحف الداخلية كلها براتب لا يتجاوز الثلاثـين ديناراً · ان الاستاذ عبد الرزاق لطفي لوطني من اصدق الوطنين ومن اشدهم غيرة على مصالح وطنه · وانه عالم عامل مجتهد ، ومثلما ارتقى في الماضي من كاتب نفوس في القرنة الى طالب علم بلندن ، يستطيع ان يستمر في طلب العلم الذي يميل اليه ، وقد تخصص له ، فيصبح اهلاً للمنصب الذي يشغله اليوم عالم الماني· استغفر الله · قد يكون اليوم اهلاً للمديرية ·

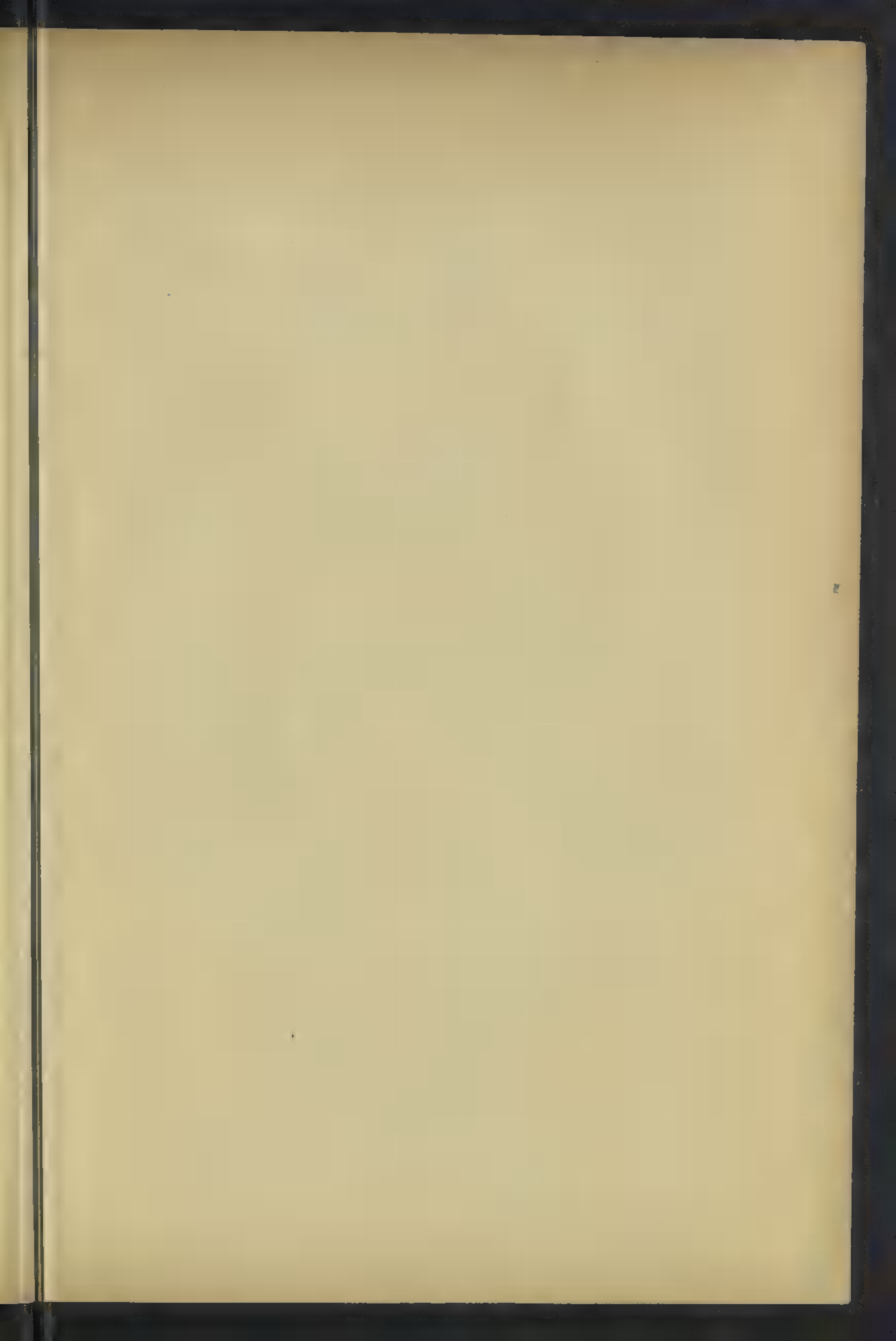
وفي كل حال ان العراق لا يخسر اذا توقفت اعمال البعثات الاثرية ريثما ترسل الحكومة العراقية بعض الطلبة لدرس علم الآثار في اوروبه او اميريكه ·

بل خير للعراق ان تبق آثاره مدفونة في ارضه من ان « تطير » الى ما وراء البحار ·



القسم الثالث

النهضة فى ألوانها وظلالها



الفصل الاول

خطبة بين كربتين

لجنة الاستقبال — الجماهير المحتشدة — الخيالة تفتح الطريق — الهول الساكت — لُجّةٌ من البدو والحضر — نوري السعيد في اللُجّة — ابهة الماضي ودمقراطية اليوم — رئيس الوزراء والصدر الاعظم — الرئيس يدعونا لخوض اللجة — التزاحم والتدافع والتضاغط — اين شهرة الفيلسوف ، واين عظمة الوزير ؟ — انفتح الباب — السيل الجارف — صيحات من بين الارجل — ضغطة القبر — الاعجوبة — النجاة — جماهير نويورك وجماهير بغداد — الحدث العظيم — الصوت العجيب — من بغداد الى الواق الواق — الراديو في يومه الاول — الخطبة العربية الاولى — الاوليات في النهضة العراقية — صحف المعارضة تنتقد الخطبة وتقرع الخطيب — هل تغير شيء في العراق ؟

من المألوف في اداب الحفلات الخطابية ان الجمعية او الجامعة المقيمة الحفلة تعين لجنة موءلفة من ثلاثة او اثنين ، او واحد فقط ، لتستقبل الخطيب وترافقه الى قاعة الخطابة . هذا ما عرفته والفته كخطيب في الغرب وفي هذا الشرق العربي .

اما في بغداد ، يوم افتتاح المعرض الزراعي (٧ نيسان ١٩٣٢) فقد كان الاستقبال هائلاً ، وكنت انا الخطيب الفريد المنقطع النظير في العالم . كيف لا ، وقد كنت الغريق في لجج من الناس ، احاول ان اسمعهم غير ما جاءوا يسمعون ، احاول ان اسمعهم شيئاً من الانّات والزفرات التي كانت تخرج متقطعة من تحت اضلعي .

وهاكم القصة . كنت في ذاك النهار خطيب الحفلة الاولى في المعرض ،

فجئت قبل الوقت المعين لانجو من الزحام الذي وقعت فيه · فاين لجنة الاستقبال تنقذني ، وتضمن سلامة الحفلة التي انا خطيبها ؟ اللجنة هي هذه اللُّجة من الناس المحتشدين في الشارع ، وفي الساحة ، امام المدخل الوحيد الى ارض المعرض · هي لجنة هائلة ، وما هي على شيء من لطف الاستقبال ، او من حب المجاملة ·

وما كان الذنب ذنبي في خوض عبابها · فقد رأيت عند ما وصلت ثلة من الشرطة تغالب الجماهير ، واخرى من الخيالة تشذّبها ، لتفتح الطريق الى المدخل ، وتحفظ النظام · ورأيت تلك الجماهير من المدن ومن العشائر — من حضر وبدو واكراد — يتزاحمون ويتدافعون ويتضاغطون ، وبينهم النساء المحجبات والسافرات (يهوديات ومسيحيات) وهن في تلك اللجج كالازهار في الاعصار ·

ومن اعجب ما شاهدت في احتشاد الناس ان الجماهير العراقية غير صخابة · فهي تتموج ساكتة هادئة ، وتتضاغط وتتدافع بشدة وبطء دون ان يُسمع لها صوت او انين ، كأنها قطع من الجماد تحركها يد جبارة خفية · وكانت في تلك الساعة تدفعها دفعاً بطيئاً عنيفاً قاهراً نحو بوابةٍ موصدة يحرسها شرطيان لا غير ·

وقفت متردداً في الطريق التي فتحتها الخيالة ، وما آنست من رفيقي شجاعةً على الاقدام · وبين نحن كذلك دُهشت الدهشة الثانية ، الدهشة الكبرى · فقد رأيت عَلَى حاشية اللجة نوري باشا السعيد رئيس الوزارة في تلك الايام · فلفت اليه نظر الرفيق ، فاستبشر وقال : لنتبع الباشا ولا خوف علينا ·

عجبت لصروف الزمان · فقد اعاد الى ذهني هذا الوزير الرئيس مشهداً من مشاهد الدولة العثمانية في الاستانة · وكان هناك احتشاد اقوام ، وابهة ملكٍ وازدحام ، وكانت الخيالة تخترق اللجج البشرية وتدفع بها يمنةً ويسرى ، دون ان تبالي بما تفعله سنابك الخيل ، لتفتح الطريق لعربة الصدر الاعظم ، السائرة في موكبٍ فخم الى الباب العالي · لله من صروف الدهر ، وتقلب الزمان ·

ليس العراق ، وان استقل ودخل في عصبة الامم ، بالدولة العثمانية · ولكنه ذو سيادة وبرلمان ودستور ، والصدر الاعظم فيه شخصية بارزة ، وقوة في البلاد نافذة · وهو مع ذلك يحضر الاجتماعات العمومية غالباً وحده ، دون مرافق عسكري او مدني · ان نوري السعيد لمن اخلص الوزراء في روحه الدمقراطية الوادعة · وانه اصغرهم سناً ، واكثرهم اقداماً ، واغناهم فيما عنده من بشاشة وسكينة ، فتراه ، والسيكارة في فمه ، والسبحة بيده ، طلق المحيا ، هادىء البال على الدوام ·

عندما اشار رفيقي بان نتبعه قلت في نفسي : ولا بأس على من يمشي في ظل حاكم البلاد · فان السبحة بيده ، اذا ما اومأ بها ، لتفعل ما لا تفعله ثلة من الشرطة واخرى من الجند ·

توكلنا علَى الله واقدمنا ، فاذا بنوري باشا ، وقد رآني ، يرفع يده ، ويومىء بالسبحة والبسمة ان اقدموا · كأنه يدعونا الى طبق من البقلاوة - فاسرعنا اذ ذاك مصدّرين ارواحنا ، وما عتمنا ان صرنا في ظله ، فغمرتنا اللجة ، وتوارينا واياه فيها ·

وكانت تزداد ثقلاً وراءنا وصلابة امامنا ، فوقفنا متراصين متلاصقين

نكاد نفقد النفس — نغص بالهواء . ولو لا صرخات لبعض النساء لما سمعنا للحشد صوتا غير ذاك الذي يخرج من تحت الاحذية عندما يستحيل المشي على المحتشدين فيزحفون زحفاً .

هي ضغطة القبر . وكان الوزير الاكبر امامنا ساكتاً هادئاً مثل غيره من الناس . وما احد على ما اظن عرفه غيرنا . الا انه كان يحاول ان يصل الى مكان يرى منه الشرطي ، فيأمره بفتح الباب .

خبرت الجماهير في المدن الكبرى ، وليس فيها افظع من جماهير الصباح والمساء في ارتال نويورك . الا اني ما احسست مرة هناك بثل الهول المجسم في جماهير بغداد ، تلك الجماهير الساكتة الهادئة الواجمة الساحقة .

وكنت قد اضعت رفيقي ، واصبحت ولا ارى من نوري باشا حتى صدارته . فوددت في تلك الساعة لو ان احداً عرفني فآنسني ولو بابتسامة ... اين شهرتك الان ، ايها الفيلسوف ؟ واين عظمتك ، ايها الوزير ؟ أنُضغط ، ونخنق ، ونُسحق مثل سائر الناس ، ولا احد يصيح : المدد ! ولا احد يقول : مَه .

سبحانك اللهم . فها هوذا المدد ، اراه بعيني . ان اليد المرتفعة يد نوري ، والسبحة سبحته . فقد دنا من الحجة ، فرآه الشرطي ، فاومأ اليه الوزير ان افتح الباب . وما كاد ينفتح ذلك الباب حتى سُدَّ بالناس . فطفقوا يتدفقون كالسيل الجارف ، فيهبطون من اعلى الدرج الى اسفله ، واثبين ومتدحرجين الى ارض المعرض .

أُخذت اللجة تخف امامنا ، وتزداد شدة وراءنا . فتقدمنا متعثرين متقاذفين . وكنت احس وانا في هذه الحال بكوع يغرس في جنبي ،

وبآخر ، لبدوي عمليق ، بطوي عنق . فصحت متأوهاً ، فضاعت صيحتي بين صيحات اخرى عميقة ، كأنها كانت تصعد من تحت الارض . انما هي في الحقيقة صاعدة من بين ارجل الهاجمين المغيرين .

اما انا فما كدت افرح بدنوي من بوابة الحديد ، وانسى كوع البدوي ، حتى تراءى لي شبح الموت . فقد دُفعت بعنف الى البوابة ، وضُغطت هناك ضغطة القبر ، فعلقت يدي بين قضيبين من قضبان الحديد ، وسمعت صوتاً في كتفي كصوت عظم يتكسر ، فتأوهت وانت ، وخيل الي ان سأقضي بقية حياتي بيدٍ واحدة . ولكنه سبحانه وتعالى تداركني برحمته ، فتفلت من قبضة الحديد ، وهويت فوق الدرجات طائحاً ، فاذا انا بين ذراعي رئيس الوزراء . وكان قد وقف هناك ينتظرني ، فعانقته بكلتا يدي ، وانا احمد الله على السلامة .

وعلى المحن التي فيها بعد السلامة العلم والشجاعة . فقد اصبحت بعد نجاتي من تلك الغمرة ببغداد ، فارساً مغواراً ، لا تروعني الجماهير ، ولا تتآكدني الزحمات . فاخوض عبابها كأنها حوض ماء ، في جنينة غناء . ليقبضني بيديه المتحجرتين ذلك العلج الواقف في باب القطار في النفق بنويورك ، وليقذف بي الى داخل القطار ، وليضغطني ويرصني فوق من ضُغطوا ورصوا ، وليقفل وراءنا باب الحديد ، فيجيء كالمكبس على بالة القطن — ليفعل كل ذلك فلست ابالي . قد خضت عباب الجماهير العربية ببغداد ، واصبحت ذا مناعة بدوية .

وقد شاهدت وخبرت اباطيل الشهرة والسيادة ، اباطيل العبقرية والعظمة ، في مثل تلك الغمرات . فما رئيس الوزراء ، وما الفيلسوف

الخطيب ، اذا لم يكن ذا احساس بليد ، ونشاط عنيد ، واعصاب من حديد ، فيكون في الغمرة جزوءاً منها ، جزوءاً متحركاً متحكماً متقدماً مستهتراً .

وما كانت الكُربة بعد الخطبة اقل من الكربة التي تقدمتها ، الا انها من نوع آخر . ولكن بين الكربتين برهة سعيدة احب ان اشرك القارئ بها . ولا حرج في الحديث ، وان كنت موضوعه ، لانه يتناول ما هو اكبر من حالة حائلة ، وشخصية زائلة . كيف لا والحَدَث منقطع النظير في تاريخ العراق قديماً وحديثاً . كيف لا ، والخطيب — دعني اروي ولو مرة واحدة خبر خطبتي — كان اول من وقف ذلك الموقف في قطر من الاقطار العربية . وحسبي ان انوه بصوته العجيب . فما كان كزئير الاسد ، ولا كقصف الرعد . بل كان منخفضاً ناعماً هادئاً . وقد جاز مع ذلك الآفاق ، وسُمع حتى في بلاد الواق الواق .

عفواً ، قارئي . لست محدثك بالالغاز . فقد ملأ الراديو الارض علَى حداثة عهده ، وامسى ذكره مألوفاً مبتذلاً . بيد ان للتاريخ حقاً يُرعى . فان استعمال الراديو للمرة الاولى في اقدم بلدان العالم — في ارض الرافدين — لجدير بالذكر والاعتبار .

قد نُصبت الآلة — أُذُن الاذاعة ولسانها — للمرة الاولى ببغداد لسبعٍ خلون من شهر نيسان من السنة الثانية والثلاثين ومائة والف مسيحية ، وكان الريحاني اول من وقف امامها للخطابة . وكان الاثنان ، الخطيب ومطية صوته ، في احسن حال ، تمدهما السماء بروحها المكهربة المغنطه . وكانت الاسلاك ممتدة من الجهاز الى مكبراتٍ موزعةٍ في ارض المعرض ،

نخطب الخطيب في جمع امامه يُرى ، وجموعٍ في جواره لا ترى ·

وهناك وراء الافاق في قواعد الوية العراق ، وفي ما دون العراق غرباً وشمالاً وشرقاً — في سوريه وفلسطين ومصر وفي انقره وطهران — سُمع صوت الخطيب الواقف على المنبر ببغداد · اجل ، قد طارت كلماته على اجنحة الاثير لتحدّث باعجوبة هذا الزمان ، وباعاجيب اخرى في تاريخ العراق الحديث · فسمعها المؤمنون والمشككون ، وهم يبسملون ويكبرون · سمعوها لاول مرة في حياتهم باللغة العربية ، وسيذكرونها مدى الحياة ·

سيذكرون ولا ريب الحَدَث العظيم · وسيذكرون ان شاء الله اسم صاحب الخطبة · وقد يذكرون بعض ما اشاد به من مظاهر النهضة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق ، وبعض ما اشار اليه من اوليات هذه النهضة المباركة · ورأس الاوليات المعرض الزراعي الاقتصادي · فما رأت ارض الرافدين ، منذ عهد السومريين الى عهد الاتراك ، معرضاً مثله · ومن الاوليات في كل ازمنة التاريخ القديم والحديث حكومة العراق النيابية ، وملك العراق الدستوري ، ومدارس العراق العامة · وقد يذكر من سمع الخطيب انه دعا العرب للاتحاد ، ودعا زعماء الاقطار العربية للتفاهم والتعاون · وانه اثنى عَلَى الملك فيصل الذي ساس العراق بالحزم والحكمة ، فاجتاز بفضله المرحلة الاولى من مراحل الاستقلال الوطني والسيادة القومية · قد يذكرون كل ذلك او بعضه · وقد لا يذكرون شيئاً من الخطبة غير انها هبطت عليهم مثل الوحي من عالم الغيب[١] انها اذن لوحي منزل · استغفر الله · ليس فيها شيءٌ عجيب غير انها سُمعت في وقت واحد في سائر المدن الكبرى في الشرق العربي ·

---

(١) لذلك نثبتها في الملحق لهذا الكتاب ·

الا ان الخطيب اجاد كما يقال ، كل الاجادة · انا الذي اعرفه في مواقفه الخطابية كلها اقول ذلك ، وهذا القول لا ريب فيه ·

على ان الخطبة ما نجت ولا نجا الخطيب ، من صحافة بغداد ، او بالحري من صحافة المعارضة · فقد تناولتِ الخطبة ، بل تلتها بمخالب النقد ، ومزقتها ارباً اربا · ثم عرقتْ منها العظم ، وتلمظت بالمرارة · قال احد كتبة المعارضة ان الخطيب من الترثارين · وقال اخر انه يتزلف من الملك ، وانه من المستوزرين · وغمس آخر قلمه في دواة التهكم والظرف وخط الاية : ان الخطيب لمن ذوي الآذان الطويلة · وشخَّص آخر مرضه فقال انه مصاب بداء التفاؤل ·

فاستنتجت من كل ذلك ان المعارضة ، اي الاحزاب المعارضة للحكومة والانكليز ، لا تزال حية ترزق ، وانها تعارض مبدئياً على طول الخط ، ولا تبالي بما يقال في مواقفها · ولِمَ المبالاة ، ووظيفة المعارضة ، كما يقول السياسيون ، هي ان تعارض · ان في بغداد ثلاثة لا تتغير ، هي الغبار والوحل والسياسة ·

وقد عجب ارباب السياسة لما في الخطبة من السنطحيات · فكيف فات الجوهرُ الخطيب ؟ ماذا دهاه فعمي او تعامى ؟ أما كان بامكانه ان يرى ، في نظرة سطحية ، الحقائق البارزة ؟ فالانكليز لا يزالون في العراق ، وما تحسنت اقتصاديات البلاد ، وما تحررت الادارات من المستشارين ، وما ، وما · · · [١]

هي المعارضة ، ولا حرج · فقد نصبت مدافعها بين ادغال الصحافة ،

---

(١) انظر في الملحق ترجمة المقال الانكليزي الذي كتبه المؤلف في تطور العراق ·

ووراء أكمات الاحزاب ، وشرعت تطلقها في كل ناحية ، من الطرف الايمن في افق الحكومة الى الطرف الايسر ، من القصر علَى شاطىء الكرخ الى القصر على شاطيء الرصافة – على المندوب ، على الملك ، على الوزارة ، على البرلمان ، وحتى علَى المعرض لانه من اعمال الحكومة ! فلا عجب اذا اصابني رشاش من مدافعها ، وانا اتنقل مستكشفاً – يا للحماقة ! – من مكان الى مكان في مرامي الجبهة .

الفصل الاول

ضعف المعارضة

آفات بغداد الثلاث — الارث السياسي — تلون السياسي والشاعر — العقلية السردابية — روح المعارضة — الاضراب في سنة ١٩٣١ — قانون رسوم البلديات — الاضطرابات في حلة وبعقوبة — الاضراب يتحول الى حركة وطنية — بغداد مقفلة — موقف المعارضة — الحملة على وزير الداخلية — وعلى الحكومة — اثبتوا اسبوعاً تسقط الوزارة — اثبتوا اسبوعين يرحل الملك — لحم البلدية لا يشتريه الناس — يُعرض مجانا — يرمى في دجلة — الحقيقة في وطنية البغداديين — حرم بعض الوزراء سافرات — الحكومة الكافرة — قصة وزير لا يلعب ال «بريدج» — اساليب المعارضة — الاقليات مطايا الاحزاب — قضية كتب يثير حفيظة الصابئة — استغلال الغضبة — تطورها — السياسة المكيافلية — خيبة المشاغبين ·

ما اشرت في الفصل السابق الى آفات بغداد الثلاث حباً بالاغراب والابداع في الانشاء · انما هي الحقيقة تجمع في بعض الاحايين الشوارد والمتناقضات ، فاذا هي شرعٌ في كنهها او في نتائجها · فان اول الآفات البغدادية هي عاصفة التراب (او ما يدعى «القاطرة») في الربيع ، وثانيها الوحل في الشتاء ، وثالثها في كل فصول السنة السياسيون ·

اما الآفتين الاولى والثانية فلا تنفرد بغداد بها ، وقد لا تكون فيها كغيرها من المدن · فان في اسواق باريس في الشتاء مثلاً تتكون صفحة رقيقة من الوحل الرخو اللزج الذي يتحول تحت الارجل الى مزلقات ، فهي اذ ذاك اكرب من بغداد · وان ضباب لندن في الخريف ،

ذلك الضباب القاتم الكثيف المُسِفّ المعمي ، والمفعم بالروائح الكبريتية ، هو افظع من « قاطرة » بغداد التي لا رائحة لها ولا هي تسد عليك السبيل · اما سياسي بغداد فلا اظنك تجد له صنواً في الشرق او في الغرب · فان في عقليته مزيجاً من الغبار والرماد · غير ان قلبه مضمَّخ بالطيب ، ولسانه لسان خطيب ·

اجل ، ان ارث السياسيّ البغداديّ لارث مركب من شتى العناصر النفسية والعقلية والبيانية · فيستطيع لذلك ان يكون شفافاً او كثيفاً ، دقيقاً او غليظاً ، قويماً او مواربا ً، لطيفاً او خشناً ، صريحاً او مجمجاً · ان في عروقه العربية اثراً من الدم الفارسي والتركي والكردي والتتري·[١] فهو يصلي بالعربية ، ويفتكر بالتركية ، ويستشعر بالفارسية ، وقد بدأ يرى الاشياء بعين انكليزية · هو دمقراطي اللسان ، اوتوقراطي العقل ، ثيوقراطي القلب[٢] والمجموع ميلٌ ، بعد الاتكال على الله ، الى الاستبداد · « انما العاجز من لا يستبد » ·

فالشاعر والسياسي من هذا القبيل متفقان · والشعراء يتلونون مثل السياسيين · فهناك طائفة من اصحاب القوافي رأوا رأي عمر بن ابي ربيعة

---

(١) راجع صفحتي ٤٠ و ٤١ من هذا الكتاب

(٢) دمقراطي مركبة من لفظتين اغريقيتين ديموس (demos) شعب وكراتيو (krateo) حكم — حكم الشعب · وعلى هذا القياس اوتوقراطي : اوتو (autos) الذات الفرد ، وكراتيو الحكم ، اي الحكم الفردي · وثيوقراطي : ثيوس (theos) الله ، اي الحكم الالهي · ثم توسعوا بمعنى هذه الالفاظ المركبة فصارت تشمل الاخلاق والسلوك · وبما ان اللفظة الاولى ، دمقراطي ، اي شعبي الحكم وشعبي الاخلاق ، أدخلت في اللغة العربية واصبحت مألوفة معروفة ، فلا نرى بأساً في ادخال اللفظتين الاخريين وهما من المصدر الواحد ، والقياس الواحد ·

وسلكوا يوماً مسلك المستبد ، ويوماً عكسه . انما في عجزهم كانوا غير صادقين . وكفى ان نشير الى سيدهم المتنبي الذي طأطأ الرأس بل تسكسك « لابي المسك » فأطراه — « ومن مثل كافور ? » ثم هجاه هجاءً منكراً .

« ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا »

وتهكم كذلك على « مشفريه » و « رجليه . »

فانْ ازعج الساسيون الحكومة والانكليز فان في بغداد من الشعراء والكتاب من يحسنون التلون كالمتنبي فيزعجون السياسيين ، فيقولون حيناً : من مثل الزعيم ، وحيناً :

« لا ينجز الميعاد في يومه ولا يعي ما قال في امسه »

ومن الممدوحين والمذمومين مَن يتعرضون ، كالمداحين والهجائين ، لملك البلاد ، صراحة او ضمناً ، بالاساليب المريبة ، فيروون في القهاوي والاندية اخباراً عنه معيبة ، ثم يردفونها بقولهم انها كذب وبهتان ، وهم لا يصدقونها . فهم ملكيون والله — وهم جمهوريون — وهم أمَّعيون !

لله من اولئك السياسين ، ومن فصاحتهم ، ومن لطفهم ، ومن حججهم واحكامهم ، ومن اساليبهم في الطعن والاغتياب . وما اكثرهم ببغداد . فانهم فيها كالرهابين في لبنان ، ولا مفر منهم . كم مرة وقفت في سراديب عقولهم السياسية ! وكم مرة تغلغلت بعقلي وقلبي فيها ، لافهم اقوالهم ، وادرك افكارهم ومقاصدهم ، واميز بين الاوهام والحقائق في مزاعمهم . وكم مرة أصغيت ساكتاً صابراً للاحاديث الطويلة لاتحقق ما فيها من شكوى ، من علم ، من عقيدة . وكم مرة اوقفني محدثي وانا اتبعه مصغياً متنبها ، كم مرة اوقفني بغتةً في جادةٍ ملتوية مظلمة ، ليؤكد لي انها ليست بجادته او جادة حزبه ،

بل هي جادة الحكومة والانكليز .

— اني اطلعك ، يا استاذ ، على حقائق هذه المسالك الملتوية المظلمة .

وهل يليق بي الشك وانا في مجلس من اولاني صداقته ، واكد لي انه يمشي اياماً ويتكلم اياماً وليالي في خدمتي ، لينير ذهني ، ليطلعني على حقائق الدولة واسرارها . ولولا وطنيتي وادبي ورغبتي في التحقيق والتدقيق ، لما كان يمشي خطوة ، او يفوه بكلمة . لا ، والله . فهل يليق بي الشك او الاحتياط ؟

اما انه كان في خدمته لي يخدم كذلك نفسه ، من حيث لا يدري او من حيث لا يظن اني ادري ، فذلك امر لا ريب فيه . الا انه لا يمدح نفسه . كلا . ولكنه يرهفك بالحديث ، ويعييك بالسير في سراديب السياسة ، ليفهمك انه اخلص سياسي العراق وطنيةً ، وابعدهم نظراً ، واسدهم رأياً ، واصدقهم واصرحهم قولاً . هذا السياسي المدرب المجرب ، اللطيف الشريف ، سنياً كان او شيعياً او كردياً او مسيحياً ، هو يوماً للمعارضة ويوماً عليها — مثل الزمان .

وساعطيك الان بعض الامثلة من اعمال المعارضة ، بادئاً بالاضراب في صيف سنة ١٩٣١ ، لانه من اهم حركات العراق الداخلية ، واقلها بركة . وها هي ذي القصة في حقائقها العريضة .

كانت قد قررت حكومة الاحتلال وضع ضريبة على اصحاب المهن والحرف ، ولكن قرارها لم يُنفذ كل التنفيذ . وفي سنة ١٩٢٩ تناولت حكومة العراق ذلك القرار فحولته الى قانون يدعى قانون رسوم البلديات ، وجعلته يشمل في ضرائبه الاهالي جميعاً . الا ان المادة الثالثة من هذا القانون

تجيز لمجالس البلديات ان تخفض او تلغي من جدول الضرائب ما لا يناسب احوال الاهالي الاقتصادية ·

ومع ذلك فقد تعددت اصوات الشكوى والاحتجاج عندما شرعت الحكومة تنفذ القانون ، فتمردت الحلة ، وتبعتها بعقوبة في اوائل تموز · ثم اعلنت بغداد الاضراب وامست مقفلة ·

اما المادة الثالثة من القانون فقلما استرعت النظر · بيد ان بعض البلديات باشرت تحوير جدول الضرائب بموجب هذه المادة · ولكن الشعب لم يكترث ، بل اصر على الاضراب الذي اضحى حركة وطنية ·

فاصدر وزير الداخلية بلاغاً يقول فيه ان الحكومة لا تكره الناس على فتح مخازنهم ، او استئناف اعمالهم ، الا الصيادلة منهم واصحاب السيارات لعلاقة مهنتهم بالصحة العامة · ثم اوعزت الى البلديات بان تتولى ذبح الاغنام وبيع الاهلين لحمها ·

وكان النظام سائداً والسكينة مستتبة في الايام الخمسة الاول · اما بعد ذلك فقد اصطدم الشعب بالشرطة وتضاربوا بضع مرات ، واضطرب حبل الامن في البصرة ، وقتل في الناصرية اثنان · ما خلا ذلك فقد ظهرت الحكومة وظهر المضربون في مظهر من الثبات والسكينة يذكر فيشكر · ظلت بغداد مقفلة عشرة ايام ، ثم بدت في بعض نواحيها امارات السأم والوهن · فاصدرت الحكومة بلاغاً ثانياً افتتحته بهذه الكلمة : «حيث ان الالحاح المستمر على بعض الاشخاص ، المعروفين بحسن النية والقصد ، بلزوم الامتناع عن فتح حوانيتهم ، او مزاولة اشغالهم ، قد سبب ضنكاً للاهالي الخ» وأنذرت بعقوبة الحبس والغرامة كل من يردع او يحاول ان يردع احداً

عن فتح حانوته او استئناف عمله ، « وكل من ينشر اخباراً كاذبة يقصد بها التدخل بالحرية العامة . »

كان الملك فيصل يومئذ في اوروبه ومعه رئيس الوزراء نوري باشا السعيد . فعاد نوري الى بغداد في اواسط تموز ، عند ما كان الاضراب آخذاً بالتلاشي ، واول ما عمله ان استعان بالمادة الثالثة من قانون رسوم البلديات ، فالغى بعض الضرائب ، واصدر بلاغاً جامعاً بين الشدة واللين ، فتمكن في خلال ثلاثة ايام من اقناع الناس بلزوم العودة الى اشغالهم . انما بقيت البصرة متمردة ، فلجأ الى العنف ، فأُلقي القبض على بعض زعماء الاضراب ، وأُبعدوا ، فعاد الامن الى نصابه ، والنظام الى مجاريه .

وما الخير الذي جناه الشعب من ذلك الاضراب ؟ ان ما اسقطه رئيس الوزارة من الضرائب كان اسقاطه قبل الاضراب ممكناً بموجب المادة الثالثة من القانون . ولنا ان نسأل سؤالاً اخر . من هم الذين انتفعوا من ذلك الاضراب ؟ قد شاء بعض السياسيين خارج الحكومة ان يخرجوا بعض السياسيين فيها ليتبوأوا كراسيهم . وقد شاءت المعارضة ، في غياب الملك ورئيس الوزارة ، ان تزعج الحكومة وتضعف جانبها .

لقد اجملت فاخصص . كان وزير الداخلية يومئذ من زعماء المعارضة ، فتذبذب مستوزراً ، وفاز بامنيته فصار وزيراً في الوزارة السعيدية . هو اذن خارج عَلَى حزبه ، وحق للحزب ان يطلب رأسه -- ان يذبحه سياسيا . وكان امين العاصمة يومئذ من اعداء وزير الداخلية ، فساعد المعارضين لينالوا مأربهم منه . وما كان نائب الملك بالرجل الذي يخشى جانبه ، فخلا لهم الجو ، فتزعموا الاضراب ، وكانوا في تنظيمه وتعميمه مفلحين . فطمعوا

بغير رأس وزير من الوزراء — طمعوا برأس الحكومة نفسها ·

قال الزعماء للمضربين ببغداد : ان ثبتم اسبوعاً تستعفي البلدية · وان ثبتم عشرة ايام تسقط الوزارة · وان ثبتم اسبوعين يرحل الملك ·

نسي المضربون غرضهم الاول من الاضراب ، نسوا مصالحهم التي كانت تتعلق بتخفيض الضرائب · نسوها وصاروا وطنيين ثائرين ، يبتغون قلب الحكومة · وكانت المعارضة تغذيهم بالكلمات الحماسية والمناورات السياسية ·

اسلفت القول ان الحكومة أوعزت الى البلديات بذبح الاغنام وبيع لحمها · فرحبت بلدية بغداد بتجارة جديدة كاسبة · ومـا ادركت شيئاً مما دُبر لكسبها ، ولا احست به · ذبحت ، وما باعت في اليوم الاول ، ولا في اليوم الثاني · خفضت الاسعار ، وما رغب الناس باللحم · فعرضته باسعار خاسرة ، فظل الناس راغبين عنه ·

وكان حر تموز يفعل فعله باللحم ، فقدمته البلدية مجاناً للناس ، فما اقبلوا عليه · كأن اهل بغداد اضحوا جميعاً من مذهب الهندوس — من المتنحسين · فأشفقت البلدية على الصحة العامة من فساد اللحم ، فرمته في نهر دجلة !

اذ ذاك علت اصوات الوطنيين بالهتاف والتحبيذ : خذوا المثل الاعلَى في الجهاد الوطني عن المضربين ! تشبهوا بهؤلاء المتفانين في حب وطنهم · انهم في ثباتهم ، وفي محافظتهم على النظام ، لمن خير الشعوب المتمدنة ، الناهضة ، المطالبة بحقوقها · ولكنهم في وطنيتهم الصافية ، وروحانيتهم العالية ، ونزعتهم الشريفة التي حببت اليهم حرمان ما تعودوه ، يفوقون حتى اهل الهند ·

ان الله اعلم بما كان وراء ذلك الحرمان · وان المؤلف ، لحسن حظ

القارىء الطالب الحقيقة ، علَى شيء كذلك من العلم .

فالحقيقة العارية في لحم البلدية هي ان اهل بغداد رفضوا ان يشتروه ، او يقبلوه مجاناً ، لان رجال المعارضة ، وهم يرون حقاً كل ما يساعد في مقاومة الحكومة والانكليز ، اشاعوا انه من ذبح الارمن !

هو اذن للمسلمين منجس ، ومـا هو « كاشِر » لليهود . وهل يجرؤ المسيحي ، وخصوصاً في ايام الاضراب ، ان يدنو مما نبذه اليهود والمسلمون؟

اذن ، الى دجلة باللحم ! وليحيَ الوطنيون . وليحيَ المضربون ! وليسقط جان بول الملعون !

هي السياسة — سياسة المعارضة . وقـد اشاعت ايضاً ان حرم بعض الوزراء نبذن الحجاب وخرجن سافرات (ما عرفت غير امرأة وزير واحد ، كان يومئذ من المعارضة ، تخرج سافرة)

وقد قررت الحكومة الكافرة ، المذعنة لارادة الكفار الانكليز ، ان تعفي من الضرائب كل مسلم يسمح لحرمه بالسفور . الى دجلة بهذه الحكومة ! الثبات ، الثبات ، ايها المضربون . بعد اسبوع تسقط الوزارة ، وبعد اسبوعين الملك نفسه يشد للرحيل ! ...

سمعت في احدى دور الاعتماد ببغداد هذه القصة . كان احد القناصل يدعو صديقاً له من الوزراء للعشاء ولعب الا « بريدج » في بيته ، وكان الوزير يعتذر دائمـاً . لا وقت لسوء الحظ — حبذا الشرف والسرور — الاشغال كثيرة .

ثم سقطت الوزارة واجتمع القنصل بصديقه الوزير السابق فخاطبه قائلاً : « ان وقتكم في هذه الايام يسمح ولا شك بسهرةٍ للعب الا « بريدج » في

الاقل.» فرفع الوزير يديه مجيباً : «ان الاشغال في هذه الايام اكثر واللّٰه واهم. فقد دخلنا في حزب المعارضة.»

وهناك غيره ممن يعتقدون ان لذة السياسة بالتنقل. فكيف تستطيع المعارضة وهؤلاء هم رجالها ان تكتم اسرار حزبها، او تموه حيلها فتخفى على الحكومة. ومع ذلك فقد كانت مفزعةً للحكومة تروّعها وتفسد ظنونها وتدابيرها، فصارت الحكومة تتخيل تلك المفزَعة في كل مكان. بيد ان المعارضة كانت دائماً متيقظة متأهبة «لتستغل»، كما تقول، المواقف كلها، لتشوه سمعة الحكومة، لتعرقل اعمالها، لتفسد خططها، لتسقط وتسحق رجالها.

ان في موقف الاثنتين شيئاً من المبالغة والوهم. فالحكومة تبالغ بسوء الظن والخوف، والمعارضة تبالغ بتقدير قواها. ومما لا ريب ولا مبالغة فيه هو انها تتخذ لاغراضها شتى المسالك والاساليب القويمة وغير القويمة، الجائزة وغير الجائزة. ومن هذه ما يضحك، وقد اعطيتك الامثال، ومنها ما يثير الاشجان.

فهي لا تتورع من اتخاذ حتى الاقليات، عندما تسنح الفرص واذا اقتضى الامر، مطيةً لمآربها. مثال ذلك ما حدث يوم كانت عصبة الامم تبحث مؤهلات العراق لعضويتها.

كتب احد الادباء العراقيين السيد عبد الرزاق الحسني مقالاً في مجلة مصرية عن الصابئة. وقد جاء في المقال ان المرأة الصابئية، اذا ما اعتدى رجل عليها، ترضخ له صامتة دون مقاومة او احتجاج. وكل ما تفعله خلال الاعتداء هو ان تقبض على شيء قربها، حجراً كان او خشبة او غير

ذلك ، مستشهدة بها على ثلب عرضها · هي تهمة فظيعة ، وان كان بالامكان اثباتها · هي تهمة فظيعة تثير الحفائظ في اي بلد كان · فهي في البلاد العربية تستثير القبائل فتُسفك الدماء دفاعاً عن العرض · وهي حتى في بلاد الغرب حيث تكثر في هذا الزمان الاباحات ، جريمة لا تغتفر ·

فلا عجب اذا ثار ثائر الصابئة في العراق · فقاموا ببغداد يطلبون رأس الحسني عبد الرزاق · فاعتذر عما كتب ، ونشر اعتذاره في جريـدة من الجرائد اليومية · ولكن الامر مع ذلك ما انتهى · فان بعض الناس غاروا على شرف الصابئة اكثر من غيرة الصابئة على انفسهم ، فراحوا يحرضونهم على المطالبة بالعقوبة ·

غضبت الصابئة غضبة مستجدة شديدة عمت جواليها جمعاء · وهي في العراق كله لا تتجاوز العشرة الاف نفس · فجاء رؤساء الجوالي ، من العمارة حتى الموصل ، الى بغداد شاكين غاضبين · جاءوا يطلبون مقابلة الملك فقابلهم وطيب خاطرهم ، ثم احالهم الى العدلية ، وامر بان يُنظر في قضيتهم سريعاً · كان الملك فيصل رحمه الله يخترق الاسترة لما يرى او يظن ، وكانت الحكومة ، كما اسلفت القول ، تتخيل المعارضة في كل مكان · فأُشير باسترضاء الصابئة ·

وما استرضاء هذا الشعب الصغير الهادىء الوادع بالامر الشاق · ولا استهواءه واستفزازه · فقد كان بين عاملين الصفح والشرف · ولعبت في العامل الثاني الاهواء والاغراء ، فاعتزم الرؤساء اقامة الدعوى على الكاتب يطلبون الاثبات · فركت العدلية جبينها ، وعادت الى المجلة تستشيرها ، فسُرت بما قرأت وهو ان لا يحق لامة باجمعها ان تقيم دعوى واحدة على

شخص ما ، بل يجب عَلَى كل فرد من تلك الامة ان يقيم تلك الدعوى باسمه منفرداً · اذن تقدموا ايها المعمدانيون الانقياء — تقدموا جميعاً!

انه لموقف عظيم « للاستغلال » · فان اربعة او خمسة الاف دعوى تقام على كاتب في دولة صغيرة كالعراق، ليملأ خبرها الارض ، فتخدم مصلحة الاحزاب المعارضة للحكومة · فهل يفادي الصابئة بوقتهم وبمالهم وبسعادتهم؟ كلا· اذن ليست العدلية مرجعهم· اذن لتنتقل القضية الى الوزارة الداخلية · وقد أُمر الوزير بان يتخذ اسرع التدابير لارضاء الصابئة ، فاحال المسألة الى متصرف لواء بغداد مشفوعة بالامر العالي ·

اقف بك ها هنا لاطلعك عَلَى كتاب المتصرف المكتوب على الالة الكاتبة — امامي نسخة منه — الى وزير الداخلية · وقد كتب في اعلى الكتاب : سري مستعجل · انك لتدرك بعد اطلاعك عليه ان سعادة المتصرف كان يوماً من حزب المعارضة ، وانه درس علم اللوليات القانونية والادارية على استاذ ماهر ·

الى وزارة الداخليه

بالاشارة الى حاشيتيكم المرقمتين ٤٤٥٧ و ٤٤٥٦ والمؤرختين ٢٦/٣/١٩٣٢ على مضبطة الصابئة والحاقاً بكتابنا المرقم ٤٣٧٧ والمؤرخ ٢١/٣/١٩٣٢

لقد احضرنا رجال الصابئة الى هذا المقام في يوم الاربعاء المصادف ٢٣ مارت سنة ١٩٣٢ وكلمناهم في عدم وجود اي تمسك قانوني يستلزم مجازاة السيد عبد الرزاق الحسني لحسن نيته في ما كتبه عنهم واعتذاره عن ذلك في جريدة العراق ولصدور المجلة في القاهرة · ثم اننا اطلعناهم في يوم الخميس عَلى الكتب التاريخية القديمة التي استند اليها الكاتب في بحثه عنهم ، فأمنوا لعدم وجود سؤ نية عند الكاتب ، واكدوا لنا ان ما كتبه الاقدمون عنهم لا يتفق والحقيقة ·

واخيراً اتفقوا على ان يجلبوا كتابهم الخطي المقدس وان يترجمه بطارقة الملل الاخرى الى اللغة العربية في ديوان هذه المتصرفية في يوم الاثنين ٢٩ الجاري . فاذا ظهر ان ما ذكره الاقدمون صحيحاً ومطابقاً لما ورد في هذا الكتاب المقدس فهم يتنازلون عن شكواهم . والا اي اذ ظهر تفاوت بين كتابة الاقدمين وكتابة الحسني وبين ما جاء في كتابهم المقدس فانهم يكتفون بتكذيب تصدره هذه المتصرفية وتنشره في مجلة الهلال المصرية التي نشر فيها مقال الكاتب . وسنخبركم بما سيتم في هذا الصدد

متصرف لواء بغداد

هوذا سياسي عراقي متخرج من المدرسة التركية المكياڤلية . وهل يستطيع احد ارباب هذه المدرسة ان يخرج من هذا المأزق باحسن من هذا الاسلوب ؟ هاتوا كتابكم الخطي المقدس لتترجمه بطارقة الملل الاخرى الى اللغة العربية ! فاذا جاء رؤساء الصابئة بالكتاب فهل يجيء البطارقة ؟ واذا جاءوا فهل يترجمون ؟ واذا ترجموا فهل يحسنون ؟ واذا احسنوا فهل يتفقون ؟ واذا اتفقوا فهل يصدق رؤساء الصابئة انهم احسنوا الترجمة وتحروا الامانة فيها ؟

فكر اولئك الرؤساء ، ثم رضوا باعتذار الاستاذ الحسني . اما الذين كانوا يأملون ان « يستغلوا » الموقف ، فيستخدمون القضية ، قضية احدى الاقليات ، ليشوهوا سمعة العراق في جنيف ، ويحولوا دون دخوله في عصبة الامم ، فقد اخفق مسعاهم .

الفصل الثالث

قوة المعارضة

تذبذب الحكومة البريطانية — الحكومة العراقية مع المعارضة — مسلك المعارضة القويم — الغاء الانتداب — استئناف الجهاد — المعاهدة والملحق وذيل الملحق — قصة البدوي وجمله — ما احسن المعاهدة لولا المعلق بذنبها — حديث السر فرنسيس همفريس — القوة الجوية البريطانية — مطار الهُنَيدي — ميناء البصره — سكك الحديد — ما يفهمه اهل العراق — الشاعر الزهاوي يلقي قصيدة — الربيع والاستقلال — نظر المعارضة في المعاهـدة — ياسين باشا الهاشمي — مواصلات العراق في الحرب — الاحتلال العسكري — تسخير العراق — تجديد المعاهـدة — كابوس ياسين — ميناء البصرة والسكك الحديدية بادارة الانكليز — موقف المعارضة المنيع — سمعة الانكليز — الخوف والحـذر — الاحتلال الثاني للعراق — الاعضاء العراقيون في مجلسي ادارة المرفأ والسكة — اعباء العراق — جنيف الجذابة المقيدة — لماذا رغبت الحكومة البريطانية بالغاء الانتداب — قيود عصبة الامم — الاقليات والضمانات — الاجانب في العراق

كانت الحكومة البريطانية تخبط خبط عشواء في سياستها العراقية خلال السنوات العشر التي تقدمت المعاهدة الاخيرة. وكانت تزيد بموقفها غموضاً وارتباكاً ، وهي تحاول ان تخفي ريبها وحيرتها ، في ما اتخذته من شتى الاساليب والخطط ، حيناً متعسفةً وحيناً متساهلة ، لغرضها المنشود . فعقدت المعاهدات ، الواحدة بعد الاخرى ، وهي تظن ان في كل واحدة منها الحل النهائي للمشاكل البريطانية العراقية كلها .

اما الحكومة العراقية فقد كان موقفها ، خلال هذه المدة ، موقف المطالب المساوم ، فكانت سياستها تارة حزبية وطوراً وطنية ، حيناً سلبية وحيناً ايجابية . بل يجوز ان نقول ان موقفها في الغالب ، على اختلاف وزاراتها العشر ، كان ضمناً في الاقل موقف المعارضة . فما أذعنت مرة للحكومة البريطانية ، في امر من الامور الجوهرية ، قبل ان أعدت العدة لتجديد المقاومة ، وهي تستكشف موقف المعارضة لتنتفع به . وبكلمة اخرى كانت تستعين بخصومها الوطنيين على خصومها الانكليز . اما في المقاومات الشديدة فقد كان يضطر رئيس الوزارة ان يستعفي ، كما فعل جعفر مثلاً في سنة ١٩٢٧ والسعدون في سنة ١٩٢٩ .

ولا بد من القول ان المعارضة — الرسمية — غير الحكومية — كانت على الاجمال تعمل بمعنى اللفظة الحرفي . اي انها كانت تعارض مبدئياً على طول الخط . ولا تزال كذلك في اكثر الاحيان . هي اذن قوة سلبية تضعف في المناورات السياسية ، والبهرجات الوطنية ، كما بينا في الفصل السابق ، وتتزن ، فتصلب ، فيخشى جانبها في المواقف الوطنية الخطيرة .

ومن ذلك مسلكها القويم الشريف في ثلاث مسائل جوهرية . فقد حاربت الانتداب ، ورفضت كل معاهدة عقدت في عهد الانتداب ، وقاومت كل المحاولات لتأسيس حكومة من المستشارين والموظفين البريطانيين — بانتداب او بغير انتداب — تنكسف الى جانبها الحكومة العراقية . في هذه السياسة السلبية كانت المعارضة ذات فضل جم . وقد اشتركت والحكومة بعمل واحد ايجابي ، هو السعي لدخول العراق في عصبة الامم . فاذا حصرنا النظر في هذه الامور توجب علينا ان نقول انها سديدة الخطة ، شريفة

النزعة ، قولاً وعملا . وانها من هذا القبيل في مستوى واحد والمعارضات السياسية في الحكومة البريطانية ، او في غيرها من الحكومات المنظمة الراقية .

بيد ان المعارضة العراقية لا تنظر بالعين الواحدة الى تطور العراق ، ووضعيته الحاضرة . فهناك حزب يسقط من اهمية هذا التطور ، وحزب لا يرى فيه شيئاً مهماً او نافعاً . وما اهمية العضوية في عصبة الامم ، وما الفائدة منها ؟ اني اشارك المعارضة في هذا السوءال . ولكني اذكرها ان ما احد من المعارضين او من الحكوميين حسب دخول العراق في عصبة الامم خطوة كبيرة مهمة . وان كانت كذلك فلكونها خطوة لغرض أكبر واهم ، هو الغاء الانتداب .

وقد أُلغي الانتداب ، وحلت محله معاهدة لخمس وعشرين سنة ، والمعارضة لا تزال تحتج ، ولاتزال تعارض . بل هي تحسب نفسها في بداية الجهاد مرة ثانية ، لانها ترى في معاهدة سنة ١٩٣٠ ما هو شبيه بالانتداب ، بل شر منه . فالذى يقرأ المعاهدة فقط يقول ان المعارضة متعنتة متعسفة . ولكنه بعد ان يقرأ الملحق يرى في موقفها ما يبرر الخوف والريب والحذر .

وثمة ذيل للملحق هو من الاهمية بمكان . قرأت الوثائق الثلاث قراءة المتعلم علماً جديداً ، فذكرتني بقصة البدوي وجمله .

نُكب بدوي نكبة شديدة فاستجار بالله ثم استجار ، ثم قال : ان أجرتني ، ربي ، بعت جملي بريال . وبعد ايام انكشفت كربة البدوي ، ففكر في ما قال ، فكرُب كربة اخرى . كرُب بما وعد به ربه . فكيف يبيع جمله ، وهو زين الجمال ، بريال واحد ؟ راح الى الامام يعرض له الامر ويستشيره . فاطرق الامام ، ثم ازاح عمته ومسح جبينه ، وقال : ان الله

سبحانه وتعالى يريد خلاصك وخلاص جملك عن يدي · فاسمع وعِ ·
فسمع البدوي مستبشراً ، وجاء بهر فربطه بذنب الجمل ، ونزل به الى السوق ينادي : الجمل بريال والهر بالف ، وبيع الاثنين معاً ! كما علّمه الامام · فقال الناس مدهوشين معجبين : ما احسن هذا الجمل ، وما ارخصه ، لولا ذاك المعلق بذنبه !

ان في ذنب المعاهدة هرين بدل الهر الواحد · وما هما ، اي الملحق وذاك المعلق بذنب الملحق ، من بنات فكر عابث ولا هما بدعة من بدع التورع والخيال · انما هما جزءان كريمان سويان مكملان للمعاهدة[1] ، ولا يستحيل تفسيرهما والدفاع عنهما · فالمندوب السامي الاخير والسفير الاول في العراق[2] ، السر فرنسيس همفريس ، هو احد ابوَي المعاهدة ، لخليق به الشرح والتفسير ·

قال السر فرنسيس يحدث المؤلف :

« اننا نرحب بالانتقاد العادل وبالموءازرة ، ولا نريد ان نكون دائماً مستشارين · بل نرغب بالمشورة والنصيحة لخير العراق وخيرنا · فنحسن السياسة في السنين التي يجب علينا نحن والعراقيين ان نجتازها معاً · اما المعارضة فهي مفيدة متى كان رائدها العقل والنزاهة ، وغرضها البناء لا التدمير · ولكنها في مقاومة المعاهدة بعيدة على ما يظهر عن الاثنين · خذ مثلاً القوة الجوية · نحن نريدها في العراق لسببين ، الاول هو مساعدة العراق داخلاً ·

---

(١) المادة السادسة : يعتبر ملحق هذه المعاهدة جزءاً لا يتجزأ منها ·

(٢) بعد عقد المعاهدة تحولت دار الانتداب الى سفارة وصار المندوب السامي السفير البريطاني الاول ببغداد ·

في قمع الفتن مثلاً والثاني هو مشاركة العراق في الدفاع عن حدوده · وسنساعده في انشاء وتنظيم دائرة الطيران فيصير لديه بعد خمس سنوات قوة جوية عراقية · الهُنَيدي هي اليوم لنا ، وستصبح بعد خمس سنوات للعراق · سنعطيه اياها بخسارة ثلث قيمتها الاصلية · اما الدفاع عن حدود العراق ، اذا اعتدي عليه من الجهة الشمالية مثلاً ، فهو اهم من مساعدتنا له في شؤونه الداخلية · وان وجود القوات البريطانية الجوية في العراق لازم لذلك · فمن اصعب الامور ان ننقل جيشاً بعداته الكاملة من البصرة الى داخل البلاد ، ثم الى الحدود الشمالية · هي طريقة قديمة وبطيئة وكثيرة النفقات · اما ، ومركز الطيران موجود ، فيمكننا ان نجلب القوات اللازمة للدفاع بوقت قصير — بالطيارات — من مصر او من لندن · »

قلت : « وهل القوات الجوية البريطانية في العراق لخير العراق فقط ؟ »

قال : « كلا · الفائدة مشتركة متبادلة · والا فما معنى العقد — ما معنى المعاهدة ؟ قلت ان وجود قواتنا الجوية في العراق هو لسببين · فينبغي ان اصحح ذلك · انما هو لثلاثة اسباب · وما السبب الثالث باقل اهمية من السببين الآخرين · فالقوات الجوية البريطانية في العراق لازمة لتأمين خط المواصلات الامبراطورية · »

ثم تطرقنا في الحديث الى ميناء البصرة والسكك الحديدية[1] ، فقال

(١) أنشئت سكة الحديد ، وهي بعرباتها وموادها قديمة ، في اثناء الحرب العظمى لاغراض عسكرية وانتقلت ادارتها في سنة ١٩٢٠ الى حكومة الاحتلال · فتولت اعمالها ثلاث سنوات بخسارة جسيمة ، فسُلِّمت لحكومة العراق في سنة ١٩٢٣ بعد ان ثمنها الاخصائيون باربعمائة وثمانية وخمسين لك روبية · ثم تم الاتفاق على بيعها بمائتين وخمسة وسبعين لكاً وكانت الحكومة العراقية قد قرضتها بضعة قروض خلال المدة التي

السر فرنسيس :

« هي مسألة تجارية ، محض تجارية · وقد تساهلنا في التسوية الاخيرة تساهلاً يذكر · قبلنا بالميناء ما طلبته المعارضة ، اي ان يكون ملك الحكومة العراقية مباشرة ، وان يكون الثمن اثنين وسبعين لكاً من الروبيات · (٤٨٠,٠٠٠ ليرة انكليزية) ثم جعلنا الفائدة ٦/١٠٠ غير مركبة لعشرين سنة · وبمثل هذا التساهل تسوت مسألة السكك الحديدية التي اصبحت ملكاً لحكومة العراق · اما مجلسي الادارة لشركة الميناء وشركة السكة فقد جعلنا كلا منهما موءلفاً من خمسة اعضاء ، اثنين عراقيين ، واثنين بريطانيين ورئيس تعينه الحكومتان بالاتفاق بينهما · الا انا طلبنا ، لاسباب عملية تقنية ، ان يكون مدير السكك الحديدية الحاضر ، وهو انكليزي ، الرئيس الاول لمدة خمس سنوات · ولكان من العدل — ونحن الدائنون — لو طلبنا ان يكون مديرا المجلسين من الانكليز لمدة الدين كلها · ولكننا تساهلنا ، حباً بالاتفاق والتعاون · فيليق بالمعارضة ان تقدر ولو بعض التقدير هذا التساهل منا · ولما كنا متساهلين لولا املنا بمستقبل العراق ، وثقتنا بحكومته واهله · »

اما الحكومة ، مهما كان لونها الحزبي ، فان ثقة السفير بها مبررة · واما اهل العراق فهم لا يبالون بما يقوله السفراء والوزراء ، وقلما يفهمون ·

تولت ادارتها

اما ميناء البصرة فهو الميناء الجديد الذي يبعد نحو اربعة اميال عن المدينة ، وقد بُني مثل سكة الحديد لاغراض عسكرية · فانتقلت ادارته الى حكومة الانتداب ، ثم الى الحكومة العراقية ، او بالحري الى وزارة المالية وقتياً ، وهي التي تولت ادارته وكانت مسؤولة عنها

فان انصتوا فهم لا ينصتون لمن يضعون المعاهدات إنصاتهم لمن يصوغون القوافي · كلا· فان قصيدة حماسية لتهزهم وتستفزهم اكثر من معاهدة سياسية ، جلية في عدلها ومنافعها ·

« اما العراق فحاله دون التقدم حائلُ
حق له استقلاله فنريده ونحاولُ »

الكلمات للزهاوي، والصوت صوته ، تعالى في تلك الحفلة الافتتاحية في المعرض ، فهدر وصلصل ، فضج المكان بالهتاف والتصفيق · والشاعر الزهاوي المقعد المسن انما هو روح متوهجة تستطيع ان تقذف بنارها في صدور الناس ، فتهيج وتبهر وتعمي ·

اني اذكره وهو جالس على كرسي على منصة الخطابة ، امام آلة الراديو ، يتلو قصيدة موضوعها الربيع · ولكن الموضوع مهما كان لا يحول دون مكان للعراق فيه · ان الزهاوي لسيد موضوعه · فعند ما وصل في تمجيد ربيعه الى العراق — ولا تسل كيف وصل — تأججت تلك النار في صدره ، فهزته ، فنهضت به ، فاستوى على رجليه ، ورفع الى السماء رأسه ويديه ، وهو يردد بصوته المجلجل :

«حق له استقلاله فنريده ونحاولُ»

فاهتزت الآلة وكادت تقع الى الارض ·

ثم عاد تدريجاً الى سكينة الربيع وجلاله ، وحاول اثناء ذلك ان يجلس ، دون ان يدرك ان الكرسي ساعة وقف انزاح من مكانه ، فهوى الى الارض بضجة مؤلمة ، فسارعنا اليه نعينه ، فوقف هادئاً كأنَّ لم يكن شيئاً،

ثم صاح باعلى صوته مردداً بيتي القصيد :

« اما العراق فحاله دون التقدم حائلُ
حق له استقلاله فنريده ونحاولُ »

ومدّ « نحاولُ » فطاولت السماء ، فأذكى بها جنة الناس .

وقد كان لهـذا الحادث معناه الرمزي ، الذي تمثل بعثرة الشاعر ، فما خفي عليهم . فان تعثر العراق وسقط مراراً ، وهو « يحاولُ » ، فهو يقف حالاً ويمشي ، مستمراً في المحاولة . ادرك الشعب ذلك فازدادت ناره تأججاً . وقد كان بامكان الشاعر في تلك الساعة ان يقوده الى ساحة القتال . هوذا الهول البشري ، الشعبي ـ هوذا الدهماء هوذا السواد — الذي تموّل عليه الاحزاب السياسية في المعارك الحزبية والوطنية . أفليس من العجب ان لا تفوز المعارضة فوزاً باهراً في كل مواقفها ؟

اما موقفها تجاه المعاهدة الاخيرة — موضوعنا الآن — فهو وطيد منيع . وان لها في الرد على السر فرنسيس همفريس حججاً دامغة وآراءً سديدة ، يصرح بها من حين الى حين ، في المجلس النيابي وخارج المجلس ، زعيم المعارضة الاكبر ياسين باشا الهاشمي . واني ملخص للقارىء بعضها .

لو وقعت الحرب بين انكلترة والهند مثلاً ، او بينها وبين تركية او ايران ، فالعراق ينقاد اليها ، اذ عليه ان يساعد « عملاً بالمادة الرابعة » حليفته بريطانية العظمى ، فيقدم لها « في الاراضي العراقية جميع مـا في وسعه ان يقدمه من التسهيلات والمساعدات ، ومن ذلك استخدام السكك الحديدية والانهر والمواني والمطارات ووسائل المواصلة كلها » ، فيمسي العراق ، والحال هذه ، ساحةً من ساحات الحرب . اذن خير له ، وهو بين شرين

اي تقييد وسائل المواصلات ، والمشاركة في الحرب خارج البلاد ، ان يختار الشر الاصغر ، وهو ان يرسل جنوده الى ساحة القتال وتظل اسباب المواصلات كلها حرة بيده ·

اما القوة الجوية البريطانية في ارض العراق ، والقوات العسكرية في المطارات الثلاثة (المادة الخامسة) التي يأذن بها — لا بأس بالمجاملة — جلالة ملك العراق « وفقاً لاحكام ماحق هذه المعاهدة » لحماية هذه المطارات ، فهي حقيقة وفعلاً احتلال عسكري · كيف لا ، والامتيازات التي تتمتع بها القوات العسكرية ، في ارض عراقية ، لا تعتبر من العراق ، فلا تجري فيها احكامه المدنية ، ويعفى المقيمون فيها من الرسوم الجمركية وغيرها ، هذه الامتيازات تندر وتكاد لا تكون في غير البلاد المحتلة · فلا معنى اذن للمجاملة التي تنتهي بها هذه المادة اذ تقول : « ان وجود هذه القوات لن تعتبر بوجه من الوجوه احتلالاً ، ولا تمس على الاطلاق حقوق سيادة العراق · »

أضف الى ما تقدم ان الحكومة العراقية يتوجب عليها ان تقوم « بجميع التسهيلات الممكنة لنقل القوات المذكورة وتدريبها واعاشتها » (البند الثالث من الملحق) فاذا اضطرت الحكومة البريطانية ان تنقل احد المطارات مثلاً من مكان الى مكان ، وما كان لسكة الحديد شعبة تصل المطار الجديد بالخط الاصلي ، فعلى حكومة العراق ان تمد تلك الشعبة عَلَى نفقتها ، وان كانت غير لازمة لها وغير مفيدة ·

وما مطار الهنيدي الذي اشاد بصفقته السر فرنسيس همفريس ؟ أيستخدمون الارض مجاناً ، وينتفعون بالمطار عشر سنوات ، ثم يبيعون

بثلثيَ القيمة التي أُنفقت في تأسيسه ، بـدل ان يقدموه مجاناً للعراق ؟ بل يجب ان يُقدم بمقابل الارض التي قدمها العراق للحكومة البريطانية في الحبانية . ان ذلك هو العدل .

وثمة نير في المادة الاخيرة من المعاهدة ، هو تجديـدها . فلو فرضنا ان المعاهدة لازمة لمصالح الفريقين المشتركة ، فقد لا يرى العراق بعد خمس وعشرين سنة ، لزوم تجديدها . فماذا يفعل اذ ذاك الفريق الثاني ؟

هب ان خط المواصلات البريطانية قـائم على الدوام ، او لخمسين سنة اخرى ، فيجب ان تدوم اسباب الحمايـة له ، فيُكرَه العراق في تجديد المعاهدة . وبكلمة اخرى اذا بقيت الهند في حوزة الانكليز بعد خمس وعشرين سنة من تاريخ المعاهـدة فعلى « الفريقين الساميين المتعاقدين ان يقوما ، بناء على طلب احدهما ، بعقد معاهدة جديدة ينص فيها على الاستمرار على حفظ وحماية مصالح صاحب الجلالة البريطانية الاساسية في جميع الاحوال . » واذا رفض العراق ذلك ، فالمسألة « تعرض على مجلس عصبة الامم . » وهناك البلية . فماذا عسى ان يكون حظ العراق من احكام العصبة — ومؤامراتها ؟

اما ميناء البصرة والسكك الحديدية فانها كابوس ياسين . فقـد طالما روّعاه وأرّقاه منذ تولى وزارة الاشغـال سنة ١٩٢٢ الى اليوم . انه حقاً بطل الميناء والسكة . فمن من الوزراء العراقيين سعى سعيه ليحرزهما للعراق هبةً خالصة لوجه الله . اما وقد حالت الاقدار والسياسة دون الهبة ، فان الفضل الاكبر لياسين باشا في تخفيض ثمنها نحو نصف ما كان يطلبه الانكليز .

وليس الاعتراض الان على الثمن[1] وقد تحدد باتفاق الفريقين ، ولا على الفائده الغير مركبة لمدة عشرين سنة ، والمركبة بعد ذلك ، ولا على الملكية التي تقررت لحكومة العراق . انما الاعتراض هو على الاغلبية الانكليزية في ادارة الشركتين . ولا يرجى كبير خير للعراق من القانون الذي سيسنه المجلس النيابي لادارتها . ذلك لان القانون هذا ينبغي ان يطابق الاتفاق الذي تم بين الفريقين ، ولا يجوز تحويره بدون اتفاقهما ما زال على العراق قسم من الدين .

اما الاتفاق فقد تقدم ذكرُ شيءٍ منه في حديث السر فرنسيس همفريس . وهناك شروط اخرى تتعلق بمجلسي ادارة شركة الميناء وشركة السكك الحديدية . فللشركة وحدها الحق في استدانة المال للتحسين والترميم والتمديد ، وفي توظيفه في حال الفيض . وعلى الحكومة العراقية ان تعقد والموظفين البريطانيين في السكك الحديدية عقوداً لثلاث سنوات ، ولا تنتهي هذه العقود بغير موافقة الحكومة البريطانية .

هذي هي خلاصة الاتفاق لحل المشكل المالي الذي كان عقدة العقد في جميع المعاهدات والمفاوضات التي جرت في السنوات العشر الاخيرة . ولا يزال هذا الاتفاق نفسه موضوع الخلاف بين الحكومة والمعارضة . بيد انه يُظن ان الحكومة ، وهي ترى فيه بعض ما تراه المعارضة من الحيف ، ستنتهز الفرصة في المستقبل لتطلب ان يعاد النظر فيه .

اما الان فموقف المعارضة ، وان خفَتَ صوت احد حزبيها ، هو الموقف

---

(١) اي ٢٧٥ لك روبية (١٦٧٣٤٦٠٠٠ ليرة انكليزية) ثمن سكك الحديد ، و ٧٢ لكا (٤٨٠٦٠٠٠ ليرة) ثمن ميناء البصرة .

الامنع والاعز . وخصوصاً في مـا اسلفت من اعتراضها عَلَى المعاهدة ومما تثيره من الخوف والحذر .

خذ الدين مثلاً . فهو في مجموعه مليونان وثلاثمائة وستة عشر الف ليرة انكليزية . فلو كان بامكان العراق ان يدفع هـذه القيمة مباشرة لفعل ، ولتملك ملكاً تاماً ميناء البصرة والسكك الحديدية . وبكلمة اخرى لأحرز استقلاله . ولكن الانكليز لا يريدون المال دفعة واحدة . فعلى العراق ان يدفع القيمة نسيئةً ، وان يقبل باقلية الاصوات في مجلسي ادارة الشركتين ، وان استمر الحال خمس وعشرين سنة . أوَ لا يجوز ان يحدث في خلال هذه السنين ، ما يوجب زيادة الدين وتمديد مدته ؟ أوَلا يجوز ان يحدث ما يحمل الانكليز عَلَى الاستئثار في ادارة المجلسين ؟ أوَ لا يجوز ان يحدث . . .

ليتكِ ، يا انكلترة ، ما كنتِ ذات ماض مريب في الصين ، وفي جنوبي البلاد العربية ، وفي مصر ! لكان الناس اذ ذاك يثقون بكِ ، ويشكرون الله عَلَى بركات التعاون واياكِ . ولكن الخوف الاكبر والاشد ، الخوف الذي تزدريه اليوم الحكومة ، وتستشعره المعارضة ، هو ان المجلس الاداري ، السائدة فيه كلمة الانكليز ، سيستمر في تحسين ميناء البصرة ، وفي تمديد سكك الحديد ، ليزيد بالدين على العراق ، ويوجب عليه تجديد المعاهدة . وبعد ذلك ؟ دَين كدين مصر — ولا انتداب — ومعاهدة يأبى العراق ان يجددها . فهل يلزم اكثر من ذلك لتتذرع به الحكومة البريطانية في احتلال العراق احتلالاً ثانياً — عسكرياً — مصرياً !

قد يكون في هذا التخوف شيء من الوهم والمبالغة . وقد تزيلهما تدريجاً حكومة العراق اذا احسنت التعيين للاعضاء العراقيين في مجلسي

ادارة السكة والميناء · فاذا كان التعيين ، كما هو الغالب ، سياسياً ، اي لارضاء الملل والاحزاب ، فيكون صاحب المعالي صاحبَ وجاهة وبلاهة ، فالاعضاء الانكليز اذ ذاك يستقلون في العمل ، ولا غرو ، ويستأثرون ·

اما اذا كانت الحكومة تتجرد من الحزبية فتعين من هم اهل لهذه الوظائف من رجال العمل والمال ، المجربين المدربين ، والمشهورين بنزاهتهم ووطنيتهم ، فلا خوف اذ ذاك على العراق · فان اولو الوطنية والعلم والخبرة ليستطيعون ، في مثل هذه المراكز ، ان يحفظوا مصالح بلادهم ، وان ينقذوها من الديون الاجنبية ·

بيد ان هناك غير الديون الاجنبية — هناك اعباءٌ غير بريطانية · فمذ أُلغي الانتداب ازدادت تبعات العراق · ان جنيف لجذابة ، وانها لمقيّدة · اجل ، ان عصبة الامم تصنع قيوداً جديدة ، قبل ان تفك القيود القديمة · وهب ان العصبة عصبةُ ثلاث امم ٍ لا غير ، فهي تستطيع ان تحل وتربط في الشؤون التي تتعلق بالامم الصغيرة ، فتعتبر احكامها وتطاع · ولكن هناك احوالاً وان قلت تعكس فيها الآية ، فتقف احدى الدول الكبرى امام لجنة الانتدابات الدائمة لتجيب على سؤالات محرجة ، او انها تقف في المجلس موقف الدفاع عن نفسها · وهذا ما يزعج عصبة الثلاث امم ·

لماذا رغبت الحكومة البريطانية مثلاً بالغاء الانتداب ؟ الجواب وجيز بسيط · ان المعاملة والعراق مباشرةً لخير من المعاملة عن طريق جنيف · وقد كان موقف العراق في هذا الامر موقف الحكومة البريطانية عيناً · اذن علينا ان نتخلص من جنيف · وذلك لا يتم الا بدخول العراق في عصبة الامم · لذلك كانت مساعي الحكومة البريطانية مستمرة في هذا السبيل ·

وهي تعود الى سنة ١٩٢٤ عندما وقف اللورد پارمور في مجلس العصبة وقال ان قريباً يمسي الانتداب غير لازم في العراق وغير مفيد ، نظراً لتقدم البلاد السريع في الشؤون الاقتصادية والسياسية · وقد ردد هذا القول كبار رجال الانتداب انفسهم ، لا سيما السر فرنسيس همفريس الذي نصر العراق في طلبه وقال انه جدير ان يدخل العصبة ، بعد ان يؤدي الضمانات اللازمة ، التي ستُحدَّد في معاهدة تحل محل صك الانتداب ·

ولكن ذلك مقيد بحقوق وشروط لعصبة الام نفسها · فبعد ان بحث مجلسها الاعلى المسألة ، وحدد الضمانات والشروط ، قدمها للعراق ، فقبلها ، فاصبح اهلاً للصولجان والملكوت · هي ذي اعباء العراق الاخرى — الغير بريطانية · اما انها اعباء ثقيلة فذلك ظاهر من المذكرتين اللتين قدمها العراق لعصبة الام ، قبل دخوله بخمسة اشهر ·

وقد ذُكِرت في الاولى مسألة الاقليات ، صواحب العصبة المحبوبات ، فأدّى العراق من اجلهن ضمانات ثلاث ، عامة وخاصة واضافية · اولاً : يضمن العراق لكل شعوبه على السواء حقوقهم المدنية والدينية والسياسية · فهم في نظر القانون متساوون ، لهم جميعاً نفس الحقوق ، وعليهم جميعاً نفس الواجبات · ثانياً : ويضمن للاقليات الدينية والجنسية جميع الحقوق التي يتمتع بها الاخرون · ثالثاً : ويحق لهذه الاقليات ان تؤسس على نفقتها معاهد خيرية ودينية تختص بها ، ومدارس طائفية يتعلم اولادهم فيها بلغاتهم ·

وقد زيد في الضمانات للاكراد · فان لهم الحق ان يعلموا اولادهم في مدارسهم الخاصة بلغتهم الكردية ، وان تكون اللغة الكردية لغةً رسمية مثل العربية في الالوية التي هم فيها الاكثرية ، كالسليمانية واربيل ·

اما المذكرة الثانية فهي تختص بالاجانب وبعض الامتيازات الدولية . فالعراق يضمن للاجانب حرية الضمير والعبادة ، اللهم اذا كانت لا تخالف الاداب العامة ، ولا تخل بالنظام . ويرحب بالمرسلين من اية طائفة كانوا او من اي دين . ويمهد سبيل العمل للارساليات التهذيبية والدينية والطبية . ويتعهد ان يعامل رعايا الحكومات التي هي من عصبة الامم معاملة اكثر الامم تفضيلا لديه — بشرط ان تعامله بالمثل — لمدة عشر سنوات من تاريخ دخوله العصبة .

ان بعض الامتيازات ، كالمدارس الارسالية والطائفية ، لا تتفق ومساعي الدولة الفتية في توحيد وتوطيد قوميتها . وهي تعرقل في الاخص مسعاها في سبيل القضية العربية الكبرى .

اذن موقف الوطنيين في هذه المسألة هو موقف سديد وطيد . وهم فيه موفقون ، في الحكومة كانوا او في المعارضة ، بزعامة نوري او بزعامة ياسين . بل قد تكون الحكومة هي السابقة ، فتسعى لالغاء هذه الامتيازات او بعضها ، عاجلاً او آجلاً ، عملاً بسنة التطور ، ووفقاً لرقي العراق المستمر واستقلاله .

الفصل الرابع

عثرات التعليم الوطني

المبادىء المسيحية في تحرير العراق — الاقليات — مسنيور ثقيل الظل — لفظة انكليزية تعبر عن خمس لفظات عربية — المدارس الطائفية — المدارس الاهلية والرسمية — صيحات رؤساء الاديان — العراق يحرم المسيحيين حقوقهم — المستر لويد جورج يأرق ويغتم — المستر أسكويث ينصح بالجلاء عن العراق — لويد جورج يذكر البرلمان بالنفط — مكابرة بعض الرؤساء — الانكليز الاحرار في مديرية المعارف — ساطع بك الحصري — سجاياه وبلاياه — مثلان من عمله واسلوبه — قصة كرنيليوس فان ديك — المعلم الايراني الذي صار عراقياً — التجنس لا يذهب بحب الوطن — قصيدة تذهب بوظيفتين

كان للسر آرنلد واسون ، الحاكم المدني بالنيابة في بداية الاحتلال ، آراء سياسية أدى العملُ بها الى الثورة . وكان له في التعليم آراء غريبة اقل ما يقال فيها انها مثل آرائه السياسية ، رجعية استعمارية . فقد جاء في كتابه « تنازع الولاء »[1] ان العراق لا يصير اهلاً للحرية « الا اذا أُشرب المبادىء المسيحية . » الانجيل ثم التاجر ثم المدفع ، هي سياسة قديمة ذهبت مع من ذهبوا في الحرب العظمى . ولكن بعض السياسيين والمتدينين ، مثل السر آرنلد ، ظلوا متمسكين باذيالها . فقد حاول الحاكم المدني في بداية الاحتلال ان يحييها ويعززها بواسطة التعليم في مدارس الاقليات .

وما اعجب تلك الاقليات ، الجنسية والدينية ، المسيحية وغير المسيحية ،

---

(1) A Clash of Loyalties

التي كان رؤساؤها يحومون حوله ، ويزيدون بكربته في ما يدّعون ويطلبون . بيد انه كان يمالئهم ويجاملهم جميعًا ، من بطاريق النصارى — الكلدان والسريان والآشوريين والارمن — الى رؤساء اليزيديين ، ومن اغاوات الاكراد الى المرسلين والمبشرين ، المقيمين والزائرين .

وممن جاءه من وراء البحار في تلك الايام حبر من احبار الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، هو المنسيور مارتين القاصد الرسولي — جاء من رومه يتفقد قطيعه الكاثوليكي في الناحية الشمالية من العراق . فاستأذن بالسفر الى الموصل التي لم تكن مفتوحة يومئذ للاجانب . كان هذا المنسينور أشد الزائرين نزعة ، واكثرهم الحاحًا ، واثقلهم ظلاً . فتعمّل السر آرنلد المجاملة ، ثم تعلل ، ثم نزع القناع . فما اكترث المنسينور لذلك ، وظل يُصر على طلبه مسرفًا ملحفا . فشكاه السر آرنلد الى حكومته بلندن ، وهو يود لو كان بامكانه ان يرسله ، لا الى الموصل ، بل الى حيث القت رحلها أم قشعم[1] ولكن الحكومة بلندن لم تكن من رأيه ومزاجه . أفليس هذا المنسينور من الامم الموالية — من احدى حليفاتنا الكريمات ؟ اذن هو اهل للمجاملة والاكرام . اذن ليسافر الى الموصل والى غيرها من البلدان التي يهوى .

وماذا فعل المنسينور في الموصل ؟ ليس لدينا من العلم باعماله غير العلم

---

(١) للانكليز كلمة واحدة تقوم مقام هذه الكلمات الخمس وهي Jericho اي اسم البلدة التاريخية في فلسطين ، فتكفيهم خشونة ذكر الجحيم . وقد يكون قال السر آرنلد لسيادة القاصد الرسولي : لماذا لا تسافر الى آريحه ؟ وما ادرك سيادته ما أُريد له في ذلك من الخير !

ببعض نتائجها ، اي ما بُعث وتجدد من المعاهد المسيحية الكاثوليكية التي تعطلت وأقفلت في ايام الحرب . على ان السر آرنلد يريد بالمسيحية غير الكثلكة الرومانية، وقد سهل السبيل مع ذلك للقاصد الرسولي ، عملاً باوامر « دَوْنِن ستريت » وعملاً بمبدأٍ آخر من مبادئه الرجعية الاستعمارية ، وهو ان وحدة العراق ، التي لا تقوم بغير توحيد المدارس ، هي غير ممكنة ، وغير لازمة .

لذلك افسحت حكومة الاحتلال المجالَ للمدارس الطائفية ، وشجعتها ، وعززتها ، وأغدقت عليها . بل قد اعطت هذه المدارس ، من الامتيازات ، فوق المساعدات المالية ، ما لم تكن تحلم به في عهد الاتراك . فقد كانت ادارتها بيد رؤساء الطوائف ، وكان مدراؤها في الاغلب من رجال الدين ، وكان برنامجها يقُرر باتفاق مديرية المعارف والرؤساء ، الذين مُنحوا ، مع ما منحوه ، حق اختيار كتب التدريس .

استمرت هذه الحال بضع سنوات ، فازدادت المدارس الطائفية ، وهي تُدعى في العراق المدارس الاهلية ، وامسى عددها مقدار نصف عدد المدارس الرسمية ، اي مدارس الحكومة . فاضطربت مديرية المعارف ، وحارت في امر تلك المدارس الشاذة في ادارتها ، وما اهتدت في بادىء الامر الى الخطة اللازمة لاصلاحها . فما هي هذه المدرسة الطائفية التي لا تخضع الا في بعض الشؤون للحكومة ؟ ليست في امتيازاتها من مدارس الاقليات ، وليست في استقلالها من مدارس الحكومة .

فكرت مديرية المعارف، ثم حاولت ، ثم فكرت وتشجعت، فاقدمت على العمل الذي رأت فيه العدل والمساواة . وذلك انها خيرت رؤساء تلك

المدارس بين أن تكون مدارسهم اما كمدارس الاقليات ، واما كمدارس الحكومة . فتعامَل في الحال الاولى معاملة مدارس الاقليات كلها ، وتمنح المُنح المالية ذاتها ، او تخضع ، في الحال الثانية ، للقوانين والنظم التي تختص بمدارس الحكومة ، دون ان تفقد حق اختيار المعلمين لتعليم الطلبة دين اجدادهم .

قد اختار الرؤساء الحال الثانية ، الا القليل منهم ، فاستمروا يطالبون بحقوق مدارسهم المستقلة ، واستمروا يحتجون ، فآنسوا في بعض المتدينين السياسيين ، امثال السر آرنلد ولسون ، التشجيع والموازرة ، فراحوا يبثون دعواهم في اوروبة ، فتجاوبت مجسمةً في بعض الصحف هناك . — العراق يحرم المسيحيين حقوقهم — العراق يضع المدارس المسيحية تحت نير التعليم الاسلامي ! ولكن حكومة العراق قالت لاصدقاء أولئك الرؤساء وانصارهم الاوروبيين والاميركيين ، واكدت لهم ، انها تمنح ابناء كل طائفة حق انشاء مدارس طائفية ، وتوليهم ادارتها ، بشرط ان يقوموا هم بكل نفقاتها . فابى الرؤساء مكابرين .

استمرت الشكاوي والاحتجاجات تنتشر في الدوائر الدينية والسياسية ، فنمت الى اذنٍ تقية ، في الوزارة البريطانية ، هي اذن الرئيس نفسه المستر لويد جورج . فاهتم واغتم لمصير اولئك الشعوب المسيحية القديمة ، وقام يدعو لانقاذها . اجل ، قد دعا حتى اميريكة للموازرة « في هذه المهمة العظمى التي تفرضها علينا المدنية . »

ولكنه في موقف آخر نسي اولئك المسيحيين ونسي تلك المدنية . فعندما صرح المستر أسكويث ، زعيم المعارضة يومئذ ، برأيه في السياسة

الانكليزية العراقية ، ودعا الحكومة للجلاء عن العراق والاحتفاظ بمنطقة البصرة ، نهض لويد جورج للدفاع فقال — ماذا قال ؟ ان في الموصل اقليات مسيحية يتوجب علينا حمايتها ؟ كلا . بل قال في البرلمان : « ان بلاد الموصل غنية بثروتها الطبيعية — غنية بالنفط . » قالها لنواب انكلترة ، وكأنه همسها في اذن الامة .

اما كلمته المجنحة . الكلمة التي وصلت الى العراق ، فهي تلك التي نطق بها دفاعاً عن اصحابه المسيحيين ، وعن مهمة التمدن المقدسة . فاعتز اولئك المسيحيون ، وتضاعفت الاحتجاجات والمكابرات . كيف لا ، وقد روي عن رئيس احدى المدارس الاجنبية انه قال : « لم تعترف حكومتي بحكومة العراق ، ولا انا اعترف بمديرية المعارف العراقية . »

وما خلت مديرية المعارف في تلك الايام من بعض الانكليز الاحرار ، الذين قاوموا تلك النزعات الطائفية والدينية ، وسعوا سعياً مبروراً لتأسيس وتأييد خطة عصرية وطنية . اما الذي جاهد من الوطنيين الجهاد الاكبر في هذا السبيل فهو الاخصائي العربي في التعليم ، واحد اساطينه في الشرق الادنى ، ساطع بك الحصري . ولكنه لقي في جهاده من الصعوبات اشدها . وكانت تظهر غالباً في النزعات السياسية الحزبية التي تحكمت بالمديرية وحتى بالوزارة نفسها .

وما ساطع بغريب في البلاد ، ولا هو حديث العهد في مهنته . فقد ولد في صنعاء اليمن من ابوين سوريين ، وتلقى العلوم في الاستانة ، وهو منذ ثلاثين سنة يمارس مهنة التعليم ، تدريساً وكتابةً وادارةً ، في تركيه ، وفي سوريه ، وفي العراق . اما ان في لهجته العربية أثراً من التركية فذلك لا

يضير . ان حبه للعرب في قلبه ، لا في لسانه . ولا احد ينكر على ساطع الاخصائي مقدرته ، او على ساطع الرجل فضله . بيد انه ، مثل اكثر الاخصائيين ، ضيق نطاق الحياة الفكرية ، فله في مسلكه خط واحد لا يعدوه ، ونظر فيه يبعد ولا يتسع . لذلك ترى سجيته الكبرى في صلابة عوده ، وفي حبه للنظام وقيوده . وكفى بالشطر الثاني منها قيداً للرجل العامل ، عالماً كان او سياسياً ، في هذا الشرق العربي . فالناس ينفرون منه ، وقد يتألبون عليه . انه في الحالين ليلقى شتى الصعوبات والمقاومات .

وقد لقي ساطع منها ، وهو مدير المعارف العام ، الشيء الكثير ، فكان في بعض الاحايين غالباً ، وفي اكثرها مغلوباً . ولا عجب ، وعوامل العداء لخطته ومبادئه اكثر واشد من عوامل الولاء . فقد كانت الاولى تتجسم حتى في رئيس الوزارة نفسه ، المعين غالباً لارضاء فئة من الناس ، سياسية او طائفية ، وهو ، وان كان من السادة العارفين ، لا يعرف من فن التعليم اولياته . فالمدير الذي يعادي مثل هذا الوزير يزيد خصومه ، لا سيما في دوائر عمله . ومع ذلك قد سلك ساطع المسلك الخشن ، بما هو مفطور عليه من شدة الشكيمة ، وقوة الارادة ، فافلحت ، كما قلت ، بعض مساعيه ، وكثرت اعاديه ، فغدا في حال لا تطاق . ألا فالوزير ناقم ، والحكومة مغضبة ، ورؤساء الاقليات والمدارس الاجنبية غير راضين . استعاذ ساطع منهم بالله ، ولبس خوذته الشبيهة بمباديه — لا تتغير — وراح ينشد الحرية .

اما وقد وصلنا الى هذه المرحلة من حياته التعليمية . وفيها مما له اكثر مما عليه ، فسنعطي القارىء مثلين من عمله واسلوبه . ليست المدارس الاجنبية كلها اوروبية واميريكية . بل هناك مدارس ايرانية ، وان قلّت ،

تولّد للعراق المشاكل والصعوبات ، مثل غيرها من مدارس الاجانب . فقد كان في بغداد مثلاً مدرستان ايرانيتان ، وكان الطلبة فيهما ، واكثرهم عراقيون ، يُكرَهون عَلَى لبس القبعة السوداء الايرانية . وما القبعة بذاتها شيئاً مهماً . اما اذا عُدّت عاملاً من عوامل الدعاية الوطنية ، فلا يجوز التغاضي عنها . انما نحن في العراق ، لا في ايران — وفي بغداد ، لا في طهران . فالعوامل الوطنية ينبغي ان تكون عراقية ، حتى في المدارس الايرانية البغدادية . هذا ما قاله ساطع لنفسه ، ولاعوانه ، ولرئيسه . على ان التدخل في مثل هذه المسائل يولد مشاكل سياسية ، فضلاً عن ان الانكليز وبينهم وبين الحكومة الايرانية مجاملات ، لا يوافقون . فماذا بعد هذا في استطاعة مدير المعارف العام ؟ ان في استطاعته ان يستنجد عقله الخصب ، فاستنجده ، فجاءه بحيلة — ببدعة — بشيء من الوحي .

أنشأ ساطع مدارس عراقية — رسمية — الى جانب المدارس الايرانية ، وجعلها احب الى التلاميذ بجهازها وبمعداتها . جهزها بلوازم التدريس كافةً — بالخرائط الجغرافية ، والواح المحادثات ، ومصورات الصحة والزراعة ، والكرات الارضية ، وجعل اثاثها كله جديداً . هي ذي الحيلة ، بل هو ذا السحر الحلال . فقد سحر ساطع الاولاد بكراته الارضية ، وصوره الزراعية ، فصار يزداد عددهم في مدارسه ، وينقص في مدارس ايران . ثم كرر العمل في غير بغداد ، وأنشأ في البصرة مدرسة للبنات تباري المدرسة الايرانية ، فسحر البنات هناك بما سحر الصبيان في بغداد .

يذكرني الاستاذ ساطع في عمله هذا بقصة تُروى عن ذلك الاميركي المحبوب ، والمربي الصالح ، الدكتور كرنيليوس ڤان دَيك . ركب

الدكتور حماره ذات يوم وصعد الى الجبل ، فجاءه احد الفلاحين في الطريق ، وسأله : الى اين ؟ فقال الدكتور انه قادم الى القريـة — قرية الفلاح — ليؤسس فيها مدرستين . فقال الفلاح وهو مدهوشاً : وهـل تحتاج قريتنا الصغيرة الى مدرستين ؟ فاجابه ذلك الاميريكي الحكيم : « حيث يذهب الدكتور فان ديك يتبعه الجزويت . »

وقد مُني ساطع بغـير القبعة الايرانية التي اوحت اليه عمله الحربي — والحرب حيلة — بل عمله التجاري — والتجارة بالمباراة — في مقاومة تلك المدارس الاجنبية . مُني باستاذ ايراني ينظم الشعر . كأن روح الاكاسرة جاءت تنتقم لايران — جاءت تخلق لساطع قضية يُقضى بها عليه . فقد سأله ذات يوم وزير المعارف ان يعين احد الشبان ، وهو ايراني التبعة ، معلماً في احدى المدارس . فرفض ساطع الطلب لان الشاب اجنبي ، فقال الوزير : « سيتجنس بالجنسية العراقية . » ثم جاء الشاب يسأل ساطعاً كم الراتب ويقول ان تغيير جنسيته هو امر خطير . فقد كان التغيير موكولاً بالراتب ، حسب الظاهر ، وكان الراتب محبباً اليه التغيير . فصار عراقياً ، ثم صار معلماً في احدى مدارس العراق .

ولكن حب بلاده ، الرابض في فؤاده ، استفاق بعد بضعة اشهر ، فهيج فيه القريض ، فنظم قصيدة باللغة العربية تبدأ بمديح ايران وتنتهي بهجو العراق وحكومته واهله . فلا الجنسية ، ولا العشرون ديناراً ، تفسد حب الاوطان . الا ان قصيدة واحدة تكفي لتسلب الشاعر راحة باله — ووظيفته .

وكانت القضية التي شاءها القدر انتقاماً لايران . فقد عزل ساطع الشاب عن وظيفته ، فغضب الوزير وطلب ان يعاد اليها . فابي ساطع ،

فأصر صاحب المعالي ، ثم رفع القضية الى جلالة الملك ·

ولماذا يُزعج الملك بمثل هذا الامر ، وهو من خصائص مدير المعارف ؟ والى مَ التحكم من وزير مستعجم بشؤون المدير ؟ سأل ساطع نفسه هذين السؤالين ، فاعياه الجواب ، فالتمس اجازة بالسفر ، وهو يقول : لهم ان يفعلوا ما يشاؤون في غيابي · وكذلك كان · فقد أُعيد الشاب الى وظيفته لارضاء صاحب المعالي ، وأُعفي منها بعد عشرة ايام ·

وكان ساطع بعد عودته قد ادرك الحقيقة الكبرى في حياته التعليمية ، وهي انه قِرمية من السنديان ، والحكومة تريد عيدانا من القصب او من الخيزران · وادرك كذلك ان الملك فيصلاً نفسه ، عملاً بما توجبه الاحوال السياسية ، انحاز الى خصومه · وهؤلاء كانوا يطالبون باصلاح شؤون المدارس اصلاً وفرعاً ، فاستعفى ساطع ، وتعين بعدئذ مديراً لكلية الحقوق ·

الفصل الخامس

مبارزة في علم التعليم

لجنة منرو الاميريكية — تقرير اللجنة — رد الاستاذ ساطع عليه — مبارزة بين عقليتين اميريكية وعربية — الفرق بين العقليتين — كشف اللجنة — تقدم المعارف في العراق — جدول مفيد — المركزية الادارية — الوطنية السلبية — الحالة الادبية والصحية — المنهاج الفرد الجامد — مدارس القرى ومدارس العشائر — استاذ نجفي نيويركي — مدارس الاقليات ، الدينية والاجنبية — تقاليد العرب في التساهل — ما تجره الاقليات — تذبذب اللجنة — اقتراحاتها — الخميرة المسيحية — رد الاستاذ ساطع — معلومات اللجنة ناقصة وكشفها سطحي — الناحية الشخصية — الطريقتان في التعليم — التمركز الاداري نوعان — وحدة التعليم — التفتيش « الصلب والرخو » — الغرض الاكبر من التعليم — سيطرة الاجانب — الوحدة الوطنية — ساطع وخصومه — كرامة مجروحة تعدي — الاستاذ الاميركي يغضب — الاستاذ العربي يبتهج — الاستاذان يتصافحان — ما هو التعليم الصحيح ٠

دعت الحكومة العراقية لجنة من الاساتذة الاميريكيين المتخصصين بعلمي التعليم والتربية ، يرؤسها الدكتور پول منرو ، مدير المعهد الاممي وكلية التربية في جامعة كولمبيا بنويورك ، لدرس شؤون المعارف في العراق واقتراح الاصلاحات اللازمة لها ٠ فجاءت اللجنة[1] ، في آخر شهر شباط سنة ١٩٣٢ ، تلبي الدعوة ، وعادت الى بلادها في اخر شهر نيسان ، بعد ان

---

(١) كانت اللجنة مؤلفة من ثلاثة اساتذة اخصائيين وكاتبة سر هي ابنة الرئيس الدكتور منرو ٠ وقد عين وزير المعارف الاستاذ فاضل جمالي مرافقاً للجنة ٠

قضت شهرين في ما تسميه «الكشف التهذيبي» فزارت مدارس بغداد وغيرها من المدن، وبعض مدارس القرى والعشائر، فوصلت جنوباً الى البصرة، وشمالاً الى الموصل. ثم اصدرت كتاباً صفحاته ١٧٢، هو التقرير الذي قدمته لوزارة المعارف، تبسط فيه مشاهداتها وآراءها، ثم اقتراحاتها الاصلاحية.

وبما ان الاستاذ ساطع الحصري كان المدير العام في الدور السابق، ومن المسؤولين — رسمياً — عما آلت اليه احوال المعارف، ومن المغبونين — رسمياً وغير رسمي — في مواقفه التهذيبية الوطنية ومحاولاته التعليمة، كما جاء في الفصل الاخير، نهض للرد على التقرير، فجاء رده كتاباً صفحاته ١٥٠، وقد ُختم برسائل فيها بيان واعتذار منه الى الاستاذ منرو ومن الاستاذ منرو اليه، لا تخلو من الاشارات المزرية، والكلمات الوجيزة اللاذعة.

هي ذي المبارزة العقلية التعليمية التي استوقفتني، فأُغريتُ بها. قرأت الكتابين، لا كطالب علمٍ من العلوم الاختصاصية، بل كمتفرجٍ تروقه المبارزة بين عقليتين الواحدة غرْبية والاخرى شرقية، وهو يتمنى الفوز — لا اكتمك ذلك — للثانية. فهل كان ما تمنيت؟ لا، واسفاه، ولا كان ما خشيت. فقد نسي فارسي المغوار خصمه غير مرة، فوقف، ورمحه مخفوض، ليشرح حال رجل مغبون مجروح. وبكلمة اخرى قد حالت شخصية الفارس العربي دون هدفه، فما كان سيره اليه متصلاً، ولا كان طعنه دراكاً، ليوقع بالخصم ما كنت اتمناه.

اقف ها هنا في المجاز. ان بين العقليتين فرقاً ظاهراً اصلياً. فالواحدة تثق بمقدرتها، والثانية تتهمك في اثباتها. قد لا تكون العقلية الاميركية

اقوى وامتن ، ولكنهـا اكثر تجربةً وتمرّنا . ان العقلية العربية في ترجيعها — اسمح بالاستعارة — وفي وقفاتها الشخصية ، تفسح لمناظرها مجالاً للتبريز . او انها تمضي طلقاً فتجول جولاتها الواسعة ، وهي تهتز وتعـتز ، فتبعد عن هدفها ، او تضيعه ، او تنسى الخط الاقصر اليه . اما العقلية الاميريكية فهي تقف مكانهـا ، ثابتةً فيه ، قانعة به ، مسرورةً حتى بحدوده ، فتضرب وتناضل بقوة مذخورة ، دون ان تجازف بشيء من تلك القوة في الجولات اللامعات . هي لا تعني بروائع الوثبات ولا تقيم لها وزناً ، او انها تخشى ان ينكشف ما قد يكون كامناً من سخف في درعها ، فتكتفي في النهاية ، وهي تبتسم ابتسامة الاطمئنان ، بان تعدَّ طعناتها الصائبة ، وان يحسب فوزها فوزاً نسبياً .

تقول اللجنة في مطلع تقريرها ان التعليم في العراق تقدم ، في عشر سنوات ، تقدماً يذكر ويدهش ، على ما اكتنفه من الاحوال السياسية . وان هذا التقدم[1] يتجاوز النطاق الخارجي ، الاخذ بالتوسع ، الشامل في الوقت

(١) الجدول التالي منقول من تقرير الحكومة :

		مدرسة	تلاميذ
المدارس الاولية والثانوية في سنة	١٩٢١ — ٢٢	١٢٤	١٢٢٣٦
〃 〃 〃	١٩٣٠ — ٣١	٢٧٦	٢٩٦٤٤
مدارس البنات	١٩٢١ — ٢٢	٠٢٧	٠٣٠٤٩
〃 〃	١٩٣٠ — ٣١	٠٤٩	٠٧٨٧٥
المدارس الليلية	١٩٢٢	٠٠٥	
〃 〃	١٩٣١	٠٣٥	٠٦٠٠٠
نسبة مخصصات المعارف في الميزانية : سنة	١٩٢١	٣٫٠٣	
〃 〃 〃 〃 〃	١٩٣١	٧٫٣٧	

الحاضر المناطق الكردية واليزيدية ، وغيرها من مناطق الاقليات في البلاد ·
فان مخصصات المعارف في ميزانية الدولة ، وان كانت لا تزال صغيرة ، قد
تضاعفت في السنوات العشر الماضية · ولكن النقص في نظام التعليم ،
ومواطنَ الضعف فيه ، لا تتعلق بالميزانية ، في نظر اللجنة ، بل هي تقنية
وادارية · واولها هو « التمركز التام في الادارة » ذلك التمركز المقرون
بنظام للتفتيش « شديد الصلابة » فيحول دون الخروج « عن الاشكال
المقررة · » وبكلمة اوضح ان ما يصلح لمدرسة ببغداد مثلاً لا يصلح لمدرسة
قروية او لمدرسة في سوق الشيوخ ·

وما الذي دعا اولي الامر لوضع هذا النظام ؟ هو اعتقادهم ، الذي
تسميه اللجنة « افتراضاً » او « ادعاءً » ، ان وحدة البلاد القومية
والوطنية لا تتم وتتعزز الا بتوحيد خطة التعليم · وهذا التوحيد يتوجب
التمركز في الادارة العامة ·

اما اللجنة فهي « تناقض هذا الادعاء الرئيسي » وهي في بيانها وبراهينها
تصل الى قلب الموضوع ، اي الى الغرض من التعليم · فاذا كان الغرض
منه تحسين معيشة الناس في الامة جمعاء — وهذا رأي اللجنة — فمن
الضرورة ان تُشرَك السلطات المحلية في ادارة المدارس ونشأتها « لتحمل
الاهلين على الاهتمام بها ، وعلى تقديم المساعدات المالية اللازمة لها · »

ومن الآفات الكبرى ان يعتقد الطلاب ان الغرض الاول من التعليم
هو التوظف في الحكومة · فان هذا الاعتقاد لا يربي في الناشئة وطنية
صحيحة · تقول اللجنة انها مارأت ما يستحق الذكر من الوطنية الحقة والحماس
الوطني بين الطلبة والاساتذة · انما هناك وطنية سلبية تقصر على العداء لكل

نفوذ اجنبي ، ولكل سلطة اجنبية في البلاد ·

ثم تقول انها وجدت الحالة الادبية في المدارس غير مرضية (الوزارة تعلم ذلك ، وقد طردت ٣٧ معلماً لسلوكهم المريب) وان الحالة الصحية لفي حاجة شديدة الى الاصلاح ، وان الرياضة البدنية تكاد تكون مفقودة · أضف الى ذلك آفة في برنامج التعليم ، هي تعدد مواضيعه ، واخرى في خطة التعليم ، هي الاتكال عَلَى الذاكرة ، دون عناية تُذكر بتمرين وتجويد قوتي الفهم والنظر ·

ان في اشكال سكان العراق حقيقة مخوفة ، وهي ان الثلثين بالتقريب من العشائر والقبائل المقيمة والمتنقلة ، والثلث الواحد من الحضر · لذلك يتعقد مشكل التعليم · فالخطة الرسمية القاسية التي لا تلين وتتنوع لتشمل مناطق البر والعشائر في مدارسها ، وتتناسب ومحيطها ، هي خطة غير سديدة ، هي خطة ناقصة ، وقد تضر ضرراً جسيماً ·

ذلك ما تراه اللجنة · وهي تسهب في بحث احوال المدارس في القرى وفي العشائر ، وتستعين بما كتبه في هذا الموضوع الاستاذ فاضل جمالي مرشد المعارف بالامس ، ومدير المعارف العام اليوم · والاستاذ فاضل ، الشيعي المذهب ، العصري الفكر ، النيويركي التهذيب ، العربي الروح ، الذي عاد من اميريكه غانماً ظافراً — غانماً زوجة فاضلة ، وظافراً بالعلم النظري والعملي — قد جعل عشائر العراق موضوع أطروحته لاحراز شهادة الفلسفة من جامعة كولمبيا · هو اذن اخصائي في الموضوع ، فلا عجب اذا استعانت اللجنة به ·

والاثنان اي اللجنة والاستاذ فاضل متفقان في ان منهج الدراسة الرسمي

المتبع في المدن لا يصلح لمدارس القرى ، والمتبع في القرى لا يصلح لمدارس العشائر . فهو في الاولى اوسع مما يلزم في الثانية والثالثة ، وهو غير مرن ، وكثير النفقات . قالت اللجنة : « على المدرسة ان تتناسب وحاجات الاهالي التي تؤسس بينهم ومن اجلهم . » وعملاً بهذا المبدأ اقترحت اقتراحات في الاصلاح سديدة قيمة .

ها هنا ينتهي كل ما هو واضح صحيح محقق في تقرير اللجنة ، ويبدأ التذبذب والتعثر والتردد وجمجمة الكلام . فقد وصلنا الى مدارس الاقليات ، الجنسية منها والطائفية ، وصلنا الى العقبة الكؤود ، الى المشكل المعقد تعقيداً شديداً ، الى المسألة الخطيرة بما يكتنفها من عوامل السياسة والتهذيب . فاللجنة تخشى ان يكون حل هذا المشكل الاكبر غير ممكن في الوقت القصير القريب ، وان يستغرق حله سنيناً عديدة .

ثم تجيء بتصريحين هما من الاهمية بمكان . اولها : « ان في تقاليد العرب وتاريخهم ما يثبت تساهلهم وحسن معاملتهم للاقليات الجنسية الدينية . » والثاني : « ان الاقليات الجنسية والطائفية طالما ولدت المشاكل الخصبة بعوامل التفريق والعداء ، فسببت التدخل الاجنبي في شؤون البلاد لتحقق اغراضها الخصوصية ، الدينية ، او الاقتصادية ، او السياسية . »

اذن ، العرب متساهلون ، والاقليات مشاغبون . ولكن اللجنة تكتفي بما تقدم منها ، فهي لا تستنتج شيئاً ، ولا تحكم بشيء . انما تقول : « لا علاج عند اللجنة تقترحه . »

بيد انها تثني على الحكومة القائمة على مبدأ التساهل والمساواة في

المساعدات المالية لمدارس الاقليات [١] وفي تعيين طلاب منها [٢] ليكملوا دروسهم في اوروبه واميريكه · ثم تقول بعد ذلك : « لو أذنت الحكومة تلك المدارس بان تغير بعض التغيير في برنامج التعليم الرسمي ، او تضيف اليه ما تراه لازماً لحفظ تقاليدها ، ومتناسباً ومحيطها ، لاحسنت عملاً ، ولكان تساهلها كل ما هو منتظر او مطلوب · »

هذا الاقتراح تقترحه في شيء من التحفظ والحذر · ثم تستجمع شتات الحزم والجرأة لتقول ان برنامج الحكومة مثقل بالمواضيع ، وانه من الخطأ ، نظراً وعملاً ، ان يُزاد بثقله · اذن ، لا يجوز لمدارس الاقليات ان تضيف شيئاً اليه · هي ذي النتيجة المنطقية · ولكن اللجنة كما اسلفت ، تستمسك عن الاستنتاج · ولما استهدفت للنقد لو وقفت عند هذا الحد · فمن رأيها ان تخفض الحكومة البرنامج الرسمي — تسقط من مواضيعه — لتمكن الاقليات من اضافة ما تريده اليه ! وبعد ان تطلب هذه الامتيازات لمدارس الاقليات تحذر من المحاباة في امتحانات الحكومة ، وتنصح بالمساواة في الامتحان والتعيين بين خريجي هذه المدارس والمدارس الرسمية ·

بهذه الخطوات البطيئة الخفيفة الوقع تتقدم اللجنة الى غرضها الاكبر ،

---

(١) المساعدات المالية في سنة ١٩٣٠ للمدارس الاهلية

المدارس الاسلامية : ١٩٤٥٠٠ روبيه

المدارس المسيحية : ١٥٤٥٠٠ «

المدارس الاسرائيلية: ١٠٤٣٠٠ «

(٢) الطالبات اللواتي يتعلمن في مدارس بيروت : مسلمات ١٢ — مسيحيات ١٢ الطلاب في انكلتره واميريكه ومصر وسوريه ولبنان : مسلمون ٣٥ — مسيحيون ٣٨ — يهود ١٢

فتفلت الهر من الكيس ، كما يقول الانكليز ، او تبيض البيضة ، كما يقول العرب . فاسمعي ، يا حكومة العراق : « اذا كانت الاقليات او الارساليات الاجنبية الدينية (المسيحية طبعاً) تريد ان تنشىء مدارس مستقلة ، فلا تطلب الامتيازات لا لها ولا لخريجيها ، فلسنا نرى ما يوجب رفض طلبها . »

هذه الكلمات تعود بنا الى مطلع الفصل الاخير ، وفيه رأي السر آرنلد ولسون ان العراق يحتاج الى خميرة مسيحية — ولماذا لا تكون بوذية او كنفوشية — والا فهو ليس اهلاً للحرية والاستقلال . فاللجنة تتفق والسر ارنلد ، ان لم يكن جهراً فضمناً . اجل ، ان الاميريكيين مثل الانكليز من هذا القبيل . او انهم يجاملون الانكليز . فقد يكون اعضاء « لجنة الكشف التهذيبي » دَرْوينيين او لا أدْريين في بلادهم ؛ ولكنهم — في هذا الشرق — مسيحيون . فمن العجب انه لم ينهض غير واحد في العراق لانتقاد اللجنة والرد على تقريرها . اذن الاستاذ ساطع الحصري هو اهل لشكر حكومة العراق ، والامة العراقية .

اول ما يراه الاستاذ ساطع في التقرير هو ان معلومات اللجنة ناقصة مشوهة ، وان كشفها سطحي ، فجاءت بكثير من الاقتراحات الفاسدة ، والاستنتاجات المخطئة ، والاحكام الجائرة . ولذلك اسباب هي على الاجمال اربعة : اولاً — الوقت الذي قضته اللجنة في الكشف كان قصيراً . ثانياً — الجو الرسمي الذي احاط بها كان مفعماً بالتحيز . ثالثاً — الزيارات السريعة ، الشبيهة برحلات السياح ، لبعض المناطق . رابعاً — اغفال اللجنة التقارير التي اصدرتها مديرية المعارف ، او حبس المديرية هذه الوثائق الرسمية عن اللجنة . فلو انها اطلعت عليها لما كلفت نفسها النصيحة ولاستغنت عن كثير

من الاقتراحات .

فان في الجو المفعم بالتحيز والتحزب، وفي جهل اللجنة تقارير المعارف، برهاناً ساطعاً ، في نظر ساطع ، على ان هناك حملة عليه مدبّرة . فقد لُفِتَتْ انظار اللجنة الى اشياء فيها نقص وعوج ، وما أُشير إشارة الى النظم والتقارير المعدة لإصلاحها . هي تهمة يثبتها الاستاذ بالوثائق ، ويؤيدها بالبراهين ، فيضيع في ذلك اكثر ما تستحق من الوقت واهتمام . ان هـذه الناحية من رده تضعف موقفه في المبارزة . هي ناحية شخصية لا ينفع الاسترسال فيها ، ولا يضير اهمالها .

لنعدوها اذن الى المسائل الجوهرية . يقول الدكتور منرو : « ان في التعليم طريقتين ، الطريقة التي تصنع من الطلاب رجالاً للدولة ، والطريقة المعروفة بالتعليم الشعبي او العام . وهـذه لا تزال غير معروفة في الشرق .» هي كلمة حق . ولا من الاستاذ ساطع عليها لو لم يفته ، عَلَى ما اظن ، معناها ، فرأى الاسهـاب لازماً فجاءنا بعشر صفحات ليبين ويثبت بالبرهان ان التعليم الشعبي العام كان معروفاً في الشرق — في البلاد الاسلامية — قبل ان وصل الى الغرب بمئات السنين . ثم جاء بمثال ممـا تبقى من أثره وهو مدارس الملالي ، اي مدارس المساجد. هذه المدارس الدينية ، التي يخصهـا الدكتور منرو ببضعة اسطر من تقريره ، يشجبها الاستاذ ساطع بعد الاطناب ، ولا يسأل الله لها غير — السلامة .

فهل تريد يا استاذي العزيز ، ان تبدل خطتك الحديثة في التعليم بتلك المدارس الشعبية المثلثة النعم — القرآن واللغة والحديث — حتى وان كان لا يزال فيها شيء من الخير ؟ لقد اسأت فهم الدكتور منرو ، او انك بعدت

في جولتك العلمية عن هدفه · ان معناه ليظهر لك واضحاً جلياً اذا ما قابلت بين المدارس الالمانية قبل الحرب مثلاً وبين المدارس الشعبية الاميركية ·

وثمة مثل اخر من الجدل الغير مفيد · جاء عرضاً في تقرير اللجنة ذكر خطة التعليم التركية «التي كانت تحتذي الخطة الفرنسية ·» فكتب الاستاذ ساطع عشر صفحات ليعلمنا ويقنعنا بان خطة الحكومة العراقية خالية من كل اثر تركي (ويعطينا اثني عشر برهاناً على ذلك) وان فيها شيئاً من الاساليب والمناهج المصرية ، وانها «غير مصبوغة بصبغة لاتينية ·» كأنما الصبغة اللاتينية نكبة من النكبات في التعليم ·

وها قد وصلنا الى الجوهريات في الموضوع · ان جواب الاستاذ ساطع على ما قاله الدكتور منرو في التمركز الاداري لجواب سديد مفيد · ان التمركز الاداري على نوعين ، الاول يتعلق بالبرنامج والمنهاج ، والثاني بالامور الادارية والمالية · وقد اقتصرت مديرية المعارف عَلَى النوع الاول ، وسعت لان تُشركَ البلديات في الامور الادارية والمالية · بل اقترحت المديرية قانونا يجيز للبلديات فرض بعض الضرائب على الاهالي ، فيصرف المال في تحسين احوال المدارس · ولكن ذلك الاقتراح لم يعمل به لاسباب سياسية وغير سياسية ·

ولقد ادركت مديرية المعارف ، قبل مجيء اللجنة ، ان مدارس القرى تختلف عن مدارس العشائر ، وان المنهاج الرسمي بحذافيره لا يصلح لا لهذه ولا لتلك ، وباشرت النظر في امره · اما التمركز الاداري فما هو ، حتى في نظام المعارف ومنهاج التعليم ، بتمركزٍ صلبٍ شديد · فالمهم المهم فيه ان بعض المواضيع الحيوية اللازمة لشعوب العراق كافةً عَلَى السواء ينبغي ان

تُعَلَّم في كل مدارس العراق تعليماً واحدا ، وينبغي ألا يُعلَّم ما يناقضها او ما يولد روح التنابذ والتخاذل بين مختلف عناصر الامـة . هوذا الامر الذي تذبذبت اللجنة فيه ، وجمجمت الكلام . ثم اقترحت الاقتراحات من اجل المدارس الاجنبية والطائفية . فكان موقفها مضطرباً متزعزعاً ، وموقف الاستاذ ساطع وطيد الاركان .

اما مسألة التفتيش فبدل « الصلابة الشديدة » التي يذكرها الدكتور منرو متخوفاً ، « نجد مئات من الوقائع التي تدل على الرخاوة الكثيرة . » هذا ما يقوله مدير المعارف السابق . ومن اقام في البيت بضع سنوات هو ادرى بما فيه ممن جال فيه جولة قصيرة . هذه الحقيقة يعززها ساطع بالبرهان . فهو نفسه ، لا احد مفتشيه ، رأى في مدرستين ، في جوار بغداد — « و كانت المسافة بينهما اقل من نصف كيلومتراً » — ان احداهما كانت تعمل لاربع سنوات مضت بموجب تقارير وزارة المعارف ، والثانية كانت تجهل تلك التقارير . فاين « الصلابة الشديدة » في التفتيش ؟

وها قد وصلنا في هذه المناظرة ، الى ما قد يكون مشكل التعليم الاكبر في العراق . فالغرض الاول من تأسيس المدارس في هـذا الزمان هو إنشاء امة عراقية عربية موحدة ، وطيدة الاركان ، ومشبعة بروح الوطنية التي تتجسم في الاعمال — « في الخدمة والتضحية . » كما تقول اللجنة .

اما الاستاذ ساطع فهو يقول ان اللجان والمعاهد الاجنبية لا تستطيع ان تساعد العراق في مثل هذه المهمة الوطنية . ولو استطاعت فلا يجوز ان تقبل مساعدتها ، [1] لانها قلما تجيء خدمة صافية . امـا الاقليات فيمكنهم ان

(١) « لا يجوز لامة من الامم ان تطلب حل مشاكلها التربيوية (الاجتماعية

يساعدوا، ولا بد من ان يساعدوا، اللهم اذا تُركوا وشأنهم، فلا يفسد عليهم الوطنيةَ والحياة المرسلُ الاجنبي، والمهذب الاجنبي، والسياسي الاجنبي. وان اقتراحات اللجنة في هذا الامر تعرقل عوامل التضامن وتعوق التوحيد.

انا نسلم بوجوب إنشاء المدارس وفق بيئتها، وبوجوب تكييف منهاج التدريس ليلتئم والاحوال المحلية الاجتماعية والاقتصادية، وبوجوب تناسب التعليم وحاجات الناس. انا نسلم بكل ذلك. واننا لذلك نقول لحضرات الاساتذة الافاضل المشتركين في وضع هذا التقرير ان في بيئات البلاد سيطرة اجنبية واقتصادية، وان احوال البلاد توجب القضاء على هذه السيطرة، وان اول حاجات الناس، في اي بلد كان، هي ان يكونوا احراراً مستقلين، وان هذا المثل الاعلى في الوطنية لا يُدرَك ما زال الاجانب مسيطرين سياسياً واقتصاديا في البلاد. ونقول كذلك ان مواهب ابناء البلاد وادابهم، ما زال الوطن في هذه الحال، لا تبلغ الدرجة العليا المنشودة، وانهم ليخفقون في مشاريعهم، ولا يجيدون اعمالهم، ما زالوا مقيدين بقيود المصالح السياسية الاجنبية. تلك هي حال البلاد، وحاجات اهلها. وتلك هي طعنة ساطع الاخيرة في سبيل التعليم الوطني.

بعد ذلك يقف المتبارزان ويبتسمان ابتسامة الاعتذار والمجاملة. فان الاستاذين الفاضلين، صديقَ العربي والاميركي، في سوى ما تقدم، متفقان، الا في بعض جزئيات الموضوع. ولكن الاستاذ ساطعاً لا يستطيع، وهو يخاطب اللجنة ورئيسها، ان ينسى خصومه السياسيين ببغداد. وكيف

والسياسية) من الهيئات الاجنبية مهما عظمت وسمت مكانتها العلمية .»

نقد تقرير لجنة منرو، صفحة ١٤

ينساهم ، وهم الذين ارادوا اذلاله في جلب هـذه اللجنة الاجنبية ، وهو الاخصائي الوطني في التعليم والتربية ، وهو العالم العامل ، المجرب المدرب ، الواسع الاطلاع والخبرة في موضوعه — بشهادة خصمه الاميركي — كيف ينساهم وهم يزدرونه ويحملون حتى الملك على اهماله وهجره ؟ أفينتظرون منه بعد كل هذا ، ان يقابل اللجنة المحترمة بوجه باسم ، وقلب هادئ ، وعقل مستكن ؟ ! أبشر هو ام اله ؟ لا ورب الكعبة . انما هو عربي ، يغضب ويصول ، ويكتب الفصول ، في الدفاع عن نفسه وعن علمه . ولا يُلام اذا ما دقق في التشريح ، ولا يؤاخذ بالشيء القليل او الكثير من التعنت . فهو ، دام فضلك ، استاذ ، وهو اخصائي !

والغريب في هذه الكرامة المجروحة انها تعدي . فقد سرت منها جرثومة الى الخصم الكريم ، الاستاذ الاميركي الافضل ، الناشئ بين ثلوج العقل ، المشرب روح القطب الشمالي . نعم ، سرت اليه ، فتحلحلت عقدة النفس المربوطة المضبوطة . فاسمعنا في جوابه الوجيز ، تحت صليل سلاحه العلمي والعقلي ، همسات قارسة . بل جاءنا ، في كلمتين ، بقطرتين من حامض الكربونيك . — « كنا نتوقع منكم هذا الموقف الانتقادي . . . والكثيرون من رجال الحكومة ودوائر المعارف انذرونا سلفاً بمقاومتكم . . . نعم لقد كان هذا الموقف معلوماً قبل ان تطلعوا على التقرير . وذلك ما يخفف من حدة المقاومة ، ويذهب بلذعة الانتقاد . »

ثم رد الاستاذ على الرد فكان شاكراً حامداً مبتهجاً . وكيف لا يبتهج ، ورئيس اللجنة نفسه يعترف بما فيه الدليل على تلك الحملة المدبرة . فان اولئك الذين انذروا اللجنة هم زملاء من سعوا لجلبها « للكشف التهذيبي . » فلا يلام

احد سواهم اذا ما انقلب الكشف عليهم وغدا تكشيفا ! بيد ان الاستاذ ينكر ان في ما كتب شيئاً من الحقد او سوء القصد · وهو يؤكد للدكتور منرو انه ما فكر في انتقاد اللجنة قبل ان قرأ تقريرها ·

ثم عاد المتبارزان الى الابتسام · فقد احسّ الدكتور منرو ببعض التعزية في ان ساطع بك لم ينتقد ما اقترحته اللجنة من الاقتراحات العامة الاصلية · « وفي ذلك ما يحملني على الامل ان موقفكم العدائي لن يتصل بجهود الشبان الذين سيُعهد اليهم بتنفيذ هذه الاقتراحات · ان هؤلاء الشبان يحملون مثلي في قلوبهم اكبر الاحترام لاختباركم الكثير ، واطلاعكم الواسع · · · ويعرفون ان ما بذلتموه من الجهد والمقدرة في وضع نظام المعارف الحالي هو اكثر من اية خدمة اقوم انا بها بواسطة هذا التقرير · »

فاحنى الاستاذ ساطع رأسه ، دون ان يبتسم لابتسام الاستاذ منرو ، ودون ان يقتدي به في المجاملة · فانه يعرف اولئك الشبان — وهم عراقيون كملوا دروسهم في جامعات اميريكية — هو يعرفهم كل المعرفة · « وقد عودتهم عَلَى سماع آرائي فيهم بكل صراحة · · · غير اني اعتقد ان اكبر مساعدة معنوية استطيع ان اسديها اليهم الان هو السعي لتوسيع افق ملاحظاتهم فتتعدى الدائرة الضيقة التي هم فيها ، وحملهم عَلَى تدقيق الامور بنظرة محلية تستمد انوارها مما يجري في جميع بلاد العالم ، لا مما يجري في قطر من الاقطار على وجه الانحصار · »

اقف ها هنا والاستاذين الاخصائيين في التعليم وفي المبارزة ، واستأذنهما بكلمة ، انقلها من التقرير ، لاختم بها هذا الفصل · وهي في نظري من احسن ما جاء فيه ، فتحدد التعليم تحديداً ملماً مستوفياً ، تحديداً شاملاً

يصح في روسيه او في الصين ، كما يصح في العراق . جاء في التقرير (صفحة ١٠١)

«ان مهمة التعليم هي بث العلم الصحيح بين عموم الناس بقدر ما تأذن الاحوال من الاطراد والتوسع ، لينقذهم من الامية والفقر والامراض والخرافات ، ويقوي ثقتهم بانفسهم ، وبمستقبل بلادهم ، ويزيد في انتاجهم الاقتصادي والزراعي . وبكلمة اخرى ، ليضمن العيش الهنيء للشعب ، والفلاح للامة .»

ان هذا التحديد لمهنة التعليم هو احسن ما قرأت ، واحسن ما اختم به هذا الفصل . واني احب في اخر الختمة ان اعيد وامكن هذه الكلمات :
«لينقذهم من الامية والفقر والامراض والخرافات .»

الفصل السادس

في واحات الشعر

لغة الشعر الجديدة في المغرب — قيود الشعر العربي — التقاليد القديمة — التطور الحديث — الصوت الاعلى في شعرنا الحاضر — الوطنية الواسعة النطاق — اربعة من شعراء العراق ٠

جميل صدقي الزهاوي — نوائب الحياة — الروح الجبارة — التهكم والمجون — عمر الخيام والمعري — « ثورة في الجحيم » — منكر ونكير — المجاملة والحيرة والاضطراب — تمرد الشاعر — الله والاثير — الملكان المنكران — عذاب الشاعر في الجنة — وصفه للجنة — وصفه للجحيم — من يشاهدهم في النار — عمر الخيام يتغنى بالخمرة — سقراط يلقي محاضرة — ابو العلاء المعري يخطب خطبة ثورية — الاختراع العجيب — الثورة — اندحار الزبانية — النجدة السماوية — انتصار سكان النار — السلم والصعود الى الجنة — جيد الشعر ورديئه في القصيدة — ما هو فيها مقلد لدانته وما هو فيها مبتدع ٠

معروف الرصافي — « أحبُ صراحتي قولاً وفعلاً » — الحقيقة العارية في اشكالها والوانها — الفضيلة واخواتها المتهتكات — قصيدة في الاخلاق — اجتماعي الاول بمعروف — القيافة البدوية — ايامه في الاستانة — في فلسطين وسوريه — العودة الى العراق — اجتماعنا الثاني — الاغارات والغنائم — التصعيد في سلم السياسة — اجتماعنا الثالث — معروف في مجلس الامة — ما غيرت السياسة ما بنفسه — روح الشاعر وصناعته — رأيه في الوحي — الصلة بين القريحة والباه — يمتنع عن الجماع ليستطيع ان ينظم — حديثه عن النبي — السيرة النبوية الرصافية — ميزاتها العقلية والفلسفية — رأيه بالله — حبه للجمال — ليلة من لياليه — الجارة المومس —

العري — اول امرأة اوروبية شاهدها — قصة طريفة ٠

رضا الشبيبي — عادة من عادات ادباء الغرب — هدية الشاعر للمؤلف — بيته في النجف — طير في قفص — يفر من القفص ويعلق على دبق السياسة — المجلس التأسيسي — العزلة في الكراده — القيود التي اختارها الشاعر لنفسه — الارث الشيعي — شاعر روحي — مؤمن مطمئن حتى في حيرته واضطرابه — تمرد ينتهي بالخشوع والطاعة — مجموعة متسلسلة من شعره — « سكرة النفس » — الفرق بينه وبين الشاعر الانكليزي هنلي — صعوده ونزوله في سلم الفكر — التعزية في العزلة — محاسبة النفس — التردد والاقدام — بقاء الانسب — الاضاليل والخرافات — الحصن الحصين — شبان الشرق — مثال من نثره في التفوق الغربي الموهوم

احمد الصافي — طير اخر يفر من قفصه بالنجف — طير ولا كالطيور — اين كانت نِعَم الحياة يوم ولادته ؟ — ما عوض النجف عليه بشيء — امرته النكداء — السخرية والغضب — الدموع — هو كالطبيعة في صدقه — حملتنا على الشعر الباكي — الابتسام المحزن والقهقة الساخرة — القط والفار — الاطباء — شيطان الشاعر — « اثواب الروح » — قصيدة غير دمعة تستذرف الدموع — ذكاء المرء محسوب عليه — الغلط في الحساب — هل يصحح في دورة من الدورات الاخرى لحياة الصافي ؟ — حاجته الى الخيال — الجنس اللطيف — قصيدة تشجي وتغيظ — ربة الشعر تحول دون الشاعر والموت — قصيدة شعشاعة بطلها برغوث — وصف الشاعر لحاله واشجانه — تعثره في العقليات — التناقض والاضطراب — آفة الاسراف — اصناعتان اللفظية والمعنوية — الخيال والفن — مثال من قصيدة « نجمة الصبح » — تحليلها ونقدها — الوحدة الشعرية في القصيدة — مثال منها في قصيدة الشاي — الفن المشذب ٠

ليس في العالم العربي اليوم ، لا في العراق ولا في سوريه ومصر ، لغة للشعر جديدة باجمعها — بمبانيها ومعانيها ، باساليبها وفنونها ، باغراضها ومصادر وحيها . فانك لا تجد بين الشعراء العراقيين او المصريين او السوريين شاعراً من طبقة الشعراء الاوروبيين الحديثين في نطاقهم الرحب ، الاجتماعي والوجداني ، الطبيعي والروحي — شاعراً مثل اميل ڤيرهارن البلجيكي ، او وليوم يايتس الارلندي ، او جان ماسفيلد الانكليزي ، او روبرت فراست الاميريكي .

وكل واحد من هؤلاء الشعراء يختلف عن زميله بالاسلوب الشعري ، والاغراض الشعرية ، ويتفق واياهم في الخروج من قديم الاوضاع والمواضيع . هم الاعلام لشعر جديد في اوروبه واميريكه ، قد يُستغرب عندنا . وقد لا يرى فيه القارىء العربي المحب للشعر ، المتذوق محاسنه ، ما يستسيغه ، اذا تُرجم منه الى اللغة العربية ، او يستحسنه مبنىً ومعنى . فالصور فيه جديدة ، قليلة الالوان الزاهية ، والاوزان قائمة بالايقاعات التي تقع في انفسنا وقع الالحان البدوية في انفس المتحضرين . بيد ان له هناك منزلة عالية ، لما يحتويه من مشاهد الحياة الحديثة ومشاكلها ، ولما فيه من الفن الفكري والمعنوي .

وقلما نجد شيئاً من هذا في الشعر العربي . قلما نجد شيئاً من منازع النفس التي تحررت من قيود التقاليد ، ولا تزال مضطربة حائرة ، او من اغراض العقل المكتشف الفتّاح ، او من الاهواء البشرية المقرونة بتصوفٍ مستحدث ، او من الاهداف المادية التي تلحفها سحب الخيال الورع الوديع .

ولكن في الشعر العربي آثاراً للتطور ظاهرة ، وان كانت لا تزال مائعة ،

او ضئيلة ، او متقلقلة · وما امر تبلورها واتجاهها الثابت ببعيد · ومما لا ريب فيه ان هذا التطور سيشمل المباني والمعاني ، والاشكال الوضعية والوجدانية· عندئذ يقرأ المتأدب العربي الشعر الاوروبي الحديث ويستسيغه · عندئذ يدرك الجمال في التصوف المستحدث الذي ينبو عن التقشف ، ولا يتدرع بالاوهام ، ذلك التصوف القومي مثلاً الذي يربط الامم بارواح لها ماضية ، ويشعل انوار رموزه في هيكل البعث والتجدد · عندئذ نرحب بالشعراء الاوروبيين والاميريكيين كإخوانٍ لنا في غير الاوزان والقوافي ·

لقد تقيد الشاعر العربي ، وخصوصاً في الماضي ، بكل ما هو محسوس منظور ، وما تقيد في صناعته بغير القواعد والاصطلاحات الشعرية · اما تقييد العقل والتصور بما فيه شيء من الانساق المعنوي ، والتجانس الروحي ، وشيء من الاقتصاد في التعبير ، والارتداع في مواقف الاطناب ، ومن الذوق الفني الذي يوجب الوحدة في القصيدة ، وضبطَ القريحة في فيضها ، ومن التحليل الفكري والنفسي الذي يقي الشاعر هَون التعميم والغلو — فكل ذلك مجهول على الاجمال لدى شعرائنا ، ونادر الوجود في شعرهم ·

وما الشعر العربي الحديث في مجمله غير اصداء لاصوات الشعر الماضية ، واشباحٍ لالوانه واشكاله · فها كم القصيدة بوجوهها القديمة كلها — بمحاسنها اللغوية والبيانية ، وبمصادر وحيها ، وبقوالبها القاسية ، وبمواضيعها الابدية — المديح والرثاء ، والغزل والاستجداء · اما في الجيد من هذا الشعر فقد يغلب في هذا الزمان الحماس الوطني ، والمنازع القومية ، والاكتئاب والتحيب · ها هوذا الشاعر واقفاً على الاطلال الجديدة في الامة ، وفي نفسه ، فيرثيها دامعَ العين ، داميَ الفؤاد · وهو يمجد الماضي ، ويتعدد محاسن الاجداد ،

فيصيغ القوافي حيناً من الماء المالح ، وحيناً من النار والحديد . هي ذي امة عربية مصفدة ، فلننقذها . هي ذي امة عربية مجزئة ، فلنوحدها . هي ذي امة عربية مستضعفة مستذلة ، فلنجعلها قوية عزيزة مستنصرة .

هو الصوت الاعلى لشاعر اليوم ، ان كان في القاهرة او في مكة ، في القدس او في بيروت ، في بغداد او في النجف الاشرف . هو صوت تخنقه العبرات حيناً ، وحيناً يضطرم بنيران الحماس والفخر ، وحيناً تتطاير منه شرار النقمة والانتقام .

وانه ليندر حتى بين الشعراء المبرزين من يخلو شعره من القصائد الوطنية ، ومن تخلو قصيدته الوطنية من قافية هي طعنة للاجنبي البغيض ، الاجنبي المفسد للمنازع الوطنية كلها ، الاجنبي المستعمر — عدو العرب الاكبر . ان لهذا الشاعر ، ان كان من الطبقة الاولى او العاشرة ، صوتاً مسموعاً في كل مكان ، فيهز من النفس فروعها واصولها ، بل يضرم فيها نار الغيرة على امة مستضعفة ، ووطن مستعبد ، ويحبب اليها الجهاد في السبيل الاشرف ، سبيل الحرية والقوة والاستقلال .

اجل ، ان صوت هذا الشاعر الوطني لمسموع ، وان قصائده لتستذرف الدموع ، لانه يصيغ قوافيه كما صاغها قبله شعراء الجاهلية ، ويرسلها في اوزانٍ لها رنتها وروعتها ، وما فقدت شيئاً من سحرها اللفظي ، وجمالها اللغوي والبياني . هوذا الشيء الذي الفه البدوي في البادية ، كما الفه ربيب المدن . ولا يزال الاثنان واحداً في تقدير هذه المحاسن الطنانة البراقة ، واحداً في الشغف والطرب لدى استماعها ، واحداً عندما يكون الموضوع مجد العرب المفقود ، ومجدهم المنتظر المنشود .

بيد ان هذه الوطنية الجديدة تضيق وتتسع ، وتشع وتصطخب ، بحسب محاسن الشاعر الشعرية والعقلية والفنية والذوقية · وهي تسمو في بعض الاحايين، فيصفو جمالها ، وتتقد لهجتها ، في قصائد شاعر يحفظ التوازن بينها وبين صناعته ، او بين حب الوطن وحب الفن ، فلا يرفع الواحد على الاخر ، ولا يقدم الزائل عَلَى الخالد في الحياة · ان مثل هذا الشاعر ليستطيع التوسع في الوطنية ، فتشمل الانسان في منازعه ، والانسانية في غمراتها ·

* * *

قد اخترت لموضوع هذا الفصل من كتابي اربعة من شعراء العراق تتجاوز منازعهم الشعرية الوطن والاصلاح · منهم اثنان جابت شهرتهما الافاق ، واثنان لا يزالان في خيام الشهرة · ومن الاثنين الاخيرين واحد يؤثر الاقامةَ على التجوال ، والعزلة على الاجتماع ، وفقاً لمزاجه ، والثاني ، وقد رفع الاوتاد ، يشد للرحيل ، وقد يسبق في جوب الافاق زملاءه جميعاً ·

اما الاربعة المختارون فهم الزهاوي والرصافي والشبيبي والصافي ، وهم متفقون في ما يتفكك في نظمهم وخيالهم من قيود التقليد ، ومختلفون روحاً ومنزعاً · ومختلفون كذلك في ما وُفقوا اليه من التجديد مبنىً ومعنى ·

لا ريب في ان الزهاوي والرصافي هما اليوم كبيرا شعراء العراق · وقد يختلف الناس في مَن مِن الاثنين هو اخلق باسم التفضيل ، ولا يخلو الاختيار من الذوق الشخصي والحياز · انما الاثنان واحد في الحرية الفكرية ، سياسياً واجتماعياً ودينياً · والاثنان واحد في الروح الوطنية التي تتسع لكثير

من المنازع الشعرية ، التقليدية والعصرية . والاثنان واحد في التحليق وفي الاسفاف . الا ان الزهاوي يفوق الرصافي عَلَى الاجمال في علمه وخياله والرصافي يبز الزهاوي في الصناعة والديباجة . الزهاوي في حملاته الاصلاحية مدفع رشاش ، والرصافي سيف بتّار . الزهاوي فيلسوف ينظم الشعر ، والرصافي شاعر يهوى الفلسفة . وكفى بهذا من المقارنة والتعميم .

* * *

جميل صدقي الزهاوي[1] هو في السبعين من سنه الزمني . وفي العشرين من سنه الشعري . وهو في المصائب ابوها وخالها . عَلَى ان السنين والعرج والدرد،وغيرها من نوائب الحياة ، لا تفل من عزيمته ، ولا تؤثر على نشاطه، ولا تجرؤ ان تدنو من صوبه وقلبه وروحه . فاذا كان لا يستطيع ان يقف كالرمح فان في نبراته رماحا ، وفي نظراته شرارا ، وفي نبضات قلبه ايقاعاً لا يهن ولا يخلّ . وهو يحسن المجون ، فيضحك حتى الجائع في جنازة ، ويسترسل في الشجون فيبكي حتى ابليس . له لهجة الانبياء ، وما يصحبها من آيات ، ومن آفات . وله في التجديف ، لفظ شريف ، وفي التهكم ، كلمات تبكم . فهو يفتل إلحاد الخيام بشكوك المعري ، ليصنع منها سوطاً لشيطانه ، ومطية لبيانه .

ان للزهاوي آثاراً شعرية نفيسة . وانفسها في نظري ، وأحقها بطول البقاء ، قصيدته ، او ملحمته الصغيرة ، « ثورة في الجحيم » فانه ، وان اقتفى فيها اثر شاعرين عربي وغربي ، دانته والمعري ، ليقف في التقليد عند

(١) راجع الجزء الثاني من ملوك العرب صفحات ٢٧١ — ٢٧٨

الفكرة الاصلية الاولى في زيارة الجحيم والنعيم · فهو يختلف عن المعري في « رسالة الغفران » وعن دانته في « الكوماديا الالهية » فيطرق الموضوع من باب جديد ، وقد جاءه كمسلم مشكك في ايمانه ، وجاء فيه باللطائف والطرائف الفكرية والخيالية ·

تبدأ القصيدة بوصف الملكان المنكران منكر ونكير ، وقد زاراه وهو في رقدةٍ بقبره ، زيارةً استنطاقية · فسألاه عن امور كثيرة تتعلق بحياته وبدينه يوم كان في الارض حياً ، فجاملها مجيباً عَلَى اسئلتهما بما يجيب المسلم المؤمن بكل شيء — بالله وبالاخرة ، وبالحشر والميزان والحساب ، وبالجنة و — الجحيم ؟ — كلا · فعندما وصف الملك منكر الجحيم توقف الغريم بالمجاملة ، فجهر بما كان في شبابه من ايمان بالنار ، ومن شكوك فيها ·

« ثم آمنت ثم الحدت حتى قيل هذا مذبذب ممرورُ[1]

· · · · ·

ثم اني في الوقت هذا لخوفي لست ادري ماذا اعتقادي الاخيرُ »

ويشرع بعد ذلك يصف الصراط ، ويعجب بدقة صنعه ، وبكيفية العبور على شيء هو كغرار السيف ، او كالشعرة ·

ثم يسألانه عن الجن ، الصالح منهم والطالح ، وعن الملائكة الابرار ، وعن الخناس والعفاريت والشياطين ، فيجيب بجواب الخائف المذبذب · فهو يرتاب بكل ما لا يدركه العقل · ثم يعود الى المجاملة فيقول :

« لم يكن في الكتاب من خطاء كلا ولكن قد اخطأ التفسيرُ »

فلا يقتنع الملكان · ولكنهما يتساهلان معه ليمعن في كفره · فيحاول ان

---

(١) الممرور من هاجت به المرّة ·

يغير الموضوع ، فيجيء في سلسلة القصة بحلقة ركيكة . وما دخل المرأة بمجلس التفتيش الديني ؟ فالشاعر يطيح من الالهيات الى النسائيات طيحة واحدة . بل يهبط كالحجر في بئر ، يهبط من سماء الملائكة الى السفور والحجاب ! وليس في القصيدة التي تعالج مواضيع الآخرة ، الآلهية والشيطانية ، مجال لامور في الحياة زائلة كالحجاب والسفور . بيد ان الشاعر في هذا الموضوع صريح فصيح ، لا تذبذب في رأية ولا مواربة .

ومن قعر بئر الحياة الدنيا يثب مرة اخرى ، وثبة واحدة ، الى السماء ، ليجيب على السوءال عن الله ! فيصفه بالمعلوم المألوف من صفاته ، وهو من شكه فيه يكاد يخور ، ثم يلقي بحجته ، وهي ان الانسان ولد مسيرٌ لا مخير . فاذا كان كذلك في كفره وايمانه « فان الجزاء شيء نكير . »

بعد ذلك يفك قيود الخوف والتذبذب ، وينطق بما يظنه الحق اليقين ، وهو ان الله هو الاثير .

« منه هـذا الوجود فاض عميما   واليه بعد البوار يصيرُ »

كأني بالزهاوي قد استعار من الهندوس « نرفانتهم »[1] واسماها الاثير . ثم يتلو هذا التصريح الجمجمة اذ يرى فوق رأسه الملكان الفظيعان .

« ولكلٍ انف غليظ طويل   هو كالقرن بالنطاح جديرُ »
وفم مهروت يضاهي فم الليث   يريني ناباً هي العنقفير[2]
« وبايديهما أفاع غلاظ   تتلوى مخوفةً وتدورُ »

---

(١) في ديانة الهندوس عندما تتحرر الروح من دورات التناسخ كلها تفنى او تحل في الفيض الالهي اي Nirvana

(٢) المهروت الواسع : العنقفير الداهية .

فلا عجب اذا جبن الشاعر وارتاع ، وفقد حتى لغة الشعر ، فنطق بالنثر المنظوم ، وراح يستعطف الملكين ويرجوهما ان يتركاه ، ولا يزعجاه في قبره . ولكن الاستعطاف لم يجده نفعاً ، فنفخ وهاج ، ووقف امام الملكين موقف السائل الحانق ، لا المسؤول المرتعب .

« ولماذا لم تسألا عن جهادي في سبيل الحقوق وهو شهيرُ
ولماذا لم تسألا عن ذيادي عن بلادي ايام عَزّ النصيرُ
ولماذا لم تسألا عن مساعي لابطال الشر وهو خطيرُ »

ولماذا لم يسألاه عن وفائه وصدقه ، وعن دفاعه عن النساء ؟ ولماذا لم يسألاه عما نظم من الشعر وهو سلم المعالي كلها ؟

« أسكوت عن كل ما هو حق وسؤال عن كل ما هو زورُ ؟ »

ولكن المنكرين لا يهمهما من ذلك شيء . فقد جاءا يستنطقان الميت في دينه وما اليه من عقائد وفرائض . هذي هي وظيفتها . فاستأنفا الاستنطاق ، وقد وصلا فيه ، الى جبل القاف . وماذا تقول يا كافر ، في ياجوج وماجوج ؟ — اقول : العقل خير مشير . العقل — فيصيح به المنكران انك لرجس كافر ، فيلين مستعطفاً ، فيزدادان غلاظة ، فيحاول ان يأوّل ما جهر به ، ويلطف من لهجته . بل هو يعترف انه موءمن . ولكن الايمان بعد الكفر لا يفيد . قُضي الامر . حمّت ساعة العذاب . فهوت المقامع على ظهره وبطنه ، فأجرت من جسمه الدم ، ومن عينه الدموع .

« ثم صبّا بقسوة فوق رأمي قطراناً لسؤ حظي يفورُ
فشوى رأسي ثم وجهي حتى بان مثل المجدور فيه بثور »

في هذين البيتين من ركاكة النظم مثلان ، الاول «لسوء حظي» والثاني «فيه بثور» فالبثور في الوجه المجدور لا تحتاج الى افصاح و «لسوء حظي» هي من مألوف النثر ومن الحشو ايضاً . لست اشك في ان الشاعر نفسه يدرك ذلك . ولكن خياله يسبق فكره وصناعته في بعض الاحايين ، فيكتدهما متبذلاً ليلحقا به .

هذه الملاحظة لا بد منها ، لان ما اشرنا اليه هو غير قليل في القصيدة . لنواصل الان القصة . فبعد ان يصب المنكران ، فوق رأس الشاعر القطران ، يوثقانه بحبل ، ويطيران به الى الجنة ، ليشفعا عذاب الجسد بعذاب الروح . فيرى الجنان بعينه ، ويشتهي جرعة ماء من الكوثر ، ويتألم في حرمانه .

اما وصفه للجنة فلا يختلف عما جاء في القرآن ، وهو على اطنابه لا يتوفق الى غير المضحك من الخيال . انجنة الزهاوي لكمصيف من المصايف ، فيها ، مع الحور والولدان ، كل لذيذ من مأكول ومشروب ومشموم .

«فاذا اشتهيت طيراً هوى من غصنه مشوياً ، وجاء يزور
واذا رمت ان يحول لك التين دجاجاً اتى اليك يطيرُ»

اما هو فمحروم . هو زائر للعذاب لا للذة .

«ولقد رمت شربةً من نمير فتيممته ففر النميرُ»

فودّ لو عاد الملكان به الى القبر ، وانزلاه الى الجحيم . وما كان غير ذلك . فقد شدا وثاقه ، واخرجاه من الجنة ، وهبطا به الى اودية النار واغوارها .

انما وصفه للجحيم ، ليس فيه شيءٌ جديد ، اللهم اذا استثنينا مَن يشاهد في النار ، واولهم ليلى عروس شعره ومعشوقة سمير . ليلى ، وما ذنبها وذنب

حبيبها الا انهما جهلا الجحيم ، فعملا عملاً اوجب عليهما هـذه الزيارة · ولكنهما مفترقان ، كل منهما في هوة · وهـذا هو العذاب الاكبر · فقد رأى الشاعر الفتاة المسكينة ·

« فوق جمر يشوى ونار تلظى وأفاع في نابهن شرورُ »

وهي تبكي ، لا من اللظى والسعير ، بل من فراق الحبيب ·

« ولو انا كنا جميعاً لخف الخطب في قربه وهان السعيرُ »

وقد ابصر الزهاوي بين الشعراء الفرزدق والاخطل وجريراً · فسألهم عن حالهم ، فقالوا ان الهجاء سبب بلائهم · ثم بان له بشار وابو النواس ، ثم المعري الذي حياه ، ثم امرؤ القيس وهـو لا يزال بتصدر المجلس « وللملوك الصدور »

وقد سمع الخيام ينشد من شعره في مديح بنت الكرمة فيقول :

« واصليني بالله ايتها الخمرة م اني امرؤ اليك فقيرُ
انت لو كنت في الجحيم بجنبي لم ترُعني نار ولا زمهريرُ »

وبعد الشعراء يشاهـد العلماء والفلاسفة ، وفي مقدمتهم سقراط وهو يلقي خطبة ،

« والى جنبه على النار افلاطون يصغى كأنـه مسرورُ »

فيشرح سقراط منشأ النار ، وهو اثبت القوم جأشاً ، ثم يقول :

« سوف يقضي فينا التطور ان نقوى عليها وان تهون الامور »

ويرى كذلك منصور الحلاج · ويسمعه يخاطب الله ويعاتبه :

« انك الواحد الذي انا منه في حياتي شرارة تستطيرُ
وبه لي بعد الظهور خفاءٌ وله بي بعد الخفاء ظهور
لِمَ شئت العذاب لي ولماذا لم تجرني منه وانت المجير ؟ »

فلا يستغرب بعد هذا ان يقوم من بين هؤلاء العلماء والفلاسفة من يخترع آلة تُطفئ السعير ، وان تستخدم هذه الآلة في الثورة عَلَى اولياء الامر في الجحيم . وكان الشباب اول النافخين في ابواق الثورة ، المحرضين عليها ، الرافعين اعلامها . فقد قام فيهم الخطباء يحملون على الظلم والظالمين ويدعون للجهاد :

« قاوموا القوة التي غشمت بالمثل والدهر للقوي ظهيرُ
انتم اليوم الاكثرون واما عدد الحارسين فهو صغير »

هاج الناس في الجحيم وماجوا ، فراحوا ينشدون الاناشيد ، ويعدون العدة للقتال . وكان ان استوقفهم ابو العلاء المعري ، فخطب فيهم ، فزادهم هياجاً واستبسالاً .

المعري : « غصبوا حقكم فيا قوم ثوروا ان غصب الحقوق ظلم كبيرُ
الجمهور : غصبوا حقنا ولم ينصفونا انما نحن للحقوق نثور
المعري : لكم الاكواخ المشيدة بالنا ر وللبله في الجنان القصور
الجمهور : غصبوا حقنا ولم ينصفونا انما نحن للحقوق نثور »

قامت الحرب . والتحم الفريقان زبانية النار واهلها في القتال ، وجاءت الشياطين تنجد اهل الجحيم ، فاستنجد الزبانية بالعرش الالهي ، فانجدهم بجيش من الملائكة يقوده عزرائيل . وتلاقى الجيشان ، في ضواحي الجحيم

البركانية ، وترامى المتقاتلون بالصواعق والبروق ، وتحاربوا برماح تذوب في نارها الصخور ، وبحارٍ ماءها مسعور ، وبالجبال والبراكين ، فانهزم الملائكة والزبانية ، وتم النصر لاهل الجحيم وحلفائهم الشياطين ·

هذي هي خلاصة القصيدة ، وفيها الجيد والوسط والرديء من الشعر ، وفيها من الحسنات الشعرية ، الخيالية والبيانية ، ومن الابداع الفكري ، الاجتماعي والفلسفي ، ما يشفع بسيئاتها الفنية ·

وانه ليتبين لك ان جحيم الشاعر العربي يختلف عن جحيم الشاعر الطلياني في سكانه · فقد شاهد دانته في النار اعداءه السياسيين ، وفيهم المجرمون والزناة والقتلة واللصوص ، وما شاهد الزهاوي غير الذين انكروا الجحيم ، ولم يؤمنوا بالآخرة ، واكثرهم من العلماء والشعراء والفلاسفة — اي من اصحاب النبوغ ، ومحبي الحقيقة والجمال ·

هي ذي الفكرة المبتذلة التي أوحت الى الزهاوي فكرة غير مبتذلة · ولكنه في تبيانها ما نجا من الاسفاف · فجاء وصفه للنعيم وللجحيم وصفاً تقليدياً ، صوره دكناء ، واستعاراته بائخة · وجاء الترداد في قوافيه ، والنثر في كثير من صيغه · فلو انه في تقسيمه القصيدة جعل كل قسم منها قصيدة قائمة بذاتها ، يصلها حبل القصة باخواتها ، دون ان يتقيد الشاعر بالبحر الواحد ، والقافية الواحدة ، في ابياتها الاربعمائة والثلاثين ، لانقذها على ما اظن من آفات التكرار ، ومن التبذل والاسفاف ·

وهناك حلقة ظهرت في سلسلة الرواية كوميض البرق واختفت · وهي في نظري من اهم حلقاتها ، لانها جديدة فذة · اعني بها اختراع الآلة لإطفاء نار الجحيم · فانك لتقف عندها معجباً بابتكار الشاعر ، ومتوقعاً

ان يكون لاختراعه الاثر الاكبر في حرب الثوار ، وفي نصرهم المبين ·

ولكن الشاعر نسي اختراعه على ما يظهر ، فجاءت حربه في الجحيم كسائر الحروب ، الا ان السلاح فيها جبال من نار وبحور وبراكين ·

عندما قرأت هذه القصيدة للمرة الاولى علق في ذهني فكرة لست ادري كيف نشأت ، الا ان تكون النتيجة لاحساس طبيعي معقول ، نختمتُ بالكلمات التالية ما كتبته عنها باللغة الانكليزية ·

قلت في آلة الاطفاء: « انه لاختراع عجيب ، تسلح به اهل الجحيم على نيرانه ، فاستحالت رماداً ، الجبال منها والبراكين ، والاودية والانهار · وكان المدافعون عن الجحيم ، وهم محرومون هذا السلاح ، يقعون بالمئات ، لا بل بالالوف ، كعمدٍ من الرمال تذريها ريح السموم · وكان رب السماوات يراقب من علياه تلك المعركة ، فاشفق على جحيمه ، وهو جزوء مكمل لكونه ، من الزوال ، وعلى زبانيته من الاضمحلال · وكانه سمع رئيس الزبانية يصيح : النجدة ، النجدة ! فانجده ، سبحانه وتعالى ، بجيشٍ من الملائكة الصناديد ·

« ولكن اهل النار الثائرين كانوا يحملون الآلات الاطفائية فيقتحمون بها النيران ، فتنطفىء في الحال ، فيغارون على العدو من خلال دخانها ، وفوق رمادها ، ويقتلونهم بالمئات والالوف · حتى انهم كادوا يأسرون امير الظلمات نفسه ، فلاذ الى العلم الابيض ، ولوّح به يطلب السلم · ثم امر جيش الملائكة المهزوم بان يقف في تقهقره ، ودارت المفاوضات بينه وبين الثوار ، فقبل بشروطهم · بيد انهم كملوا اطفاء نيران الجحيم فامست قفراً يبابا · وركب كل واحد منهم بين جناحي احد الملائكة ، وصعدوا

جميعاً طائرين الى الجنة . كذلك يقول الشاعر . فلا جحيم بعد هذه الثورة في الجحيم ! »

فهل انا مخطئ في هذا التحرير للقسم الاخير من القصيدة ، ام هل كان ينبغي للشاعر ان يختمها كذلك ؟ اظن ان الصواب هو في الجواب الايجابي على الشطر الثاني من السؤال ، والا فما معنى الاختراع اذا كان لا يُستخدم ويُنتفع به ؟

اما روح الشاعر ، تلك الروح التي تتجلى في القصيدة ، فهي تشعل عَلَى شواطئ الشك والتهكم انوارَ العقل والعدل والحب الانساني . وهي في ما لا يدركه العقل ، ولا يستقيم عنده ميزان العدل ، تعتصم بالحب الذي يجعل كل ما يلمس عدلاً وجمالا ، ان كان في حياتنا الدنيا او في الاخرة .

***

«أحب صراحتي قولاً وفعلا	واكره ان اميل الى الرياء
فما خادعت من احد بامرٍ	ولا اضمرت حسواً في ارتواء
ولست من الذين يرون خيراً	بابقاء الحقيقة في الخفاء [1]

هوذا معروف الرصافي في شعره ، وفي نثره ، وفي مجلسه . فالحقيقة ، كيفما ترائت له ، أحسناء فتانة كانت ام عجوزاً درداء ، هي هي محبوبته المعشوقة على الدوام . ولكن للمعشوقات الواناً واشكالاً ، وللرصافي في حبهن جمعاء جميل الاقوال والافعال . اما تذبذبه في بعض الاحايين بين حقيقة واخرى ، فذلك لان الفضيلة لها اخوات يسكنّ في شارع التهتك ، وحب

(١) من ديوانه صفحة ٢٠١

الوطن له اخوان يكرهون الاقامة في شوارع الكلام . فقد نظم في قديم الزمان قصيدة في الاخلاق لا يزال مطلعها [١] يرن في الاذان ، ويروى في كل مكان .

ما عرفت امة تحسن رواية الاشعار ولا تكترث مثل الامة العربية . فهي تروي الحكم نثراً ونظماً وتمضي في سبيلها .

اعود الى الرصافي فاقول ان شهرته لا تقوم بحب الفضيلة ، وليس حب الوطن من اساطين بيتها . انما الاثنان من الحجارة والتراب في اساس البيت ، وللاساس قيمته في البناء .

اذا لم يكن معروف بدويّ المولد فهو بدوي الارث . اني اذكر اجتماعنا الاول سنة ١٩١٠ ، يوم كان يلبس العباءة والعقال ، ويلقي الشعر بلهجة بدوية ساحرة .

ثم سافر الى الاستانة ، ولبس هناك الجبة والعمامة ، وانضم الى الاتراك في نهضتهم المدمرة ، لحمل اللواء والمصحف ليلاً ونهارا ، ثم وثب وثبةً واحدة من المسجد الى الحانة . خلع معروف العمامة والجبة ، وكل ما ترمزان اليه ، وجعل القهاوي محط رحاله ، فنظم من الشعر ما يفصح عن الحقيقة الجديدة في حياته . هي حقيقة التحضر وظلالها .

وبعد ذلك يمم فلسطين ، وفقد في بيت المقدس ما بقي في صدره من ايمان . ثم ولى وجهه شطر سوريه ، وهو المفلس في عقائده الاجتماعية والسياسية والدينية ، فوجد في البلاد من التهذيب والخنوع ما لم يرقه كثيراً ، فعاد الى العراق .

---

(١) «هي الاخلاق تنبت كالنبات اذا سقيت بماء المكرماتِ»

واني لأذكر اجتماعنا الثاني سنة ١٩٢٢ ، يوم كان في العراق حاملاً لواء الوطنية وسيفها ، فيخرج من «خانه»[1] غائراً على رجال الانتداب ونسوته ، ويعود موفقاً الا بالغنائم . وما الفائدة من مثل هذه الغزوات ؟ وكيف ، وهو البدوي المجرّب ، لا يحسن الانتفاع بسيفه وبندقيته ؟ انه لفاعل ، وانه لصائر من السياسيين ، وانه لصاعد في سلم السياسة الى اعلاه — الى كرسي في مجلس الامة .

اجل ، لقد كان معروف ، يوم اجتماعنا الثالث في سنة ١٩٣٢ — هنيئاً لمن يتاح له الاجتماع بصديقه الشاعر ولو مرة واحدة في كل عشر سنوات ! — قد كان معروف عضواً في مجلس النواب ببغداد ! وعاد في قيافته الى العباءة والعقال .

معروف الرصافي الاعرابي في مجلس النواب ! لا يزال هذا الشرق مهد الاعاجيب . وقد سمعت صديقي معروفاً يدافع عن الحكومة في قضية تتعلق بابعاد بعض الصحافيين المتطرفين في صدقهم ، فيذكر مبدأ النسبية كمبدأ عام في الحياة ، ويحاول ان يبين ما له من صلة بحرية الصحافة . ما اظن ان احداً من النواب ادرك معناه ، او فهم شيئاً مما قال . ولكن صوته العريض الاجش فعل فيهم فعل البيان ، وما اراد منه ، وهو ان المبعدين استحقوا الابعاد جزاء ما فعلت اقلامهم .

ولكن السياسة لا تغير ما بنفسه وبادبه من الارث البدوي ، واظهر ما فيه السذاجة ، والصراحة ، والجرأة ، وعدم المبالاة . فهو يعيش ليومه مستسلماً مستهترا ، وقلما يكترث لما تبدو وتجن له الايام . ولا غيرت الايام

---

(١) «سكنت الخان في بلدي كأني اخو سفر تقاذفه الدروب»

والتجارب شيئاً من طبعه هذا ، فهو اليوم في مـا ذكرت من سجاياه ، كما كان منذ خمس وعشرين سنة ·

وهو الشاعر الرقيق الشعور ، على بداوة طبعه ، الواسع الخيال ، السهل الاسلوب والعبارة ، لا تعمُّل في بيانه ، ولا اجتهاد في صناعته · وانه في ادراكه المحاسن الشعرية ، شديد الحس لما يتراجع ويتشبح من اصواتها واشكالها · ولكنه في الغالب يؤثر الظاهر عَلَى الخفي من الجمال البشري والطبيعي ·

ان للرصافي رأياً في الوحي الشعري غريبا · هو لا يؤمن بالوحي ، او بالحري الوحي المنزل · انما يعتقد ان القوة الشعرية في الابداع تتعلق بقوة الباه في الجماع ، وان الضعف الذي يعتري القوة الواحدة يتصل بالاخرى · اذن ، لا بد من التوازن بينهما ، بل هو ضروري · وقد قال متمثلاً بحاله : « يجب ان امتنع عن الجماع سبعة ايام لاتمكن من نظم قصيدة · » كأنه يرى في هذا الاستجمام ان المني يستحيل فيضاً شعرياً او عقلياً — وهو يفضل النعت الثاني · ثم ذكر النبي محمداً ، وهو في نظر معروف شاعر عظيم · عَلَى ان اجمل قصائد النبي ، اي اجمل السور القرآنية ، انما هي التي جاء بها في عهد الاعتدال الجنسي ، يوم لم يكن له غير خديجة زوجاً · اما بعد وفاة خديجة فقد اصبح محمد مزواجاً ، وكانت القصائد — السور — في هذا العهد مثل نسائه ، اي دون ما تقدم منها ومنهن ·

قد كتب الرصافي سيرة النبي محمد ، واطلعني عليها مخطوطة بيده ، في سبعة دفاتر من الدفاتر المدرسية · فما ادهشني ما فيها من العلم والتحقيق ، لان مصادر الموضوع متوفرة لمن شاء معالجته ، واحسن البحث والموازنة · انما

ادهشتني القوة الناقدة ، والمقدرة على التحليل والاستخراج ، والتفلسف في عقائد لا تستقيم بغير الايمان ، والجرأة والصراحة مع الاتكال على العقل والعلم فيهما ·

فقد استخدم في « سيرته » المصباح الذي استخدمه العلماء الاورويون في نقد التوراة ، اي مصباح النقد الاعلى الذي ينير العلم بنور العقل والمقارنات التاريخية · ومما يزيدك اعجاباً بالرصافي انه لا يحسن لغة اجنبية · فقد ركن ، في كل ما حلل واول واستخرج واستنتج ، الى اجتهاده الخاص ، والى علومه الواحدة العربية ·

وانك لتدرك الروح في مصنفه هذا اذا ما علمت رأيه بالله · فقد قال لي مرة : « ان الآية : لا اله الا الله » لا معنى لها ويجب ان تبطل ، او تبدل بالاية : لا اله الا الوجود · اي ان الكون هو الله والله هو الكون · هي عقيدة البانتييزم اي الحلول · وهو فيها عَلَى اتفاق والزهاوي · قد يُهمَل وينسى كثير من شعر الرصافي في المستقبل ، وتظل سيرته النبوية من الكتب القيمة التي تُقرأ وتُكتنز ·

هو ذا الرصافي في دينه ، وهو الفيلسوف العقلي · اما الرصافي في حبه ، فهو الشاعر العاطفي المشغوف بالجمال على انواعه — الجمال الفني ، والجمال الطبيعي ، وجمال المرأة الفائق كل جمال · انه يشاهد التجسد الالهي في المرأة ، وفي الطبيعة · وانه ليقف امام هذا التجسد متورعاً متضعاً متعبدا ، وخصوصاً امام المرأة ، فهو المبهور المجبور على الدوام ·

لقد فاجأناه ذات ليلة في شرابه ، فحدثنا وهو يحسو وبعض خلانه العرق ، قال : « المرأة بهجة الوجود ، وريحانة الحياة · وما الحجاب ، وما

السفور ساعة تدنو منك ؟ فان جسمها لينطق حباً ، ويشع حباً ، ويتضوع حباً ، سافرةً كانت او محجبة . نسمع الكتاب في هـذا الزمان ينادون بالسفور . وهل يسفر الرجل ، يا امـين ؟ اليس كل منا محجباً — لابساً القناع . كل واحد من الناس هو سر من الاسرار للناس . لينزعِ الرجل القناع ، وليطالب بعد ذلك بسفور المرأة ...

« أوَ تسألني عن العري ؟ نعم ، اني من انصاره . العري في كل شيء . وعري المرأة مثل هذا الكأس . نعم . نعم . ان في البيت المجاور لبيتي هذا بنت حلال لطيفة جميلة . هي مومس ، يا امين . ندعوها في بعض الاحيان ، فتجيئنا مسرعة كالطفل اذا لوحت له بالعوبة او بقرص من الحلوى . ويشع في هذه الغرفة نورها الاصغر نور عينها ، ثم نورهـا الاكبر نور جسدها ، فيكسف نور الكهرباء . نعم ، يا امين . فان كل واحد منا ينزع عنها حجاباً من الاحجبة ، وهي الكريمة المطواعة ، فتقف عارية على هذه السجادة ، كما نظمها الشاعر الاكبر ، بركاته تعالى عليها وعليك . ثم ترقص فترقص حتى يشع من صدرها ومن جوانبها النور الاقدس . ان المرأة الجميلة ، يا امين — الجميلة الوجه والجسد لأعز واغلى من الممالك العربية كلها . »

ومن الطف ما رواه تلك الليلة خـبر حظوته للمرة الاولى بمشاهدة سيدة بيضاء اوروبية ، قال :

« كنت لا ازال بدوياً ما شاهد من النساء غـير العجائز وبائعات اللبن ، واليائسات والشاحبات والمشوهات ، وقد ثقّب الجدري ، او عصفر المرض ، وجوههن . وفي ذات يوم رحت وصديقـاً لي الى القهوة — الى كهفٍ قاتم وسخ يليق بامثالنا — وكنا نحن الاثنين في نشوة من الخمر .

وقبل ان انتحينا مكاناً هناك وقفت في الباب سيدة انكليزية · سيدة جميلة بيضاء هيفاء · تلبس قبعة زانها الريش ، وتحمل مظلة · دخلت هذه السيدة القهوة ، ومشت الهوينا بين الدواوين الخشبية المكسرة ، تجيل نظرها بالمكان ومرتاديه · كنت واقفاً الى جانب الطاولة التي جلس اليها رفيقي ، فاحسست ببهجة تجلببني ، وتملأ قلبي · واحسست كأني سمّرت في مكاني ·

« ما كان في حياتي من نعمة ربي ، يا امين ، مثل هذه النعمة · للمرة الاولى في حياتي اشاهد امرأة حسناء بيضاء هيفاء · فقد عقل الابتهاج لساني والله ، فاصبحت كالطفل ينظر الى دمية تمشي · وعندما دنت هذه الدمية من مكاننا ، زررت جبتي ، ورفعت يدي الى صدري ، وطأطأت الرأس مبتسماً · فابتسمت هي كذلك يا امين · فانحنيت مرة ثانية ، فاحنت هي رأسها ، وكانت في تحيتها الصامتة مثال اللطف والكرم ·

« ما توقعت ذلك منها ، لا والله · بل كنت اظن انها ستوبخني ، لتعرضي لها بنظرة وابتسامة · ولكن الشاعر الاكبر ، يا امين ، ينظم قصائده ، لا كما ننظم نحن الشعراء الصغار ، بل كما ينظم من له مائة عين نقادة ، فتجيء القصيدة كاملة في كل محاسنها · وتلك الحسناء البيضاء من غرر قصائده · وكأنه سبحانه ، وتعالى ، كان يتلوها علي للمرة الاولى في ذاك اليوم · فقد سمعت والله جمالها يغني ، ورأيت والله جمالها يزهو ويرقص امامي · ولكني سألت نفسي عندما خرجت من القهوة ، هل اليد التي صنعتها صنعتني انا كذلك ؟ هو امر يحيرني · وساعة اكون في حال اليقين منه — قد اكون ساعتئذ سكراناً او صاحياً — اشعر بالنسب الالهي ، واحاول ان اقلد الشاعر

الاعظم· وما الشعر ، يا امين ؟ انا نفسي آيــة شعرية ، وقل اية الهية ، ساعة انظم الشعر واجيد · ■

« وما الشعر الا كل ما رنح الفتى كما رنحت اعطاف شاربها الخمرُ
وان ابتسام الغيد عن كل اشنب ليطرب نفسي فوق ما اطرب الشعر» [1]

* * *

ان للادباء والشعراء في اوروبه واميريكه عادةً في الاكرام مرعية مستحبة · فاذا كنت معجباً بشاعر من شعرائهم ، وجئته للمرة الاولى زائراً ، بعلم منه ، فهو يهديك رسمه او نسخة من ديوانه · ولا يخفى ما في ذلك من الانانية — ها اناذا في رسمي وفي عبقريتي — التي تكاد تكون مجهولة في الشرق · فعندما زرت الشيخ رضا الشبيبي في بيته بالنجف ، في فصل الخريف من عام ١٩٢٢ ، ما اهداني رسمه ، ولا شيئاً من شعره · بل قدم لي ما يصرف النظر عن نفسه ، وما هو في نظره اثمن واعز · قدم لي نسخة خطية قديمة من كتاب عربي قديم ·

وما كان اشبه الشاعر في صباح ذاك اليوم ، وهو متربع على فراش فوق حصير على الارض ، في وسط قاعةٍ فرشها عادي قليل ، وامامه طاولة صغيرة عليها اوراقه ، وحولها كتبه ، ما كان اشبهه بصورة من الصور التي تزدان بها الكتب الخطية الفارسية · الا انها قائمة ساكنة ، لا تذهيب فيها ، ولا وهج لالوانها · وما إطار هذه الصورة الحية غير جدران الغرفة الدكناء العارية ، وفيها نافذتان تشرفان على جدران البيوت الملاصقة لبيت

(١) راجع الجزء الثاني من ملوك العرب صفحات ٣٧٦ — ٣٨٠

الشاعر ، كأن الصورة واطارها صنع فنان يحسن التجانس في فنه ، فيلتئم الوجه الهادىء والبيئة الدكناء التئامها والتقاليدَ الشيعية القاسية التي أحيا الشاعر فيها ايامه ولياليه .

اقول احياها ؟ ما اظن ان طيراً في قفصه كان يغبط الشبيبي ، او يود ان يكون على شيء من حاله في تلك الايام . وهل يغبط السجين اخاه في سجنه ؟ ولكن الشبيبي فَرّ من قفصه في السنة التالية هارباً الى بغداد ، حيث علق جانحه في دبق السياسة ، فغدا عضواً في المجلس التأسيسي . من قفص عتيق الى قفص جديد مطليّ بالذهب ! فلا عجب اذا طاقه سنة او سنتين ، ولا عجب اذا فر بعد ذلك منه ، كما فر من قفص النجف ، متبرماً من الشرائع ومن المجتمع . طار الشبيبي الى الكرادة ، فبنى له عشاً هناك ، وطفق يغرد على اغصان الحرية والحب والزهادة . هناك على شاطىء دجلة ، في ظلال النخيل ، ولا قفص ولا رقابة ، ولا من يقطع عليه نعمة العزلة . هناك ظفر الشاعر بامنيته الكبرى .

ومع ذلك فهو لا يزال في قيود اختارها لنفسه ، هي قيود التقاليد او بعضها في الشعر وفي الدين . فان كان قد نفض غبار النجف عن جبته ، وعنكبوت النجف عن عمته ، فهو لا ينبذ ، ولا اظنه يستطيع ان ينبذ من عقله ومن قلبه ما ورثه الشيعي العربي من الاجداد ، اي الارث الشعري الادبي الديني . وهذا ما يميزه عن الشعراء الآخرين . فقد يكون افق شعره دون افاقهم اتساعاً ، وقد تكون خياله مثل صناعته الشعرية من المقلَّد المألوف ، ولكنه شديد الحس ، صادق اللهجة ، نقي الفكر ، نقي العبارة ، مع شيء فيهما من التجهم والقساوة .

رضا الشبيبي شاعر روحي لا يغرّه العلم ، ولا يطوح به الجهل . وهو شاعر تقليدي ، يحترم الماضي ، ويتورع للحاضر ، وينظر الى المستقبل بعين الرضى والاطمئنان . انما سبيله الروحي لا يخلو من الوعور والعقبات . بيد انه مؤمن على الدوام حتى في حيرته ، ومطمئن حتى في اضطرابه . وقد يعدُّ ، وهو ضمن دائرة محدودة وان اتسعت ، من المتمردين . وقد تعترضه اذا ما حاول اجتياز الحدود ، عناية الهية او شبه الهية ، فيعود الى ربوع الامان ، وفي قلبه خشوع ، وعلى لسانه كلمات الحمد والرضى . وقد يدنو الشبيبي في غضبةٍ طاهرة من ظل العرش الاعلَى ، قد يدنو حتى من العرش ، والشعلة لا تزال في قلبه ، والشرر في ناظريه ، فيزرُّ بعد ذلك جبته ، ويتضمخ بالطيب ، ويجلس على فراش الحب والوداعة ، وقد صفا نوره ، وسكن شعوره ، مثل سلفه الشريف الرضي .

في مجموعة متسلسلة من الشعر ، شبيهة بملحمة وجدانية ، تتجلى روح الشبيبي في نضارتها ومتانتها ، وفي يقينها وحيرتها ، وفي اطمئنانها واضطرابها . فهي تحلق في سماء الخيال والحقيقة حول رواسيهما العالية ، وفوق الوهاد السحيقة بين تلك الرواسي ، فتثب من قنة الى قنة ، ثم تعود سليمة آمنة الى بستانها في الكرادة . او انها تجري في « سكرة النفس » في بحر زاخر من الهول « وما شطأت حيناً ولا قاربت مرسى . »

« تجلّلها ليل طويل وما رأت عَلَى طوله بدراً ولا طالعت شمسا
سفينة نفس غامرت وتعرضت لها الهُوْج لايبقين من احدٍ نفسا »

ولكنها نجت من تلك الاهوال وما نجت من توبيخه لها .

« فيا لك عقلاً ما آندَّ عن الهوى ويا لك قلبًا ما اشد وما اقسى »

قد يكون الشبيبي رباناً لسفينته ماهرا ، ولكنه لا يستطيع ان يقول ما قاله الشاعر الانكليزي إرنست هِنلي :

« اني لنفسي الربان ، واني على امري المهيمن »

بل هو يتقلب ويتردد في اقدامه وتطوحه ، فيصعد ثم يهبط في سلم الفكر والاحساس .

« انجدت من بعد اغوارٍ زللت بها فانجاب عن ثقتي بالله انجادي
وقد حدتني اهواءٌ مضلِلةٌ عدلت عنها وضل الركب والحادي »

وهو يدرك في ساعه الندم ان الله سبحانه وتعالى لا يزال على عرشه ، مشرفاً على الكون . بيد ان حياة الانسان شقاء وبلاء لما فيها « من ضلال ، ومن كفر والحاد » ، فيشكو الشاعر ، ولا غرو ، حتى صحبه وخلانه ، وينشد التعزية والسلوان في الوحدة والزهادة .

« غريب بهذي الدار طال اغترابه فلا يزدهيه اهله وصحابهُ
وأسعد خلق الله من جاء في غدٍ قليلاً تقصيه يسيراً حسابهُ »

وقد سدد خطواته في السبيل الذي يصدق فيه العملَ القولُ ، والخبرَ الخبرُ ، فقال :

« واني لميال الى محو ما جرى به قلمي او ما تضمنه طرسي
كتبت وقد جاريت فيما ظننته علاجاً لاهواء النفوس هوى نفسي »

انه لشاعر صادق اللهجة ، متقد الوجدان ، وهو الى ذلك حلو الشمائل لطيف المزاج . فيحاسب نفسه ويؤنبها ، ويسير في سبيله متمهلاً متورعاً ،

حيناً على طرب وحيناً على كرب . وها هو يشجيك ، وقد وقف بين قلبه وعقله وقفة الحائر المكتئب . فهناك الحبيب ، وهناك الرغبة بالزيارة والرغبة عنها تتنازعان فؤاده . وقد جاء في هذه القصيدة ببيت فريد في معناه ، ما قرأت مثله في التردد لا في الشعر العربي ولا الانكليزي . فعندما يتغلب الشاعر على التردد في نفسه ، ويعتزم الزيارة ، يردعه في الباب رادع فيرتدع .

« وطالما سرت في وجهٍ فلم ارني الا وقد علقتْ يمناي بالبابِ »

وان من يزوره من الاصحاب ليزور الجسم منه . اما الاحباء فهو يتمنى ان يزورهم ، وهم مع ذلك المقيمون في نفسه عَلَى الدوام .

« شغل السمير جوارحي وشغلتمُ روحي فكنتم دونه سُمَّارها
نلتم حقيقتها التي خلصت لكم طوعاً ونال سواكمُ آثارها »

وهذه الحقيقة الروحية تبرز في بيت عن عمره اجاد في معناه .

« طُل ما تشاء زماني لستَ لي عُمُراً ادراكُ ما اتمناهُ هوَ العُمُرُ »

قلت ان رضا الشبيبي حريص عَلَى التقاليد الشعرية قلباً وقالباً . ولكنه في صعوده ونزوله في سلم الفكر والحقيقة يستحب الوقوف عند بعض المبادىء العلمية الحديثة ، كمبدإ بقاء الانسب مثلاً فيقول :

« اطبقت اسفاري وقلت لها اغربي سفر العوالم بعض ما اتصفح

...

واذا تنازعت البقاء عوالم صح الأصح بقائه والاصلحُ »

وهو يحمل عَلَى اهل الضلال والخرافات في قوله :

«عهدت اهلك لم يبطل نكيرهم على الطغاة فلِمْ صاروا طواغيتا
ملفق من مخاريق كلامهم ومن محال وان اسموه لاهوتا»

ثم يعود الى حصنه الشرقي الحصين — الى ايمانه بالقضاء والقدر ·

«من الجهل لا من صحة العقل اننا نحكم في الاقدار اوهام عاقلِ
امور باسعاف المقادير نلتها عَلَيَّ حين أعيَ نيلُها بالوسائلِ »

هو لا يرى ان في هذه العقيدة عقالاً لشبان الشرق ، وهم في معترك هذه الحياة الحديثة ، الغربية الالوان والاشكال · بل يرى عكس ذلك · اني انقل من نثره السلس المتين كلمةً كتبها في «التفوق الغربي الموهوم» قال:

«نحن الان في عصر الشك ، كما يقول فريق من اهل الغرب · ومن ذلك ان شكَّنا الان يتناول حتى أُسسَ الثقافة التي يريدها معظم الغربيين للشرقيين · ومن بين هذه الأسس غمز الشرق والشرقيين ، والتنديد تصريحاً او تلويحاً بقيمة اثرهم في الحياة · حتى ضعفت ثقة شباب الشرق بانفسهم ، وببطولة اسلافهم ، وتلاشت في بعض الجهات ، وحل محلها الثقة المطلقة بتفوق الغربيين ·

«هذا الى ان نشبت الحرب العامة الاخيرة ، واسفرت ، بعد ان ظهرت اسبابها ونتائجها للعيان ، عن حركة فكرية عامة تجتاح الان اذهان البشر بدون تمييز · ويتوقع ان يكون من نتائج هذه الحركة الفكرية رجوع القوم عن الشطط في احكامهم على الشرق والشرقيين ، ونبذ دعوى التفوق الغربي الموهوم ، والتسليم بتكافؤ المواهب والكفايات في اصل فطرة الجنس البشري · فليس في الدنيا من هذه الناحية شرق ولا غرب ، بل بشر يتداولون التفوق والغلبة ، وفق احكام سنن الكائنات العامة (نواميس الاجتماع والعمران) ولا شي افعل في تجديد شباب الشرق ، واستئناف قواه للعمل في سبيل حضارته وعمرانه ، من رسوخ هذه العقيدة القويمة فيه · »

***

ومن قفص النجف فرَّ طير آخر هارباً ، فر يطلب قسمته من الارث السماوي . هو طير ولا كالاطيار ، له منقاد البومة ، وصدر الورقاء ، وجانح الهدهد ، وذنب الطاووس . وله في الشدو هديل الحمام ، وصفير البلبل ، وعندلة العندليب . هو طير غريب فريد ، يدعى بين الناس باحمد الصافي ، ويُعرف بالشاعر المجدد ، والشاعر البائس .

فقد ولد في النجف الاشرف ، يوم كان الحُسن الخلقي والصحة والنعمة تتنزه كلها في الكون الاعلى ، فما رمقته بنظرة ساعة الولادة ، ولا دنت بعد ذلك من ملعبه ، او من رحله ، او من كوخه .

ما عوّض عليه النجف بشيء مما حُرِم ، ولا احسن الترحال ، ما لزمه من سوء الحال . فقد تنقل من كوخ الى كوخ ، ومن بلد الى بلد ، ومن مضرب في البادية الى اخر ، ومن مضارب البدو الى مرابع الحضر ، ومن مستشفى لا يشفي الى مستشفى لا يرحم ، وهو في كل احواله مجهول غريب . فقد كان يدعى عجمياً في النجف ، وعربياً في بلاد العجم . ثم راح يقيم بين البدو فظنوه من الحضر ، وجاء سوريه فظنه اهلها من البدو .

انه لطير عجيب غريب ، يحسن الطيران والغناء ، ولا يحسن سواهما . وهو كما المحت وليدُ برج النحوس . فالدمامة أُمه ، والبوءس والده ، والسقم اخوه ، والفقر ابن عمه . بل ان له من الاسقام اخواناً يقيمون في اعضائه الحيوية كلها وفي اعصابه . اما الروح منه فهي سليمة قوية ، بل هي روحٌ جبارة في هيكل سقيم .

« اسير بجسمٍ مشبهٍ جسم ميتٍ كأني اذ امشي به حامل نعشي »

ولكنه ثأر لنفسه من أسرة الاسقام والآلام اسرته ، فصبَّ عليها من

قوافيه جام السخرية والغضب · ومن ذا الذي يلومه ، اذا انهمرت دموعه ، بعد رعود الغضب ، وبروق السخرية ؟ هي الطبيعة ، هي سنة السماوات · وهذا الشاعر هو كالطبيعة في صدقه ، وكسُنة السماوات في ضيائه وغيومه ، وفي بروقه ، ورعوده ، وتهطاله ·

فاذا نحن حملنا على الشعر الباكي ، الذي الفه شبان هـذا الزمان ، وقلّ فيهم من كان محروماً نِعم الحياة ، فاننا نحمل على عادة امست مرضاً اجتماعياً ، مهلكاً للنفوس وللاخلاق · اجل ، اننا نحمل على التعمل والتعمد والتخنث في الشعر الباكي ، نحمل على دموع الزور ، وعلى دموع الخوف والجبانة ، وعلى دموع الشعر السوداء ، المكونه من الحبر الممزوج بماء العواطف الاسن ·

اما دموع هذا الشاعر فهي مثل اسمه صافية ، ومثل نفسه صادقة · وهي من نفسه ومن قلبه ، لا من حبر شعره وتبره · وانهـا الى ذلك لتتلألأ بالابتسام المحزن ، والقهقهة الساخرة ·

اجل ، ان الصافي ، على بوئسه وسقمه ، ليحسن الضحك والتهكم · فهو يوالي القط والفأرة [1] ليشفي نفسه من ولاء الناس · وهو يعجب من الاطباء الذين يحاولون ان يحرموه داءه ، ذلك الارث الوحيد من ابويه · وهو يكفر ويتوب ، ويبرأ الى الله من شيطان شعره فيوده في النار · وهو يبني قصوراً في الجنان ، « فيهدمها دَرْوين لعنه الله · » وان له نظرات في النفس نافذة ذابحة ، فيريد مثلا ان ينزع عنه كل اثواب العقائد ، ولكنه يخشى ، وهو ينزع الثوب تلو الثوب ، ان يكون قد كُوِّن من الاثواب ، والاّ يصادف

(١) « الشاعر والفار » و « الشاعر والقط » من قصائده المبتكرة في ديوانه « الامواج »

روحاً وراءها[1] وله قصيدة عنوانها العدالة، لا دمعة فيها، ولكنها تستذرف الدموع، مطلعها :

« وجهي دميم وقلبي عدو كل دميم
لذاك تبدو لعيني المرآة مثل الخصوم
اني لارثي لعين ترنو لوجهي الذميم
...
لو كان وجهي بكفي القيته في الجحيم »

قد يكون في الكلمة المأثورة : ذكاء المرء محسوب عليه، شيء من العدل الاعلى . وقد يبالغ رب ذلك العدل في المحاسبة، فيحرم صاحب الذكاء كل نِعَم الحياة، الا هذه التي توحي اليه الشعر . ولكن الشاعر يشدو غالباً للبادية والليل – وللكوخ والسراج، مثل هذا الشاعر النجفي، وللقطط والفيران .

فهل يستطيع ان يقول والحال هذه : ذكاء المرء محسوب عليه ? وهل هو يجد في ذلك شيئاً من التعزية غير تلك التي يجيء بها النظم والابداع . فما اضألها من تعزية، ولا سيما اذا كان الشاعر لا يُمَدُّ على الدوام بانوار الوحي والابتكار .

لا وربة الوحي . لا نظن ان القدر كان عادلاً في محاسبة احمد الصافي . بل نظن، بحسب مقاييسنا للعدل – وليس لدينا سواها – ان الحساب مغلوط فيه، ونأمل ان يصحح في حياة اخرى للصافي، او بالحري في دورة ثانية او ثالثة من حياته الارضية .

---

(١) « اثواب الروح » من قصائده الصغيرة

اما في هــذه الدورة فالخيال وحده يخفف من نتائج ذلك الخطأ في الحساب . فاذا كان ، في ما هو قوت القلوب ، يعيش في الخيال ، فما ذلك اختياراً منه . فهو كما يقول لا يرضي الجنس الخشن ، فمن اين له اذن ان يرضي الجنس اللطيف . وانه ليجد ، حتى في الجنس اللطيف ، وجوها غير لطيفة لا يستطيع ان يستميلها اليه .

« تنــأى الذميمة مني فكيف بالحسناء ؟ ! »

ان ذلك ليشجي ويغيظ . وانه ليبعث في النفس قنوطــاً ليس وراءه قنوط او رجاء . فلولا ربة الشعر لهتف الشاعر : على الدنيا السلام ، واستحب الحِمام . ولكنها تعزيه بوحيها ، فتستوقفه في الباب متفلسفاً ومجــاملاً . الا انه ما جامل في شعره ، على ما اظن ، غير الموت :

« انا اهواك غــير اني لا ارضا ك تأتي بالكــره والاجبــار
وَلَكم رمتُ ان ازورك لـكن خفت ان تشتكي الاذى من مزاري

ان ربة الشعر لتعزيه بالحياة فتفتح له ابواباً جديدة ، فيلجها مبتهجاً ، وقد نسي كل ما به ، فينظم القصائد وليس فيها غير مرهم لجروحه ، كقصيدته « فتنة الجمال » ، وينظم غيرها ، وفيها الجديد المبتـكر ، مثل تلك القصيدة الشعشاعة التي تمثله برغوثاً في ثوب احدى النسـاء .

« انالــ منهــا بغيتي بالرغم عن حجابهــا
الثمها من فرعهــا لمنتهى كعــابهــا »

ويســكر في ثيابها ، وهو يتزلق فوق جسمها ، سكرة غرامية عمياء .

«من دمها سـكري كما تسـكر من شرابها»

ثم يصحو فيختم القصيدة متفاديا :

« وان تصدني كفها أمُت فدا شبابها »

ومن ارق ما اوحى اليه الحرمان ، وصوره الخيال ، ثلاثة ابيات نظمها اذ رأى رسمه في احدى الصحف ينطبق على رسم آنسة في الصفحة المقابلة فقال :

« ما نلت من فيك رشفاً او من قوامك ضما
لكنما نال رسمي من رمم خدك لثما
فاعجب لحب غريب رمم بغازل رسما »

لا نكران ان شعر الصافي مرآة روحه ، وهي بعكس وجهه على شيء كثير من الحسن ، ومن النبل والحنان . وهي كذلك روح بدوية ساذجة ، غبار البادية لا يزال عليها . فهو بدوي في صراحته المشجية ، وفي نبراته التي تتخللها العبرات او القهقهات ، وفي شدوه المشبَّح بانين الربابة ، وحنين الساقية .

لهذا الشاعر في وصف حاله واشجانه مزية شريفة عالية ، هي الصدق والصراحة . فهو لا يتستر بشيء ، ولا يأنف ان يريك سراجه وكوخه ، وحتى فراشه وغطاه . ولا يهمه ان ترى — اللهم بعين الرضى والاحترام — خرقاً في ردائه ، او فتقاً في عبائه . احمد الصافي يتغنى بكل ما هو احمد الصافي ، مما اختاره هو لنفسه ، ومما فرضته عليه الاقدار ، فيطربك ويشجيك . وان اسلوبه في الوصف سهل قويم بليغ ، يلزم الحقيقة فيه ، ويزينها بالمعاني الجديدة . مثال ذلك قصيدته « الوحدة » وخصوصاً ابياتها الاخيرة التي تبدأ بقوله :

« ان رمت تاريخ حزني سل مفرشي وغطائي »

او الابيات الاخيرة من القصيدة التي يصف فيها غرفته :

«اغرفة للمنام هذي ام هي منفى له نُفيت»

على ان البداوة تبدو باصدق مظاهرها في ما يصح ان نسميه « العقليات » من شعره · وهو فيها الحائر المضطرب، الذي لا يزال متقيداً ببعض النزعات القديمة ، المترجح بسببها بين الشك واليقين · فهو حيناً يتغنى بالزهد ، وحيناً يحن الى طيبات الارض ، وتارة يحمل على الجهل ، وطوراً على العلم · ان في مقاطيعه «انغام مشوشة» كثيراً من هذا التناقض ، وفيها البرهان على صدق شعور الشاعر واخلاصه ·

« قد شاب في الحب رأسي والقلب ما زال طفلا
يا رب ارجع شبابي او هب فؤادي عقلا »

ثم يقول في الصفحة المقابلة ، وهو صادق في الحالين :

« كلما يبنيه قلبي يهدم العقل بناءه »

ومن هذا الباب قوله في المعاني والالفاظ ·

«ارى الشعر في الارواح لا السجع كامنا
ولا في بحور خاليات من الدر
فكم شاعر ما فاه بالنظم مرة
وكم ناظم ما قال بيتاً من الشعر »

ثم يقول :

« اللفظ قشر وفيه لب المعاني يقر
فاللب يفنى سريعاً ان لم يحط فيه قشر »

أفلا ترى الحقيقة في وجهيَ المسألة ؟ كأن الشاعر والفيلسوف يتناقشان فيفحم الواحد الاخر · لست ادري اذا كان الصافي نظر الى هذه المتناقضات نظرةً سقراطية افلاطونية · وقد لا يكون مديناً لغير الحيرة التي تلزم الشاعر في مواقف لا يتناسب فيها المعقول والمحسوس ولا يتوازنان · بيد ان الاثنين من واحة واحدة ، فالفطرة تبني لهما البيوت ، والصراحة تصيغ لهما القوافي ·

ومع ذلك فانّا نرى الصافي غير صافٍ في عقلياته · وما هو فيها بالمبتكر المجدد · وكذلك قل في قصائده الوطنية التي قلما تمتاز عن شعر من سواه ·

بقي ان اقول كلمة في آفة له شعرية ، تكاد تكون آفة الشعر العربي ، وخصوصاً في هذا الزمـــان · اريد بها الاسراف في الخيال ، وفي الالفاظ ، وفي المعاني ، وقل كذلك في الرضى عن صور لامعة منفردة ، أجاءت في محلها ام لم تجيء · فهي تُزَجّ في القصيدة ، فتبدو فيها نافرةً ، او صاخبةً ، او متقلقلة ·

وبكلمة اخرى ان الشعر العربي الحديث تـكثر فيه الصناعة اللفظية ، على الاجمال ، وتقل الصناعة المعنوية · كما انه عامر بالخيال ، ومفتقر الى الفن في التـكوين ، اي الى الاتساق والتجانس في الصور والاستعارات ، والى الوحدة المعنوية في القصيدة ·

مثال ذلك من شعر الصافي قصيدته « نجمة الصبح » · فان فيها صوراً شتى ، تتزاحم في ذهن القارىء ، ولا تترك فيه اثراً بارزا ، او شكلاً واحداً جذابا ، كامل التكوين · فالشاعر في مطلع القصيدة يمثل كوكب الصباح رفيقَ سفرٍ سبقه الرفـاق ، فيبكيهم تارةً ، وطوراً يشتعل كمداً ، وحيناً

يرف بجناحيه ليطير فيدركهم ، وحيناً يتخبط حائراً قلقاً . ثم يتصور رفاقه وقد غرقوا في بحر من النور ، وهو الذي نجا من الغرق يسبح لينجيهم .

اما النور فهو في كل حال من احواله يتغير صفةً وشكلا . فهو الدموع ، وهو النار ، وهو الجناح ، وهو العرق ، وهو الاكُف التي يبحث بها عن رفاقه لينتشلهم من اليم . فيهتاج البحر لذلك ، ثم تجيء الشمس هائجة لتغرقه هو كذلك . فالصورة هذه ، لو وقف عندها ، هي صورة كاملة موحدة ، على ما فيها من اضطراب . ولكن الشاعر استسلم لخياله الخصب فراح يصور كوكب الصباح – ذلك البطل الذي انبرى لانقاذ رفاقه من الغرق – راح يصوره كطائر اصبح في قفص ، او كسجين في السماء ، وقد استحال نوره سلسلة على عنقه ورجليه !

فلو اقتصر الشاعر على صورة واحدة من هذه الصور ، ومثل كوكب الصباح ينازل الشمس مثلاً ، فيتنازعان الوجود ، او مثله رفيقَ سفرٍ يجدُّ ليلحق برفاقه او ينقذهم ، وشذب الصورة من كل ما يصرف الذهن عنها من الزيادات ، لبرزت القصيدة في صورتها الواحدة الكاملة ابلغ واجمل مما هي في صورها المتعددة ، ولكان لها وقع في نفس القارىء شديد ، واثر لا يمحى .

لا اظن الصافي يجهل هذه الحقيقة . فانها لتبدو جلية في قصيدته « ليلة ماطرة » ذات الصورة الواحدة المتسقة ، المجردة من فضول القريحة . وكذلك في تلك القصيدة الفريدة في بابها ، التي لم يُسبق على ما اظن اليها . اعني بها قصيدة الشاي ، الحافلة بالمعاني الجليلة . وهي كاملة متجانسة في الوحدة الشعرية . فعسى ان يتوفق الشاعر دائمًا الى هذا الفن المشذّب العالي ، الذي تصفو وتستقيم فيه الصيغة والفكر والخيال .

الفصل السابع

الصولجان والرمح والعصا

القوة المعنوية في الامة — الالعاب الرياضية — « مسألة اهم من المعاهدات » — سياحات الالعاب — لعبة الصولجان اي البولو عند العرب — بشار بن برد والخليفة المهدي — الفروسية والمطاردة — الفرق العراقية والفرق الانكليزية في لعبة الصولجان — فوز العراقيين بكأس البطولة — في الميدان — الصولجان والخيول العربية .

الالعاب والاديان من الشرق — البوبو واصلها العربي — في نادي الضباط — ثناء الضباط العراقيين على اساتذتهم الانكليز — الانكليزي الكريم الاخلاق والانكليزي المتعجرف — صيد الخنازير البرية — المطاردة بالنبال — ضابط انكليزي يغرق وحصانه في الوحل — تلاميذه العراقيون ينقذونه — العراقي امهر من الانكليزي في صيد الخنزير البري — اخطار الصيد — من يصيد الخنزير ومن يأكله — قصة طريفة .

الكشافة — تاريخها في العراق — اهتمام الانكليز بها — تأسيس سبع فرق في العاصمة — الاحتفال الاول — الاستغناء عن المعلمين الانكليز — الادارة تنتقل الى الوطنيين — الملك فيصل حامي الكشاف الاعظم — الكشافة في الالوية — الاحصاء الاخير — قائد الكشافة اليوم — الاجتماع الكشافي العام — خمسة الاف كشاف يستعرضهم الملك غازي — طلائع الوطن الجديد — البوتقة الوطنية — من هو الكشاف .

القوة المعنوية في الامة تضمن وتعزز قواها المادية كلها . فقد حدثت القارىء ، في الفصول السابقة ، عن السياسة والتعليم والشعر ، وهي بعض

العناصر التي تتألف منها تلك القوة ، بل هي بعض عوامل النهضة العراقية ، الوطنية والاجتماعية ·

فالسياسة وحدها لا تصلح شؤون الامم · والسياسة والتعليم وحدهما لا يرفعان بتلك الشؤون الى المستوى الأعلى · امـا اذا اضفنا الى الاثنين الشعر ، مغذي الارواح ، ومهذب الاخلاق ، فالارتقاء المنشود ممكن ، الا انه غير مضمون السلامة والثبات ·

لا بد اذن من عامل اخر · فقد تكون الامة مهذبة وضعيفة معاً · وقد تكون راقية في تهذيبها ، صادقة في وطنيتها ، وتظل في حاجة الى القوة المستيقظة الوثابة ، للذود عن ذمارها في حين الخطر ، ولتعزيز جانبها في كل حين ·

اجل ، مهما كان من ارتقاء الامة ، وطنياً واجتماعياً وادبياً ، فهي تظل في حاجة الى ما يضمن كيانها العالي ، اي الى القوة المعنوية المخزونة ، التي تبعث في ابنائها النشاط والعزم والشجاعة والاقدام · هي القوة التي تنشأ عن الصحة والمرونة في الاجساد وفي الاخلاق ، وفي الارواح والعقول · وبكلمة اخرى هي القوة الكامنة في الألعاب الرياضية · فالامة التي لا تحسن اللعب — اللعب في الفلاة لا في القهاوي المخبلة — لا تحسن العمل ، ولا تأمن ، في رقيها وعمرانها ، غوائل الزمان ·

عندما زار بغداد في سنة ١٩٢٢ ، اللورد إِيسلِي ، مدير جريدة المورنن پوست بلندن ، قابل الملك فيصلاً بشأن المعاهدة الانكليزية العراقية في تلك الايام · وبعد المحادثة السياسية قال : « وهناك مسألة هي اهم من المعاهدات احب ان اعرضها على جلالتكم · » فاشرأب الملك فيصل اليه ، وارهف من

كان حاضراً أذنـه ، فقال سيادة اللورد : « نعم ، هي مسألة مهمة جداً ·
متى يصير عندكم بالعراق فرقة للعب الپولو ؟ » فضحك الملك ، وما ظن ان
سيكون لهذه المسألة شأن في المستقبل القريب ·

* * *

ان لعبة اليولو فارسية الاصل كما جاء في دائرة المعارف · وقد ساحت
شرقاً من بلاد العجم الى الهند والصين ، ثم غرباً بطريق الاستانة الى اوروبه ،
ثم رأساً من الهند الى انكلترة ، في سنة ١٨٦٩ ، عَلَى يد ضباطٍ انكليز · وهي
الان ، والحمد لله ولصاحب جريدة المورنن پوست الشريف الظريف اللورد
إپسلي ، تعود بعد نصف قرن من لندن الى الشرق · فما اعجب
سياحات الالعاب !

لو كان العرب ، بل لو كان الشرقيون يعنون بتواريخ العابهم عَنَيْهم
بتواريخ الملوك والحروب ، او عَنَيْهم بالشعر والاساطير ، لجاء في كتبهم عن
هذه اللعبة الشيء الكثير من الطُرف والاخبار ، ولعلمنا ما كان من شأنها
ببغداد · بيد ان العرب يزدرون ، على ما يظهر ، الكرة كيفما لُعب بها ، عَلَى
الارض او من صهوة الخيل ، بالرجل او باليد او بالمحجن ، ولا يحسبونها تليق
بغير الاولاد · وما جاء ذكر اليولو ، اي لعب الكرة بالمحجن من عَلَى صهوة
الخيل ، غير مرة ، على ما نعلم ، وذلك في بيت من الشعر لبشار بن برد ·

على ان اللعبة هذه كانت معروفة عندهم ، وان لم تكن مألوفة ، وقد
أسموها بالصولجان[1] اي باسم العصا التي تطارَد بها الكرة · فقد نظم بشار في

---

(١) صلج فلانا بالعصا ضرب بها · والصولجان المحجن ومنه صولجان الملك

هجاء الخليفة المهدي ببيتين من الشعر البذيء يكفي ان نذكر منها البيت الاول ، وفيه الشاهد على ما نقول :

« خليفة ينكح عمّاته ويلعب الدبّوق[١] والصولجان »

قيل ان هذا البيت والاخر الذي يليه كانا السبب في غضب المهدي تلك الغضبة التي حملته الى البصرة ليمثل بذلك الشاعر القذِع ، فامر بضربه بالسياط ، فضرِب حتى زهقت نفسه . اذا صحت هذه الرواية كان للصولجان ببغداد ذكرٌ مفجع .

وهنالك شاهد اخر على ان لعبة البولو كانت معروفة عند العرب ، وانها أسميت بالصولجان . ذلك ان الصولجان شبيه بالمحجن[٢] ، والمحجن ، اي العصا المنعطفة الرأس ، هو شبيه بالعصا التي تُلعب بها هذه اللعبة الشرقية القديمة . انما العرب اتخذوا اسمها من المحجن ، اي الصولجان ، لا من الكرة .

اما انهم فضلوا غيرها عليها من الالعاب فذلك معقول . لا سيما وهم ينشدون الفائدة حتى في العابهم . ان لعب الجريد مثلاً يعلمهم الفروسية ، والفروسية لازمة في الغزو . كذلك الرماية ، وهم ولعون بالصيد . في هاتين اللعبتين اذن ، الفروسية والرماية ، يتعلم العرب الاصابة ، والمطاردة ، والاغارة ، وهي من الصفات اللازمة في لعبة الصولجان ، وقد اضحت من تراث العرب مثل الكرم والشجاعة . فعندما بدأ الضباط الانكليز يعلمون العراقيين الصولجان ما خطر في بالهم ما تكمن لهم الفروسية العربية . ولا خطر في بال

---

(١) من دبِق يدبَق دبقاً لصق به ودبقه اصطاده بالدبق والدبوق لعبة

(٢) حجن العود عطفه ، وحجن الشيء جذبه بالمحجن الى نفسه . ويقول العامة في لبنان محجَلة اي عصا طويلة في رأسها عكفة

اللورد إيسلي عندما عرض على الملك فيصل « مسألة هي اهم من المعاهدات » ان سيضطر في المستقبل القريب ان ينشر في جريدته اخبار فوز الفِرَق العراقية على الفِرَق الانكليزية في لعب الصولجان ·

هي الحقيقة · فقد انتصرت فِرَق الجيش العراقي بضع مرات ، في خلال ثلاث سنوات ، على فرق القوة الجوية الملكية البريطانية ، فظفرت بكأس جاكسون في اذار سنة ١٩٢٩ ، وفي الشهر التالي من السنة نفسها احرزت كأس البطولة المهداة من السر ُبنم كارتر [1] · ثم جرت المباراة في الهنيدي ، في شباط سنة ١٩٣٢ ، بين اربع فرق منتخبة من اللاعبين جميعاً ، العراقيين والانكليز ، على الكأس المقدمة من السر جان كادمان [2] نخسرها الانكليز · ثلاث مرات متوالية انتصر فيها العراقيون · فهل ينتظر من التلاميذ ان يغلبوا معلميهم اكثر من ذلك في خلال سنتين او ثلاث سنوات ؟

جميل باشا الراوي من غواة لعبة الصولجان ، وهو يفتخر بابن عمه الملازم الاول ابراهيم الراوي ، بطل الميدان في الفوز على الانكليز · دعانا جميل باشا ذات يوم لمشاهدة فرقتين من الجيش العراقي تتباريان في اللعب ، فيمما الميدان خارج السور الشمالي ، ونحن نتوقع المدهشات في المشاهدات ، فما كان منها غير القليل · ذلك لان العراقيين لا يقبلون اليوم على الصولجان اقبالهم عَلَى سباق الخيل او على لعب الكرة بالقدم · وارض الميدان من التراب

(١) السر إدغر بُنَم كارتر ، المغرم بلعب البولو ، والمشجع عليه ، هو من الانكليز الذين يذكرهم العراقيون بالخير على الدوام · وان فضله الاكبر لفي تنظيم العدلية العراقية ، في بداية عهد الاحتلال ، وتعزيز روح السيادة الوطنية فيها ·

(٢) السر جان كادمان رئيس شركة النفط العراقية ·

الناعم ، فتثيره حوافر الخيل ، وكثيراً ما يخفي الكرة عن انظار اللاعبين ، فيخطئونها ، ولا حرج ·

ومع ذلك فقد امتاز لعبهم بالخفة والنشاط ، وكانوا في الفروسية على الاقل مبدعين ، يقصرون في جولاتهم ويفرسخون ، يجرون ويغيرون ، وهم يتجاحفون الكرة بصواليجهم · قال جاري الانكليزي ، وهو من غواة هذا اللعب ، ان في جولاتهم خفة ومرونة ، وان ضرباتهم بقفا الصولجان لضربات محكمة ، هي ضربات الحذقين اللبقين · على اني كنت معجباً بفروسيتهم اكثر مني بمهارتهم الصولجانية · فما كبا في ذلك الميدان جواد ، ولا كان الفرسان أولو الصولجان اقل براعة ولمعاناً من جيادهم العربية · اما ما كان من ضربات صاردة فهم كما قلت لا يلامون عليها · فقد طالما غلّف الغبار الكرة ، نخفاها عن الابصار ·

ان الصولجانيين ليستحقون ميداناً بغداد ارضه طرية متماسكة ، او ترابه ثابت تحت فراش من العشب المجزوز · وان حكومة العراق لتحسن صنعاً اذا ما عنت بتربية الخيول العربية خصوصاً للعبة الصولجان · فالحصان العربي لا يُبز في المرونة والقيادة · انه في الجولات وفي الدورات السريع المطواع ، وفي الكر والفر اللامع المجيد · فاذا ما عنت الحكومة بهذا الامر تمكنت من تصدير الخيل الى اوروبه للعبة الصولجان ، فتجاري في سوقها هناك بل تسبق أستراليه والارجنتين · عندئذ نقول مفاخرين : دونكم والصولجان وخيوله العربية ! فاللعبة التي عادت من الغرب الى الشرق ، بعد الف سنة ، تعود بخيلها هذه المرة من الشرق الى الغرب ·

* * *

ولا نهاية لسياحة الالعاب، ولا مشاحة ان اكثرهـا، مثل الاديان، من الشرق . فالنرد والشطرنج من بلد الصولجان. والفروسية عربية الاصل. وهناك لعبة كان لها ازدهار في اوروبه منذ ثلاث سنوات، هي اليويو، وقد عادت منتصرة الى مسقط رأسها، الى هذه البلاد .

اجل، ان اليويو لعبة عربية المولد . وهـل تعرف كيف ولدت ونطورت ؟ لقد ولدت في متصيد البزاة والصقور، بل في منتجع الابل . فالعرب، عندما يسوقون الابل الى الماء، يصيحون بها : جو، جو ! وبعض العرب في نجد وفي البصرة مثلاً يقلبون الجيم ياءً فيقولون : يو، يو . ثم استخدموها في صيدهم بالصقور والبزاة .

يو، يو ! طـار الصقر لينقض على فريسته . يو يو ! عاد الصقر الى صاحبه . هل بان لك وجه الشبه بينه وبين اللعبة ؟ يويو ! أُفلت الدولاب المربوط بالخيط . يو يو ! عاد على خيطه الى يدك . وكذلك البازي الذي يطير، طوعاً للصوت الهاتف يو يو ! ثم يعود فيقف على زنـد الصياد او علَى القضيب بيده .

* * *

وفي نادي الضباط لفرقـة الهاشمي دار الحديث ذات ليلة على الالعاب وعلى الصيد . كان جميل باشا الراوي مضيفنا للعشاء فعرفنا الى عشرين ونيف من الضباط العراقيين، وكل واحد منهم، في بزته ورونقه وحديثه مثال الاناقة واللطف والتهذيب . هو التعليم الانكليزي، وما اكثر محاسنه اذا ما نُزِّه عن السياسة .

وما الضباط العراقيون ممن يغمصون فضل معلميهم · فقد حدثونا بلهجة صادقة فصيحة عن اولئك الانكليز، فقال احدهم: «الاعتراف بالجميل واجب» وقال الاخر: «حسن التقدير من كرم الاخلاق.»

وقال الملازم الاول صبحي العمري: «ما رأيت في الناس الطف من بعض اولئك الضباط اساتذتنا، ولا مَن هم ارحب منهم صدراً، واكثر صبرا · كنا نأتمر باوامرهم في ساعات التعليم والعمل، وكنا نلعب واياهم بعد ذلك كالاخوان الاكفاء، فنغلبهم في البولو، وفي الصيد · وما من مرة، في الصيد او في اللعب، جعلونا نشعر باننا دونهم، او انهم، وهم المغلوبون، ارفع منا شأناً ومقاماً · فهم يستقبلون الغلبة بصدر رحب، وصبر جميل، شأن من تعودوا الالعاب الرياضية، وعززوا ادابها القائمة على كرم الاخلاق والصبر والانصاف ·

ولكن للقاعدة شواذها · فقد عرفوا كذلك الانكليزي المتكبر المتحذلق الشرس الاخلاق · وعندما يكون مثل هذا الرجل ضابطاً في الجيش، واستاذاً لضباط اجانب، فالعياذ بالله · ذكر احد الضباط استاذاً من اساتذتهم تعددت صفاته المنكرة، فقال الملازم الراوي:

«هي الشخصية في كل حال، وعليها المعول حتى في صيد الخنازير ·»

ثم دار الحديث عَلَى الخنزير البري، الذي لا يزال يُصطاد على الطريقة القديمة بالرماح والنبال، فروى احدهم قصة مطاردة كان ذلك الضابط الانكليزي بطلها، قال:

«خرجنا واياه ذات يوم للصيد، فضَلَّ الطريق وهو يطارد خنزيراً حول هور من الاهوار، فغرق حصانه في الوحل، وعلق به · وكان الخنزير

قد فرَّ هارباً ، ونَبل استاذنا الضابط غارز في جلده . اتذكر ذلك ؟ لقد شكرنا عندما انقذناه وحصانه من الوحل . ثم طاردنا ذلك الخنزير ، وادركناه ، ورميناه فقتلناه ، وعدنا به وسهم الاستاذ لا يزال غارزاً في كفله . اتذكر ذلك ؟ أوَ تذكر كيف نظر الينا ؟ شكرنا ، نعم . ولكني قرأت في عينه ان يود لو كان ذلك السهم في قلب واحد منا . »

لا ريب في ان العراقي امهر من الانكليزي في مطاردة الخنازير البرية وصيدها ، لا سيما وهو اعلم منه بارض العراق واهوارها . فالخنزير يكثر في تلك الاهوار والمستنقعات ، والصياد الذي لا يعرف مداخلها ومخارجها ، وموحلاتها ومزالقها ، يخفق في صيده ، وقد يقع هو وفرسه في نهر تخفيه الاعشاب ، او في موحلة بين القصب . اما العالم بتلك الاماكن ، فهو يعرف متى ينبغي ان يثب ، ومتى يجب ان يدور او يتقهقر ، وهو يدرك ، حتى مِن وقع حوافر فرسه ، اذا كان عَلَى حاشية بركة من الوحل والماء ، او في ارض تدنو من الهور . بيد ان الانكليزي هو الرابح في كل حال ، ان كان هو صاحب الصيد او العراقي . ذلك لان العراقي المسلم يكتفي بلذة صيد الخنازير البرية ، والانكليزي يأكل تلك الخنازير .

حدثنا راوي باشا قال : « كان لاحد ضباط الانكليز عشي هندي ، وخادم عراقي ، والاثنان من المسلمين . فاضربا ذات يوم عن العمل ، ولولا استرضائه لهما لتركاه . وما كان السبب غير نكتة لذلك الضابط تتعلق بالخنزير . فقد كان داعياً للعشاء بعض اصحابه ، وما شاء ان يأكلوا الخنزير دون ان يسمعهم النكتة . ان ما قاله صحيح والله ، ولكن العشي

والخادم حسبا النكتة اهانة للمسلمين . فقد اصطاد الخنزير مسلم ، وحمله الى البيت مسلم ، وطبخه مسلم ، وقدمه على المائدة مسلم — ثم اكله الانكليز!»

* * *

في عنوان هذا الفصل « الصولجان والرمح والعصا » ثلاثة رموز ، كشفنا النقاب في ما تقدم عن اثنين منها . فقد حدثنا القارئ عن لعبة الصولجان ، وعن صيد الخنازير البرية بالرماح والنبال ، وسنحدثه الان عما ترمز اليه العصا ، اي الكشافة ، وهي ركن وطيد من اركان النهضة الوطنية ، ومظهر من مظاهر الحركة الرياضية ، والرقي الاجتماعي التهذيبي في العراق .

ان للكشافة العراقية تاريخاً اليك بخلاصته . فقد تشكلت الفرقة الاولى ببغداد ، في سنة ١٩١٥ ، في عهد الاتراك « لاغراض عسكرية ، اقتداء بالالمان ، وكان منوطاً امرها بضابط من ضباط الجيش التركي ، بمشارفة الكولونيل الالماني ڤون هوف . ولكنها أهملت في خلال الحرب الكبرى وما أثمرت .

ثم احتل الانكليز العراق ، وفي سنة ١٩١٨ عني المستر كاربت ناظر المالية يومئذ بامر الكشافة ، فاستدعى الى بغداد بعض افرادها الذين كانوا في الجيش البريطاني ، فشكلوا بمساعدة بعض المعلمين الوطنيين سبع فرق في العاصمة ، وربطوا كشافة العراق بمقر الكشاف البريطاني .

هذي هي البداية المثمرة لتلك الحركة المباركة . وقد نمت نمواً سريعاً ، وكان احتفالها الاول ، الذي أُقيم في السنة التالية ، بمساعدة ناظر المعارف ، احتفالاً باهراً ، ادهش الناس ، ولا سيما الاجانب ، فكانوا معجبين باقبال

ابناء العراق على الكشافة وبمهارتهم . وعندما تأسست الحكومة الوطنية في سنة ١٩٢٠ كانت السبع فرق قد اصبحت سبع عشرة فرقة ، واكثر الوظائف فيها بيد الوطنيين ، فاستُغني عن المعلمين الانكليز .

وبعد ذلك بدأت الكشافة تنتشر خارج العاصمة . فقد انتدبت وزارة المعارف جميل باشا الراوي ليبث الدعوة في الالوية ، فأسس ست فرق في الموصل . ثم أُقيم الاحتفال الثالث ، في سنة ١٩٢١ ، بادارة المعلمين الوطنيين تحت رعاية الملك فيصل الاول ، الذي كان من اكبر المشجعين للكشافة ، وصار بعدئذ حاميها الاعظم ، فتجلت في ذلك الاحتفال مقدرة ابناء العراق ومهارتهم في اتقان الاصول الكشافية .

عندما انتقلت الادارة الى الوطنيين ، وخصوصاً بعد الاحتفال الثالث ، اخذ المشروع يتعمم في البلاد ، فتأسست الفرق في اكثر الالوية ، واستمرت في ازدياد ، فتجاوز عددها في بضع سنوات الستين فرقة ، وهي اليوم في مجموعها تربي على الاثني عشر الف كشاف من الاصناف الثلاثة[1] ان الفضل في نجاح النهضة ، وانتشار اعلامها هذا الانتشار ، هو لفريقٍ من العراقيين الوطنيين الغيورين ، وفي مقدمتهم جميل الراوي وساطع الحصري وطه الهاشمي ورشيد الخوجه وسامي شوكت .

اما اليوم فان القائم باعمال الكشافة ، العامل بنشاط وعلم واخلاص في ارتقائها الدائم ، انما هو شاب سوري شيعي ، درس وزوجته المسيحية

---

(١) الاحصاء الاخير من سنة ١٩٣٠ الى ١٩٣٣ هو كما يلي :

الضباط	الرواد	الاحداث	الاشبال	المجموع
٣٥٠	٥٨٠	٩٠٠٠	٢٠٠٠	١١٩٣٠

المهذبة في اوروبه ، وعاد واياها ليخدما وطنها ، فكان ذلك الوطن العراق. وما العراق ، وما سوريه وفلسطين . ان كل قطر من الاقطار العربية وطن للعربي الصادق ، المخلص في حبه لابناء جنسه ، وان كانوا في صيدا او في بغداد ، في القدس او في الرياض .

«ساعد بارض تكون فيها ولا تقل انني غريبُ»

قلت في فصل سابق ان الدكتور شريف عسيران هو رائد الصحة الاكبر في الكاظمية. وها اخاه عبد الكريم وزوجة اخيه البيرونية ، بركات الله عليهما ، فانهما من مصابيح الرياضة والتهذيب في النشء العراقي الجديد .

اجل ، ان الفضل الاكبر في الاجتماع الكشافي العام ، الذي اقيم ببغداد في ٢١ اذار سنة ١٩٣٤ واستمر اسبوعاً ، للاحتفال بذكرى مولد جلالة الملك غازي ، والمناداة به كشافاً اعظم ، ان معظم الفضل في تنظيم ذلك الاجتماع يعود الى قائد الكشافة ومدير التربية البدنية عبد الكريم عسيران .

وما كان اجمله من اجتماع ، وما كان امجده ! لا اظن ان احداً من الالوف الذين حضروا الاستعراض في اليوم الاول ينسى روعة ذلك المشهد الوطني الذي تمجدت فيه عصا الكشافة ، وتجلت في الخمسة الاف كشاف من سائر الالوية روح النهضة العراقية ، الرياضية والاجتماعية ، بل روح النهضة الوطنية باجمعها .

ومما اثار اعجاب الناس في ذلك اليوم المشهود تلك الالعاب التي قامت بها ، على الالحان الموسيقية ، بنات المدارس ، ترأسهن معلمة لبنانية .

هي ذي طلائع الوطن الجديد ، وقد تجلت روحه في الجنسين من النشء العراقي . هي ذي البوتقة التي ستُصهَر فيها كل الفوارق القومية والدينية ، لتتكون منها القومية العراقية الواحدة . هي ذي الكشافة العراقية التي يحق للعراق ان يفاخر بها جميع الاقطار العربية .

وخير ما اختم به هذا الفصل ، وهذا الكتاب ، كلمة في المَثَل الوطني الانساني الاعلى اوصي الكشاف بها . فمن هو الكشاف ؟

من رعى نفسه ليحسن رعاية غيره ، وقيدها بنظام ليدرك قيمة النظام ، وعودها عمل الخير دون ذكره ، وحرية الفكر والقلب مع الشجاعة والصدق فيهما ، وكان الى ذلك ممن يعملون لاقامة العدل الادبي في الحكومات ، ولتعزيز الحق الانساني في القوميات ، فيرى في وطنه صورة محبوبة لجميع الاوطان ، ويرى في قوميته ما يربط الانسان بالانسان ، فهو الكشاف في نظري ، بل هو ركن من اركان الحياة الجديدة المنشودة التي ستشع خيراً وجمالاً ، وحباً وسلاماً في كل مكان .

تم الكتاب الاول « قلب العراق » وسيتلوه الكتاب
الثاني « ثغور العراق » وهو رحلات في بلاد
الاكراد والنجف والموصل والبصرة

ملحق

١ – الامة الجديدة في وادي الرافدين .
٢ – مفاتيح الاعمال المثمرة .

الامة الجديدة[١]

« اذا قابلنا العراق بعد معاهدة سنة ١٩٣٠ بالعراق في عهد الاحتلال ، اي قبل عشر سنوات ، يتضح لنا عدد من الفوارق نذكر منها عشرة فقط .

في سنة ١٩٢١

١ – كان النزاع مستمراً بين الحكومة المدنية البريطانية والحكومة الوطنية ، وقد اشتد في السنة الاولى بعد تتويج الملك فيصل ، حتى بات ينذر بثورة ثانية .

٢ – كان الشيخ محمود ثائراً على الحكومة العراقية وعلى الانكليز .

٣ – كانت الشيعة ، ضمناً وصراحة ، تناوىء الحكومة والانكليز والملك .

٤ – لم يكن في استطاعة الحكومة ، لضعفها واضطرابها ، ان تجبي الضرائب من العشائر .

٥ – كانت ميزانية الحكومة اربعة ملايين ليرة انكليزية ، وفيها نقص يربي على الثلاثمائة الف ليرة .

٦ – كان على العراق من الدين العثماني مليونا ليرة انكليزية .

٧ – كان الجيش البريطاني لا يزال محتلاً البلاد .

٨ – كانت قبائل نجد تغزو العراق غزوات متواصلة .

٩ – ما كان يدخل على خزينة العراق شيء من ريع النفط .

١٠ – كان في الحكومة العراقية اكثر من الف موظف بريطاني .

---

(١) من مقال للمؤلف في مجلة آسيه — Asia — الانكليزية لشهر كانون الاول سنة ١٩٣٢

بعد معاهدة سنة ١٩٣٠

١ — السلام مستتب والامن موطّد في البلاد .

٢ — أقمعت الفتن في بلاد الاكراد ، وتأسس في آخر معقل من معاقل الثورة — في بارزان — حكومة مدنية .

٣ — الشيعة موالية على الاجمال للحكومة .

٤ — احوال العشائر في تطور دائم ، وتحسين مستمر .

٥ — ميزانية سنة ١٩٣٢ بلغت ٣٦٣،٠٠٠٠ ليرة انكليزية والنقص فيها ٦٥ الف ليرة .

٦ — في خلال خمس سنوات ، من سنة ١٩٢٤ الى ١٩٢٩ ، زادت ميزانية الحكومة ١،٥٠٠،٠٠٠ ليرة انكليزية ، فاستخدم قسم من الزيادة لدفع اقساط الدين العثماني (وقد دُفع القسط الاخير في السنة التالية)

٧ — أجلت الحكومة البريطانية جيشها عن العراق ، واستعاضت عنه بقوة الطيران الملكي ، وشرعت الحكومة العراقية تحسن في تنظيم جيشها الوطني وتزيد بقواته .

٨ — تحسنت وتوطدت صلات الولاء وحسن الجوار ، بفضل الملك فيصل ، بين العراق وجيرانه شمالاً وشرقاً وجنوباً .

٩ — في البلاد ثلاث شركات للنفط ستدر على الحكومة ، عندما تباشر كلها العمل ، [illegible]ثر من مليون ليرة انكليزية في السنة .

[illegible] عدد الموظفين البريطانيين في الحكومة العراقية لا يربى على المائة موظف وقد [illegible] الفاً ونيف» .

مفاتيح الاعمال المثمرة (١)

احيي في البلاد العراقية مليكها المعظم ، وشعبها المحبوب ، واركان نهضتها المباركة .
وبعد الدعاء لصاحب الجلالة بطول العمر والتوفيق اشكره . واشكر رجال السياسة والادب في هذه المدينة ، على ما شرفوني به من جميل الحفاوة والتكريم . وان شكري وان قصر اللسان ، لمثل سروري وان عجز البيان ، كلاهما يفيض من القلب حباً للعراق والعراقيين .

ان في موقفي هذا ، الفريد في بابه ، من دواعي الغبطة والفخر ما لم يسبق له مثيل في حياتي الكتابية والخطابية . فاني افتخر ان اكون الخطيب الاول بعد جلالة الملك ، يرسل كلمته على الاثير بواسطة هذه الآلة الصغيرة امامي . واني مغتبط جد الاغتباط بان اخطب في اول معرض زراعي صناعي يقام في هذه البلاد منذ عهد حمورابي حتى هذا الزمان .

اجل انه لمظهر من مظاهر الحياة العراقية الجديدة فريد في بابه . انه لمطلع فجر جديد . انه لغرة عهد سعيد مبارك . انه لصفحة من الصفحات الاولى في تاريخ هذه البلاد القديم والحديث . وهناك صفحات اخرى .

لاول مرة في تاريخ هذه البلاد القديمة ، منذ ايام اور واشور الى يومنا هذا . تؤسس فيها حكومة نيابية ، وينصب فيها ملك دستوري .

ولاول مرة في التاريخ تنشأ المدارس العمومية لنشر العلم والتهذيب . ليس بين الخاصة فقط او خدمة لفريق من الناس ، بل بين طبقات الامة جمعاء على السواء .

ولاول مرة في التاريخ سنت الشرائع ، وسيسن غيرها تدريجاً ، لصيانة حقوق الشعب العام .

ولاول مرة في التاريخ العربي ، منذ عهد العباسيين حتى اليوم . جدد في بغداد سوق عكاظ تشجيعاً للآداب ، وتعزيزاً للثقافة العربية . وعسى الا تكون الحفلة التي اقيمت منذ تسع سنوات الاولى والاخيرة . عسى ان تقام في المستقبل كل عام .

---

(١) الخطبة التي القاها المؤلف في المعرض الزراعي الصناعي ببغداد في ٧ نيسان سنة ١٩٣٢ وقد اذيعت وقتئذ بالراديو

ولاول مرة في التاريخ كله يخرج من مدينة السلام الجديدة صوت يحمله الاثير الى ما وراء الافاق ، فيسمعه القاصي والداني ، ويسبح بحمد العلم بعد حمد الله ، ينبوع الاسرار ومصدر القوى الكامنة في الاكوان . هوذا الصوت الذي تخيله المتنبي في زئير الاسد ، صوت « الراديو » يهمس به على شاطىء دجلة ، فيسمعه الفرات ، ويسمعه بردى ، ويسمعه النيل .

ولاول مرة في تاريخ الرافدين ينفذ العلم باسبابه الى قلب الارض ، فيستخرج من خيره الثروة ، فينتفع ببعضها اهل البلاد . وسيتدرجون ان شاء الله الى التمتع بمنافعها كلها .

هذي هي الاوليات الباهرة ، النيرة المنيرة ، المحركة المعززة لاسباب المدنية والعمران . هي اوليات في هذا القطر العراقي العربي نأمل ان تستمر في نموها ، فتنتشر في الاقطار الاخرى ، ويعم خيرها البلاد العربية جمعاء .

ومن اهم هذه الاوليات هذا المعرض المبارك ، معرض الزراعة والصناعة والفنون . ها هنا ، ايها السادة والسيدات ، ، قطب الدائرة . ها هنا مفاتيح الاعمال المثمرة . هاهنا مصادر الثروة والقوة . ها هنا الاستقلال الحقيقي ، الاستقلال الاقتصادي الذي يضمن للامة حريتها ، ويعزز حقوقها ، ويرفع شأنها ، ويحفظ كرامتها بين الامم . واعلموا ، رعاكم الله ، ان الاستقلال السياسي موكول بالاستقلال الاقتصادي ، وبدونه لا تستقل امة في هذا الزمان .

قيل ، والقول حق ، ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى . وقد اخذناه في الماضي بالسيف ، وعززناه ونشرنا اعلامه بالسيف والقلم . فاذا عدنا الى الماضي نعود الى ما فيه من مجد خالص نقي ، نعود الى مصادر النور والاحسان ، نعود الى ما في الماضي مما يلائم روح الزمان .

ان الفتح الاكبر لهو فتح عالم الاسرار الكائنة في الارض وفي السماء . وان الخراج الذي لا يثقل عاتق انسان ، ولا يشوبه شيء من الظلم والاثرة ، انما هو الخراج الذي نجبيه بواسطة العلم من القوى الكامنة في الكون — من الاثير ، من البخار ، من الكهرباء ، من معادن الارض كلها . فكلما ازداد استثمار ينابيع الثروة في البلاد قلت فيها الضرائب ، وخف على الناس الخراج .

وفي هذا المعرض امثلة من اسباب الجباية والخراج ، وفيه مفاتيح الثروة والعمران .

ها هنا السهل الرحب للاعمال المفيدة ، ها هنا ميدان الكفاح والجهاد ، ها هنا ساحة المباراة العلمية العملية بالزراعة والصناعة والفنون ، ها هنا المدرسة التي تعلمنا ان نحترم العمل ونعزز العاملين ، وان نقدس الاجتهاد والذكاء ، ونمجد الاذكياء المجتهدين المنتجين المبدعين . ها هنا يد الامة وعقلها وقلبها ، وها هنا ابواب للايدي والعقول تؤدي الى ذروات الاكتشاف والاختراع . بل ها هنا ، ايها السادة والسيدات ، مجد الامم الحقيقي ، مجدها الاعظم ، مجدها الخالد بما فيه من الخير الشامل للناس اجمعين .

ان في العالم اليوم ، وخصوصاً في اوروبه واميركه ، حرباً اقتصادية هائلة . فاذا استقلت البلاد كل الاستقلال غداً ، وكانت في الاقتصاديات ضعيفة الاسباب ، اسباب الاستثمار والحماية ، فقدت ولا غرو استقلالها . ومن الحقائق الباهرة ان العلم ، الذي كان قوام الحروب العالمية ، باختراعاته المهلكة المدمرة ، هو باكتشافاته واختراعاته العجيبة المعمرة اساس هذه الحرب الاقتصادية . ان الصناعات والفنون سلاح الحرب السلمية ، اذا صح التعبير . ولا صناعات ، ولا فنون ، ولا ثروة ، ولا قوة الا اذا استثمرنا على السواء ما كمن في قلب الارض ، وما كمن في عقول ابنائها .

وان في العالم اليوم ، وخصوصاً في اوروبه واميركه ، نهضةً مباركةً ، تسير والحرب الاقتصادية دون عطف عليها ، بل معارضة لها . هي النهضة التي اجتازت باغراضها القوميات الى الاممية ، اي الى ما فيه خير الانسانية ، خير شعوب الارض اجمعين . وقد تدرك هذه النهضة هدفها الانفع الاعلى في المستقبل ، فيتم تآخي الامم ، ويعم تضامن الشعوب ، فيتحقق الامل الاكبر بالسلام العام في العالم . على ان القوميات التي لا تزال مقسمة مشتتة الاجزاء ، مثل القومية العربية ، لا تستطيع ان تشارك في هذه النهضة ، وتشترك بمنافعها ، الا بعد ان تجمع شتاتها ، وتوحدها كلها في امة واحدة منظمة متضامنة . واننا في السعي المتواصل لهذا الغرض الاشرف الاسمى نبذل الجهد على الدوام في بث الروح العالمية الانسانية في البلاد الناهضة ، السالكة مسلك التوحيد .

فلتطمئن اذن اوروبه ، وليطمئن جيراننا شرقاً وشمالاً . ان الامة العربية الجديدة ستكون جديدة في شكلها ومعناها ، في سبيلها وهدفها ، في روحها وعملها . امة تنشد الاخاء الدولي ، امة موالية ، مسلحة بالعلم والثقافة ، امة تأخذ عن الغرب محاسنه ، وتقدم للغرب المحاسن الشرقية . امة ابية حرة عزيزة كريمة ، تسارع الى التعاون وجيرانها ، ولا تبغي في كل اعمالها واغراضها غير حقها الطبيعي ، وقسمتها من الحياة ،

فلا تستغويها اذا ما اشتد ساعدها الفتوحات ، ولا تستفزها بهمات الاستعمار . ولكننا لا نصل الى هذه الذروة الوطنية القومية ، فنتمكن من الاتصال بالذروات الاممية الانسانية ، الا بعد ان تتخلص البلاد من كل سيطرة اجنبية ، ويرتفع شعبها الى مستوى الشعوب الراقية في العالم .

ولا خلاص ، ولا رقي ، الا بثلاثة ، هي الزراعة والصناعة والمدارس — الزراعة المؤسسة على العلم ، والصناعة القائمة بمهارة العمل والاختراع ، والمدارس العمومية التي تجعل هدفها التهذيب العصري العالي ، فتقرن التعليم بالتربية الحقة ، وتجرده من التقاليد القديمة البالية .

ان مثل هذا العلم لركن الوطنيات كلها ، بل هو عمود البيت ونوره واثاثه . فكما اننا ندعو لجمع شمل العرب وتوحيد كلمتهم ، اي لتكوين قومية جديدة من الكتلات المتعددة المتشتتة ، فاننا كذلك ومن اجل ذلك ندعو لتعليم عصري علماني عمومي ، تسطع انواره في المدارس الوطنية ، المجردة من كل صبغة دينية ، المدارس التي تتألف فيها الطائفة الكبرى الجديدة ، طائفة الوطن الشامل ، التي ينبغي ان تُرفع فوق الطوائف والاحزاب والملل كلها . الوطن الشامل ، اقول ، العراقي اليوم ، العراقي السوري غداً ، العراقي السوري الفلسطيني تدريجاً ، العراقي السوري الفلسطيني الحجازي النجدي اليماني بعد ذلك .

هوذا الهدف الاوحد الاعلى . لا انكر انه هدف عال بعيد ، دونه صعوبات ، دونها عقبات . ولكني متيقن ان الامة التي سادت الشطر الاكبر من العالم في الماضي ، تخفقت اعلام مجدها في القارات الثلاث ، من السند الى الاندلس ، ومن باب المندب الى بلاد الروم — وقد كان ذلك الماضي بالمقارنة وزماننا مظلما — لا تعجز في هذا الزمان ، زمان النور الاعم ، ان توحد السيادات القومية في ارضها . ان الامة التي كانت في مقدمة الامم علما وثقافة في زمن الرشيد والمأمون لا تعود ، وقد استيقظت ، الى النوم ، ولا تقف ، وقد مشت الى الامام ، في منتصف الطريق . ولا ترضى ، وقد مدت يدها الى العلى ، بان يكون قسم منها متقدما ، وقسم متأخراً ، قسم حراً ، وقسم مقيداً ، قسم مجزئاً ، وقسم موحداً .

على انه ينبغي لنا ان نبدأ بالاقسام فنحكم عقدة التوحيد فيها — نوطد فيها الوحدة القومية — فيجيء ارتباطها بعضها ببعض وثيقاً متيناً . فاذا كانت الوحدة واهنة متزعزعة

في سوريه مثلاً او في العراق فاية رابطة تربط البلادين تكون من جنس ما هو سائد في احداهما او في كلتيهما ٠ وان هذا لمعقول ، انه لمنطق صحيح ٠

على العراق اذن ، وهو اليوم في المرحلة الاولى من حياته القومية ، ان يقوم بهذا الواجب الاول لنفسه وللقومية الكبرى ٠ عليه ان يجمع قواه ويوحدها ، ويوطد اركانها ٠ فاذا كان رجال العراق ، سياسيوه وادباؤه ، يلهون من جهة عن اللب بالقشور ، او يمكنون من الجهة الاخرى الاجنبي منهم ، فيستثمر ما في البلاد من عوامل التفرقة ، فالطور الذي ندعوه طور الاستقرار لا يطول ، فيعود نزاعاً واضطراباً ٠

« اخاف التواء الامر بعد استوائه وان ينقض الحبل الذي كان ابرما »

اخواني ، عرب العراق ٠

ان الاعمال السلبية مهما عظمت لا تنهض بالام ٠ وان الاحزاب التي لا خطة ايجابية عمرانية لها قلما تنفع البلاد ٠ واعلموا كذلك ان ليس في ما يفسد الاعمال والاحزاب كلها اخبث من الريبة والشبهات ٠ ان من الزم ما يلزم ، بعد اليقين والاخلاص ، الثبات والتؤدة ، ثم التعاون في تحقيق المطالب والامال ٠ الريبة تذهب بالعزم ٠ الشبهات تفسد الاعمال وتؤدي الى اليأس ٠ واليأس لا يعمر شيئاً في النفس او في الامة ٠ اليأس من اشد عوامل التقهقر في الحياة ٠

وكلما تمكن السياسي او المصلح الاجتماعي من يقينه ، وتصلب في مبدإه ، اشتدت في سبيله المقاومة والعداوات ، فيزيده ذلك قوة وثباتا ، ويوجب عليه التضحية الكبرى في سبيل ما يبغيه من الاصلاح ٠

على ان التضحية لا تكون ببذل المال والدماء فقط ٠ فان اكبر التضحيات واعلاها ، واكثرها نفعاً في امة تعددت نزعاتها الشخصية والحزبية والملية ، انما هي تضحية الانانية ٠ هي ان نذيب شخصياتنا ، خصوصاً ايام الازمات ، في الشخصية الكبرى التي تشمل جميع ابناء الامة ، اي شخصية الوطن الممثلة في جلالة الملك ٠

وان ملك العراق الديمقراطي العصري لملك حكيم ، سديد الرأي ، بعيد النظر والمرمى ٠ وهو العربي الصميم ، والسياسي المحنك ، الكبير الخُبْر ، الكثير التجربة ، العالم باحوال الام علمه باحوال شعبه ، المدرك العقلية الاوروبية ادراكه العقلية العربية ٠ لا يليق بي التوسع في هذا المقام بوصف سجاياه الشريفة كلها ، بل لا يليق بي المديح وانا اشعر اني في هذه المدينة مائل دائماً بين يديه ٠

على اني اقول ان لولا الجهود السياسية التي بذلها الملك فيصل ، وهو واقف بين القوة والحق في العراق ، يعالج عوامل القوة ، ويدافع والزعماء عن الحق ، لما كان العراق اليوم بلغ الاستقرار ، وادرك الاستقلال البدائي المبدئي ، الذي سيصير ان شاء الله استقلالا عمليًا تامًا . ان ذلك موكول بامرين جوهريين ، بالاتحاد الوطني ، وبالثقة المتبادلة بين السياسيين على اختلاف نزعاتهم وبين صاحب الجلالة .

اخواني ، عرب العراق .

ان الكون الاعظم يقوم بثلاثة ، هي النظام والحب والقوة . مثال النظام في النجوم وافلاكها ، ومثال الحب في ذلك الشيء الالهي الذي يحفظ النجوم في افلاكها ، كل في فلكه يسبح ويسبّح ، ومثال القوة في ما ينشأ عن النظام والحب ، اي النور والحياة . والوطن مثل الكون الاعظم يقوم بثلاثة : النظام والحب والقوة . النظام في الامة ، والحب لمليكها او رئيسها ، والقوة التي تنشأ عن الحب والنظام ، النور والرقي والعمران والثروة ، اي القوى المادية والمعنوية بمظاهرها المتعددة كلها .

واني علَى يقين ان النقص والوهن في عامل واحد من هذه العوامل الثلاثة يفسدها كلها ، فتضطرب الامور ، وتنتشر الفوضى ، وتعمل في البلاد ايدي التدمير والبلاء .

شهر في بغداد علمني اشياء اصارحكم بها . وقفت في هذه المدينة وقفة العربي المستفهم المستفيد ، فسمعت واستفدت . تزاحمت حولي الاضداد ، فتضاربت الاراء والعقائد ، وتباينت النزعات والاغراض . ولكني رأيت فيها كلها نواة حياة جديده . رأيت طلائع اليقظة ، وسمعت حفيف اجنحة التجدد .

رأيت الوطنية طفلاً في ثوبها العربي ، ورأيتها شابة في ثوبها الافرنجي . رأيتها ، وانا واقف في ظلها وفي نورها ، تنظر تارة الى السماء وطوراً الى الارض ، فتشكو وتسكت ، وتضحك وتبكي . وهي واحدة في الحالين ، في ضعفها وفي قوتها ، في وَجلها وفي حماسها ، في اعتدالها وفي طموحها . بل رأيتها كغصن الورد في برعمه وزره ، وزهره . اجل ، ان الحقيقة في القلوب واحدة ، وان تفاوتت شكلاً ونمواً .

وبكلمة اخرى ، قد تجلى لي الامل الوطني وطيه شيء من التحفظ ، وقد بدا لي اليأس الوطني وطيه شيء من الامل . سمعت الناس يستعيذون ثم يشكرون ، وسمعتهم

يشكرون ثم يستعيذون . وقد لا يكون الفرق سوى في التقديم والتأخير . فاني متأكد ان ليس في البلاد واحد ، من جلالة الملك الى اصغر المشتغلين في السياسة ، يزعم او يدعي ان الحال في البلاد تستوجب الشكر التام ، او انها لا تستوجب غير الاستعاذة .

فالحقيقة كل الحقيقة هي ان العراق في باب استقلاله ، وان كل مقدراته في بدايتها . فاذا ادركت الامة ذلك ، وادركت فوق ذلك ان من اعان نفسه اعانه الله ، فهي تدخل الباب متحدة متضامنة مطمئنة ، واثقة بنفسها وملكها ، بعد ثقتها بالله ، فتمشي الى الامام ، وتجتاز المراحل الواحدة بعد الاخرى ، وهي فائزة على الدوام بما تقصده في كل مرحلة .

« واذا رأيت من الهلال نموه ايقنت ان سيصير بدراً كاملا »

فهرس الاعلام

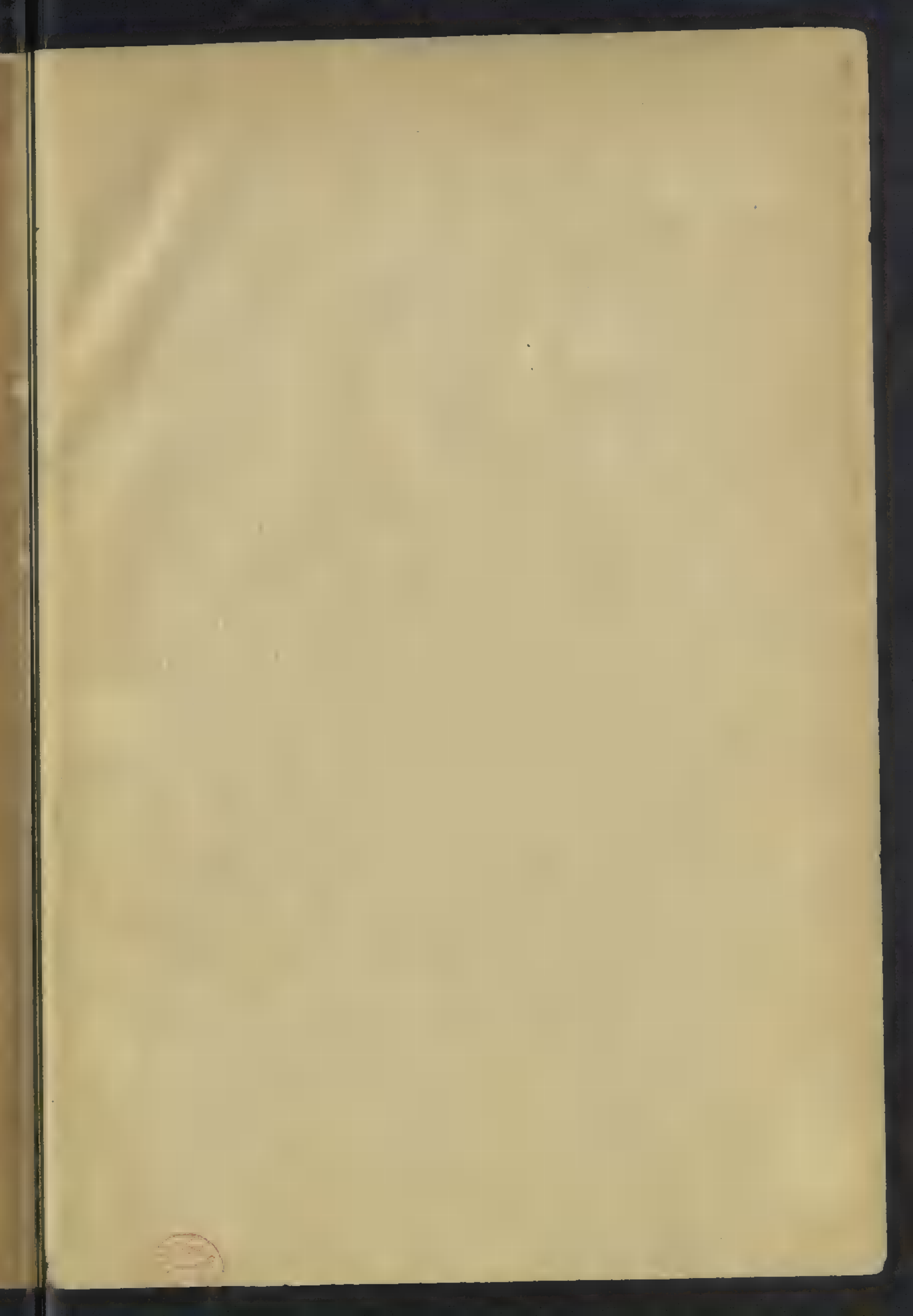
تنبيه : ان علامة — الواردة بين رقمين تدل على ان الاسم المذكور يتخلل الصفحات الواردة بين هذين الرقمين . لم نذكر اسمي بغداد والعراق لتخللهما اكثر صفحات الكتاب .

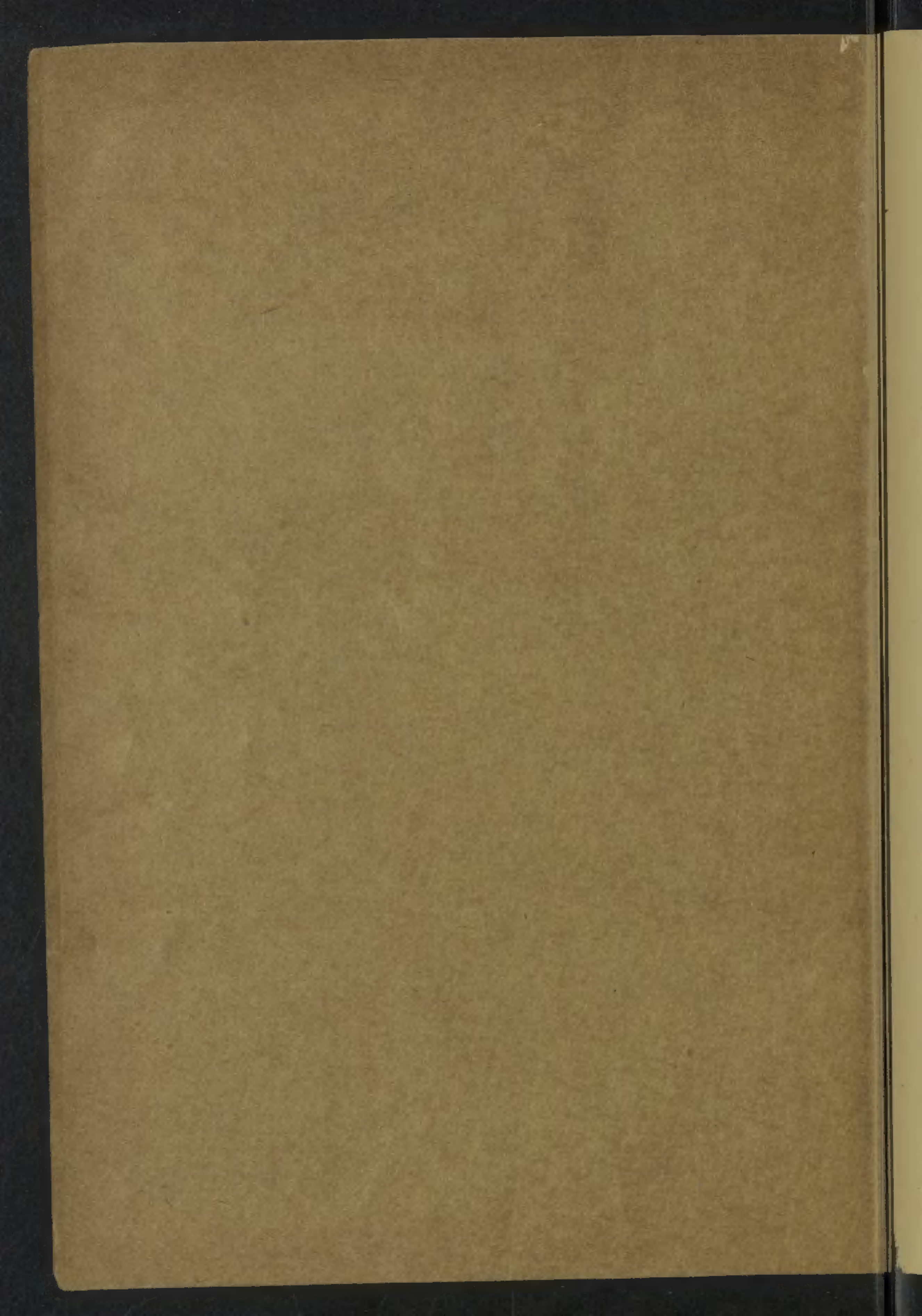
— حرف الالف —

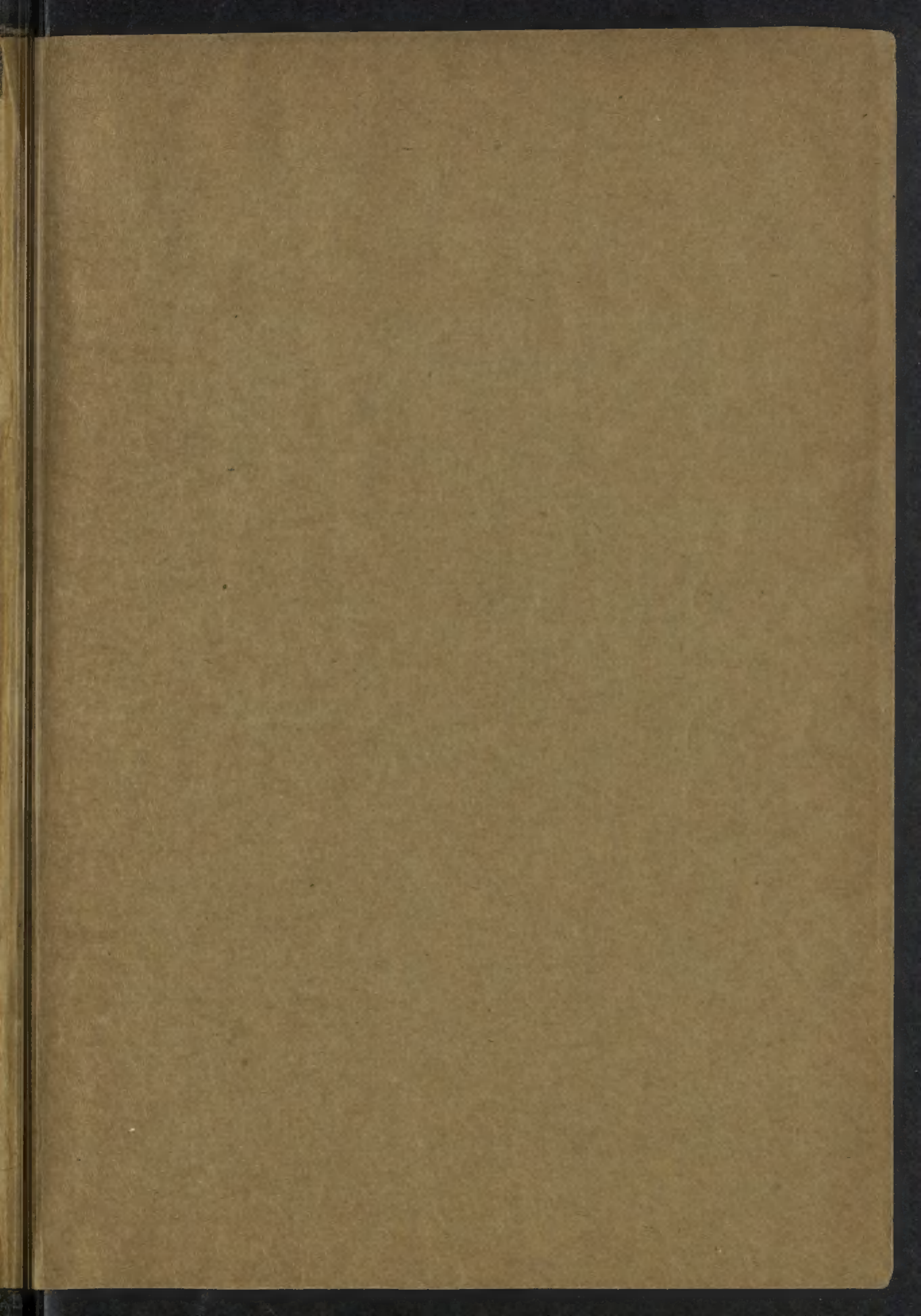
— حرفا الغين والفاء —

— حرفا القاف والكاف —

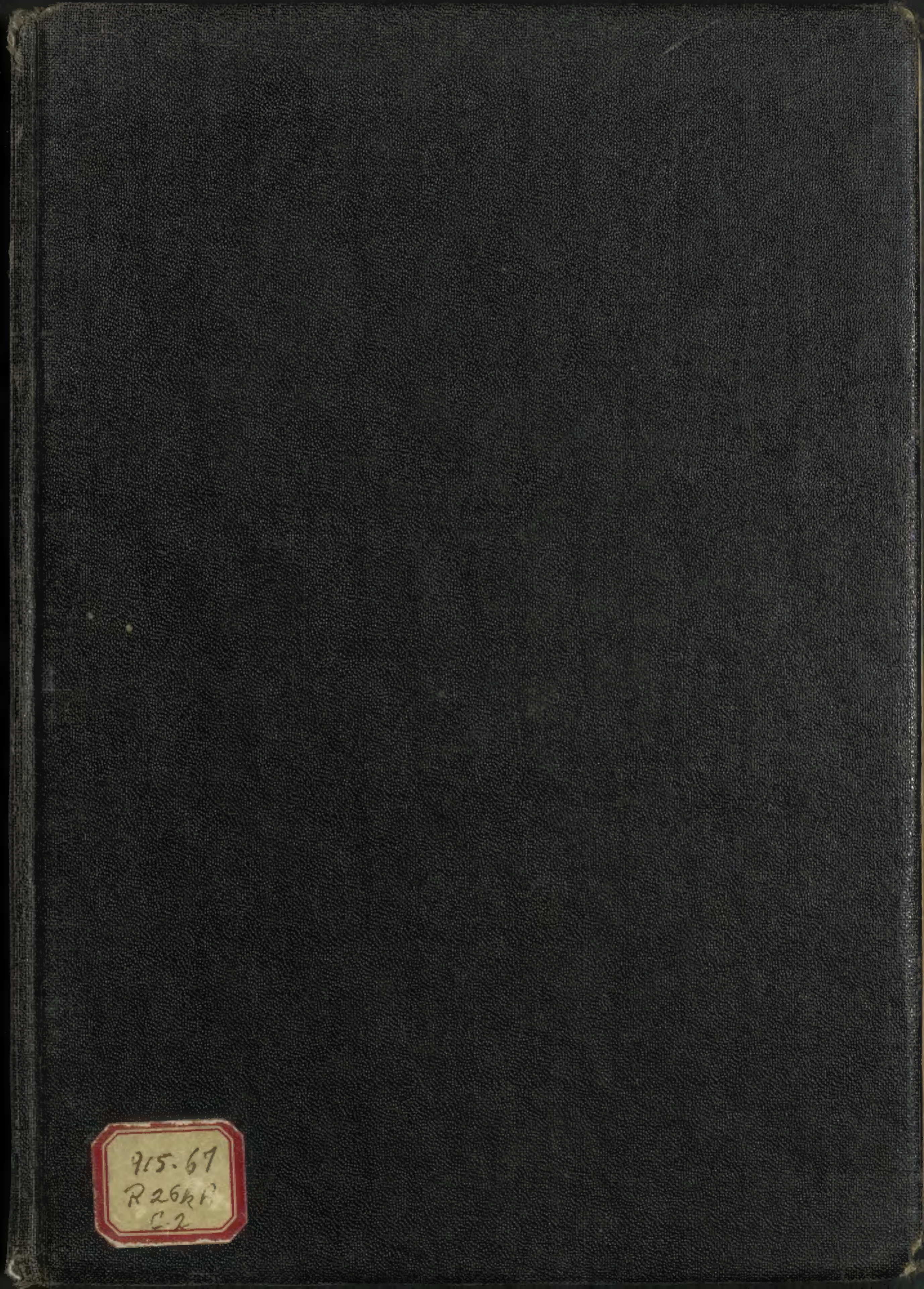
— حرفا الواو والياء —








AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت


915.67
R26kP
C.2